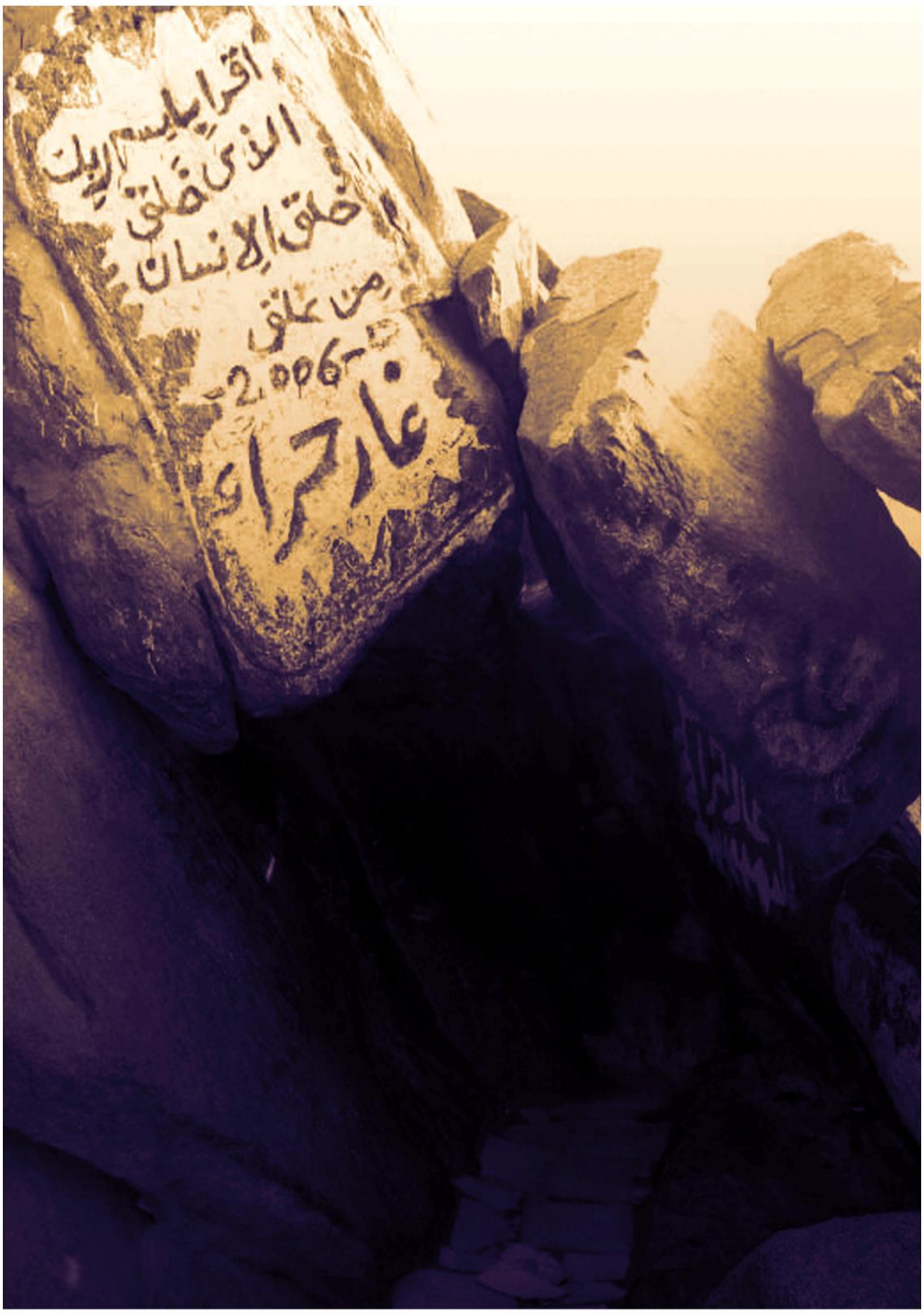

حراء: غار النور

السيد إبراهيم أحمد

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني.
www.Nashiri.Net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.
نشر إلكترونيا في جمادي الثاني،1438/مارس 2017.

يمنع منعا باتًا نقل أية مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبيها، ولا تتحمل دار ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

الإخراج الفني: أبـرار الحازمـي
تصميم الغلاف: جميـلة حسـن
التدقيق اللغوي: محمـد المـلاح

محتـــويات الكتـــــاب

المقدمة.....5
الباب الأول.....7
حراء، اللحظة الفارقة.....7
الفصل الأول.....8
معجزة الصعود والانقطاع.....8
هوامش الفصل الأول.....31
الفصل الثاني.....32
حِرَاء، والتقاء الأرض بالسماء.....32
هوامش الفصل الثاني.....52
الفصل الثالث.....53
حِرَاء، وقرائح الشعراء.....53
هوامش الفصل الثالث.....95
الفصل الرابع.....100
حراء بين التقدير والتقديس.....100
هوامش الفصل الرابع.....107
الفصل الخامس.....108
حراء بين الواقع والمأمول.....108
هوامش الفصل الخامس.....125
الفصل السادس.....126
حراء، بين الصوفية والشيعة.....126
هوامش الفصل السادس:.....160
الفصل السابع.....165
غار حراء في الكتب السابقة.....165
هامش الفصل السابع:.....178
الفصل الثامن.....181
أثر حراء، في الفنون.....181
هوامش الفصل الثامن:.....194
الباب الثاني.....195
أحداث حراء بين التســاؤلات المشروعة والافتراءات المصنوعة.....195
الفصل الأول.....197
التساؤلات المشروعة في أحداث حراء.....197
هوامش الفصل الأول:.....205
الفصل الثاني.....206

الافتراءات المصنوعة في أحداث حراء 206
هوامش الفصل الثاني:..... 228
الفصل الثالث..... 230
قـــــراءات جديدة في "اقـرأ" 230
هوامش الفصل الثالث:..... 242
ثبت بأهم المراجـــع 243
سيرة تعريفية بالكاتب..... 249

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك

المقدمة

إن الحمد لله تعالى أحمده وأستعينه وأستهديه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا رسول الله، فاللهم صلِ وسلم على النبي الأمي، وعلى آله وصحـــــــبه وسلم، وبعد:

هذا كتابٌ خاص يدور حول "حِراء" ذلك الغار الذي شهدت لياليه خلوات الرسول صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، وشهد تأملاته، وهو أيضًا الغار الذي خلدته صحائف الدنيا بشتى لغاتها من قديم وجديد، عندما التقى أمين السماء بأمين الأرض عليهما السلام، لتعلن السماء جدارة البشر بالاصطفاء الإلهي، وتَحمِّل محمد بن عبد الله أمانة تكليف وتشريف تبليغ آخر رسالات السماء إلى أهل الأرض بالإسلام الخاص، والتي جاءت تتويجًا للإسلام العام لكل الرسالات السابقة، وللرسل والأنبياء الذين سبقوه عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ليس هذا فحسب، ولكن لأن هذا الغار قد شهد اللحظة الفارقة والتاريخية ليس في حياة المسلمين والعرب بل في حياة البشر وتاريخ البشرية، حيث ستصبح هذه اللحظة سببًا في تعديل مسارات رسالات سبقت، وزلزلة صدق كتبها السماوية التي زايلها الحفظ الإلهي، كما ستهدم إمبراطوريات وممالك، وتزيل طغاة، وتهدي شعوبًا وأقوامًا، وتبني دولاً وممالك وإمبراطوريات، وتحافظ على حضارات، وتبني حضارات.

إنها اللحظة التي سيواجه فيها محمد بن عبد الله عَالَم قريش، ثم العَالَم الكبير بشمس التوحيد التي ستصهر الوثنيات والشركيات الزائفة والمصنوعة، والتي ستهب جميعها بأساطينها وكهانها وسدنتها منذ تلك اللحظة وحتي يومنا هذا وما بعده إلى أن يرث الله ــ تعالى ــ الأرض ومن عليها لحرب، ومحاولة هدم، وتفجير تلك اللحظة لتفتيتها كأساس قوي قامت على أركانه دعائم الدين الجديد الوليد؛ بغية محوه وإزالته من خلال بث افتراءات ومزاعم وأكاذيب عبر مؤامرات تحاك في دهاليزها ليل نهار دون كللٍ أو ملل.

قد يكون هذا الكتاب هو الأول الذي ينفرد بـ"حراء .غار النور"، لا ينشغل بحدث غيره، يحتضنه بكل زواياه ورؤاه، وذلك بانعكاس أَشِعَتَه على المسلمين وغيرهم، وعلى المستويين الديني والأدبي معًا.

وهو الأول ـــ فيما أعتقد ـــ لأني لم أقف على كتاب يتناول "غار حراء" وحده، فمن وقفت عليه من كتب وغيرها كان في الأغلب حديث إذاعي ومحاضرة وكتاب؛ فأما الحديث فهو للشيخ الجليل أبي الحسن الندوي، وعنوانه: "من غار حراء" وأذيع من محطة الإذاعة العربية السعودية في شوال 1370 هـ، وأما المحاضرة فهي للعلامة المغربي محمد بن عبد السلام السائح، وعنوانها: "تدفق العلم من غار حراء" ولم أحصل عليها، وأما الكتاب فيتناول الغارين معًا: حراء وثور، وتسمى بهما، وهو للمؤرخ إبراهيم القادري ومنهجه مختلف عن منهجي في تناول غار حراء وحده، كما سبق أن أشرتُ، وهو ما يخالفه بالجمع بين الغارين بداهةً.

وهو الأول ـــ ولا شك عندي في هذا ـــ لاختلاف منهجه في التناول مع أي كتاب سبقه في تناول "حراء" منفردًا، ولعل من سيطالع أبواب وفصول الكتاب سيقف بنفسه على هذا، كما أن الجهد المبذول فيه من استقصاء من زار ومن صعد ومن تأمل، والأحداث والرؤى التي ارتبطت به وربطت بينه وبين طوائف إسلامية مختلفة لتشهد بهذا، كما سيشهد بهذا الباب الذي تناول كم الافتراءات والشبهات والردود عليها، وهو جهد أبينه ككاتب لأحفز القارئ أن يبذل جهدًا مقاربًا إن لم يكن مماثلًا في قراءة هذا العمل بجدية وحب وتأمل.

فأرجو من الله أن يقع هذا الكتاب من قلوبكم الموقع الذي يستحق بقدره لا بقدري، فقدره جليل بجلال التنزيل، وجمال وجلال المعصوم الكامل صلى الله عليه وسلم.

المؤلف

الباب الأول

حراء، اللحظة الفارقة

معجزة الصعـــــــــــــود
حـــــــراء، والتقاء السماء
حـــــراء، وقرائح الشعراء
حـــراء بين التقديس والتقدير
حـراء بين الواقع والمأمـول
حراء بين الصوفية والشيعة
حـــــراء فى الكتب السابقة
أثر حراء فى الفنـــــــــون

الفصل الأول

معجزة الصعود والانقطاع

من أسفٍ أن غار حراء وصعود الرسول صلى الله عليه وسلم إليه ثم انقطاعه فيه طوال شهر رمضان لمدة ثلاث سنوات يختزله العقل المسلم ـ أغلبه ـ في لحظة نزول القرآن الكريم ثم نزوله صلى الله عليه وسلم منه. وهيَّ لحظة فارقة في تاريخ البشرية، توقّف عندها الكثرة الكاثرة من أدباء ومفكري العالم شرقًا وغربًا.

هذه اللحظة التي تبدأ مع زواج رسول الله صلى الله عليه سلم من السيدة خديجة رضيَّ الله عنها، وكيف عجزت أن تستقطبه تلك الحياة الجديدة الزاخرة بكل صنوف الراحة وأسباب السعادة، بل يتركها ويعكف في ظلمة الليل وحيدًا في ذلك الغار النائي الشاهق يتحنث فيه الليالي ذوات العدد، ولو كان غيره من انتقل هذه النقلة الاجتماعية لكان همه تنمية الثروة، لينمو حظه من مباهج الحياة ومتعتها. كان صلى الله عليه وسلم قادرًا علي أن يأخذ نصيبه من الراحة ينام متى أحب، ويأكل ما شاء، متى وكيف يشاء، ويلبس الفارِهَ من الثياب كما يحلو له، لكنه لم يفعل، تقول الدكتورة بنت الشاطئ [1]: (ونامت الدنيا، لا تلقي بالًا إلى رجلٍ من بني هاشم، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، قد أوى إلى غار هناك مستغرقًا في تأمله، يلتمس في العتمة الداجية شعاعًا من نـور الحق، وينشد في خلوته أنس الهدى وراحة اليقين. وخواطره تحوم حول البيت العتيق الذى رفع إبراهيم القواعد منه وإسماعيل).

تأمل محمد علي بن حسين الحريري رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم المنتظمة سنويًا إلى غار حراء، فقال [2]: (أن صعود رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار وحده وتحمله المشقة في سبيل ذلك معجزة: إن التأمل في غار حراء وصعوبة الارتقاء إليه في جوٍ لاهب من الحر والريح الجافة لتؤكد للناس عبر القرون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مؤيدًا ببأس قوي وعناية رب العالمين، عندما ينقطع في الغار الليالي ذوات العدد لا يعبأ بالوحشة والانفراد، ولا يتسلل إلى

نفسه الشريفة خوف من الوحوش والأفاعي، مما يجعل انقطاعه صلى الله عليه وسلم بالغار معجزة مستقلة تؤكد صدقه صلى الله عليه وسلم وصبره على تلقي هذا الأمر العظيم من الوحي والنبوة والتبليغ).

لا يبالغ الحريري في وصف الصعود بالمعجزة، ولعل من رأى صورة الجبل أو تابع رحلة صعود أحدهم إليه مرئيًا قد تعطيه انطباعًا ما، غير أن الأمر يتوقف أولاً على وصف الجبل والغار، ووصف من صعد وروى تجربته، ولذا فمن المستحسن أن نتعرف على جبل النور ذلك الذي يصل ارتفاعه حوالى 642 مترًا، وهو جبل شاق على من يصعده، ذلك لانحداره الشديد عند ارتفاع 380 مترًا، حتى يصل إلى ارتفاع 500 مترًا، ثم يستمر بانحدار 25ر5 كم2، ويقع هذا الجبل في الشمال الشرقي لمكة المكرمة، وليس له غير ممر وحيد لارتقائه من ناحية الجنوب الغربي، ويمكن تقسيم صعود الجبل إلى ثلاث مراحل، المرحلة الأولى وهى أصعبها وعورة ومشقة تبدأ من عند لوحة كبيرة وضعتها هيئة الأمر بالمعروف، وهذه المرحلة صعبة لدرجة أن الذي ينوي صعود الجبل ربما تردد عندها ليقنع نفسه بالتراجع عن قراره بالصعود، وذلك لما سيلاقيه من إرهاقٍ شديد، في الثلث الثاني تبدو الوعورة أخف وأرحم، ومما ييسر المشقة وجود صخور مطلية باللون الأبيض كعلامات لترشد صاعد الجبل بأسهل الطرق التي يجب أن يسلكها، وهي الطرق التي تزخر بالصخور المتقاربة لتكون مايشبه العتبات الحجرية غير المتناسقة، بينما يبدو الثلث الأخير هو الأيسر صعودًا لوجود درجات عشوائية قام بعملها بعض المتطوعين ممن سبق لهم الصعود بُغية الثواب من الله تعالى.

أما عن موقع غار حراء، فهو يقع علي يسار قمة جبل النور، وهذه القمة تشبه الطربوش الذي يلبس على الرأس، أو كسنام الجمل، أو كالقبة الملساء، وهي عبارة عن فجوة بابها باتجاه الشمال طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع الذراع، يتسع للرجل البدين، ويقف فيه الرجل الفارع، ويتسع لبضعة رجال يصلون ويجلسون، ولكي تصل إلى الغار لابد من النزول عبر عتبات للمدخل المؤدي إلى الغار، وهذا المدخل عبارة عن صخور كبيرة متراصة بعضها فوق بعض بينها فجوة صغيرة شديدة الضيق بطول نحو ثلاثة أمتار، لابد من اجتيازها بحذر وبشكل أفعواني يتناسب مع تكوين تلك الصخور الغريبة، لأنها مسننة ومدببة كأنها مزلاج، والعابر منها كأنه مفتاح، ما تلبث أن تمر من هذا المدخل العجيب حتى

تستوقفك صخرة أخرى مستوية تكفي لجسد إنسان يتمدد عليها، بعدها على يسار الداخل تجد باحة ضيقة، وفوقها تجد سقف الجبل كالأم الحانية يغطي المكان كله حماية لمرتاديه من برد الليل وحر النهار وأيضًا من الأمطار الموسمية، وإذا ما قادتك أقدامك عدة خطوات ستفاجئك باحة صغيرة مفتوحة مساحتها الكلية لا تتجاوز ستة أمتار مربعة، تستطيع أن تشاهد السماء منها والأودية على الجانبين الغربي والجنوبي من الجبل.

لا تكاد تسير باتجاه القبلة حتى تشاهد غار حراء، فالداخل للغار يكون متجهًا للكعبة مباشرةً، والغار عبارة عن تجويف صخري صغير داخل حجارة عظيمة رُصت بعناية إلهية واضحة كالمظلات الشمسية أيضًا باتجاه القبلة تعلوها فتحتان صغيرتان تجددان هواءه، يأنس الناظر من إحداها برؤية منارات المسجد الحرام وهي شامخة في عنان السماء، وذلك لوجود انحناء بالغار، أخيرًا، يتسع غارنا الحبيب الذي احتضن الحبيب صلى الله عليه وسلم لخمسة أشخاص جلوسًا، وارتفاعه قامة متوسطة، ولا يسعنا بعد هذا الوصف الذي استقيناه ممن صعدوا ورووا تجربتهم الوحيدة المضنية الجماعية النهارية لقناة العربية التي لم ولن تتكرر ولقد بذلتُ أنا أيضًا مجهودًا مضنيًا حتى استطعت أن استخلص هذه المعلومات وأبسطها أمامك حتى لا يختلط عليك الأمر بين وصف الجبل وبين وصف مدخل الغار انتهاءً بوصف الغار مرورًا بوصف قمة جبل النور، ومن المؤكد أنك أيضًا قد بذلت جهدًا مضنيًا في قراءتها، إذن فما بالنا بمن صعده وحده صلى الله عليه وسلم، ومكث شهرًا كاملًا ثم كررها لعدة أعوام أي جهدٍ مضنٍ بذله صلى الله عليه وسلم دون أن يذكره لأصحابه ولا لأزواجه، سواءٌ على سبيل الفخر أو المن أو على سبيل التذكر.

وبعد استعراضنا لوصف ومشقة الصعود، سيتجلى إعجاز الصعود أكثر حين نطالع تجارب من رووا ذكرياتهم حول شرف المحاولة، وذلك بالتتبع التاريخي لرحلاتهم من قديم وحتى أيامنا هذه، لتشهد بذلك على امتدادية تلك اللحظة بنفس زخمها وقوتها وإعجازها وتأثيرها في نفوس وقلوب من صعدوا، ولهذا فسنبدأ مع قدامى من حاولوا انتهاءً بآخر من صعد.

منذ أن وقع نظر الدكتور محمد حسين هيكل [3] على غار حراء وهو في طريقه إلى قصر الملك غداة وصوله إلى مكة، وقد تعلق به نظره وشد إليه مشاعره، وهو لا يتعجب من هذا الشوق الجارف والحنين الطامح له: (على هذا الجبل؛ حراء كان خاتمة التمهيد والتهذيب والإعداد قبل الرسالة) ومع استعادته لهذه اللحظة المتفردة، وتجواله داخل أحداثها منذ صعود الرسول صلى الله عليه وسلم إليه، واعتزاله العالم فيه، ونزوله منه، وإعلان رسالة السماء، وما لاقاه من قومه، كل هذا ساهم في جيشان صدر الدكتور هيكل وفاضت به رغبة ملحة في صعود جبل النور حتى يلاقي حراء وجهًا لوجه، فيقول: (ألحَّت عليَّ الرغبة في ارتقاء هذا الجبل لأقف حيث كان يقف محمد، وأشهد من مظاهر الخلق ما كان يشهد، ولأرى الغار الذي كان يقضي فيه ليله، والذي نزل عليه الروح الأمين بالوحي فيه، وأفضيتُ إلى أصدقائي برغبتي، وأبدى جماعة من أهل مكة الرغبة في مصاحبتي؛ ليشهدوا معي ما لم يشهدوا من قبلُ على قربهم منه، وكان بعد صلاة العصر من يوم الجمعة موعدنا، فأقلتنا السيارة).

يصف الدكتور هيكل رحلة الصعود، فيقول: "لقد كان حراء ينحدر وأنا أنظر إليه من بعيد في استقامة مخروطية تجعله أدنى إلى برج شاده الإنسان، وها هو ذا الآن وله سفح كسفوح الجبال، وتبدو على السفح آثار طريق لسير الناس فيه، لكن قمته أكثر استقامة من سائر ما حولها من القمم. أتراها أشد عسرًا في الصعود إليها؟ سألتُ عن ذلك فهوَّن القوم عليَّ الأمر، وذكر من تسلقوا هذا الجبل من قبل أن الله يهئ للصاعد فيه من أسباب اليسر ما لا يهيئه للصاعد في غيره من الجبال، لكننا أتينا بعد الظهيرة، وهذا السفح الذي يصعد الناس منه تطالعه أشعة شمس المغرب وينحسر الظل لذلك عنه، ولو أننا أتينا مصبحين لكان صعودنا في الظلال أكثر يسرًا، على أن أصحابي ذكروا أن الإنسان يستدير في صعوده إلى الفيء حين يقترب من القمة، وأنه يرى منها عند المغيب وقرابته كل ما حول حراء إلى أبعاد نائية مما يحجبه الضوء الباهر حين الظهيرة. وسرنا إلى السفح وبدأنا نتسلقه، بدأنا في نشاط رجونا ألا يفتر قبل الغاية، وماله يفتر والجبل ليس أمامنا ليس بالغًا في ارتفاعه ما يخاف الإنسان معه اللغوب. وسرنا في الطريق المألوف خلا شابًا منا آثر أن يختصر هذا الطريق وأن يتسلق الجبل في استقامة تدنيه من غايته، وأنذره أصحابه أنه جاهدٌ نفسه بهذا الصعود العنيف فَمُنْقَطَعٌ به دون القمة، ولم

يسمه شبابه لإنذارهم، وانطلق انطلاقة السهم، ويقف بين آنٍ وآنٍ فوق صخرة من الصخور يصيح بنا صيحة الفائز المنتصر، وقطعنا في تسلقنا دون ربع الساعة، ثم بدأنا نشعر بالشقة ونقدر طول الطريق الذي حسبناه من قبل قصيرًا، وزاد بنا الشعور بالمشقة، فاتخذنا من فَيء صخرة حمًى نستريح إليه، وعاودنا سيرنا حتى عاودتنا المشقة فاسترحنا كرَّة أخرى، وكلما أخذ منا الجهد ارتفعنا بأبصارنا نحْرزُ ما بقي من الطريق إلى القمة، واستدرنا في تصعيدنا إلى الفيء، وسرت إلينا نسمات منعشة بنشاط كان وشيكًا أن يفتر، وجلسنا ننعم بهذا النسيم ونَعُدُّ العدة للوثبة الأخيرة إلى القمة، ما كان أحوجني إلى هذه الجلسة! كانت أنفاسي تضطرب وصدري يعلو ويهبط فكاد يمزق أضلاعي، والعرق يسيل من كل مسام جسمي ويبلل كل ملابسي، وأمسكتُ لا أتفوَّه بكلمة، وفتحت خياشيمي أستنشق النسيم بكل قوة ألتمس هدوءًا لصدري واستعادة لسكينة نفسي، وقال أحد أصحابنا من أهل مكة وقد طاب له المكان الظليل: (إني ناظركم هنا حتى تعودوا من القمة، فلم يعد في مستطاعي أن أصعد)، ولعله أراد أن يمتحن صبري وليبلوَ احتمالي، وكيف لي أن أقف دون غايةٍ قصدتُ إليها ما بلغ الجهد مني، ولستُ أدري متي يتيسر لي أن أعود إلى مكة؟ ولهذا الجبل وللغار من السحر في قلبي والسلطان على مشاعري ما يهون معه كل جهدٍ وتطيب به كل مشقة! ولم تكُ إلا دقائق حتى رأيتني أكثر نشاطًا وقد اطمأن صدري، وعادت إلى نظامها أنفاسي، وَسَرَتْ إلى فؤادي مع النسيم بهجة لم أشعر من قبل بمثلها، وخلَّفنا صاحبنا وقمت ومعي رجلان يحمل أحدهما الماء المثلوج ويحمل الآخر الشاي الساخن في "تُرْمُذَيْن" كانا لمثل هذه الرحلات خير عون. وانطلقنا مصعدين نتيامن ونتياسر مع الطريق خلال شعاب الجبل، وقد جدَّدت الراحة نشاطنا، وزاد فيه الظل والنسيم، وقوَّاه اقتراب الغاية والثقة بالنجاح في إدراكها، وتلَفَّتُ بعد فَينة، فإذا ورائي عبد أسود ناداه أحد الرجلين اللذين معي: (يا فقي!)، وحسبتُ أنه يعرفه، ثم علمت أن العبد من "التكارنة" الذين يقيمون بمكة ألوفًا، وأن هذا اللقب يطلق على كل فرد منهم، وأنهم يلتمسون مثل هذه الفرصة لمعاونة صاعد متعب لعلهم ينالون منه بُلغة يومهم، ولم أكن في حاجة بعد ما نلت من الراحة إلى معونته؛ ولكنني اطمأننت إليه و أنست بوجوده إلى قدرتي على تحقيق غايتي، وازدادت قدماي قوة في الصعود والتسلق، وزادني أنسًا إليه أنه التزم الصمت ولم يشارك من معي في الحديث، فدل بذلك على أنه لا يبتغي غير بذل العون لمن يحتاج إلى عونه. ودعاني صاحباي إلى

الجلوس كيما أستريح، وإني لأحاورهما مترددًا إذ سرى على النسيم إلى سمعنا صوت الشاب الذي اختزل الطريق إلى القمة يهيب بنا أن هلمَّوا، ورفعت بصري كيما أراه فإذا بالجو ينكشف، وإذا ما حولي أكثر ضياء، وإذا الشاب قد تسنم مكانًا زعم أنه الغاية التي جعلناها مقصدنا، وأزال ما رأيت ترددي، فلم أجلس ولم أعبأ بما عاودني من البُهْر، وتابعتُ تسلقي وأنا أستدير حول صخرة حينًا وأقف مكدودًا بين صخرتين هنيهة، وطالعتنا الشمس كرَّةً أخرى؛ لكن أشعتها تسربت إلينا من ناحية القمة فكانت بشير الفوز، وزادتْ عزمنا مضيًّا، وحرصنا على بلوغ الغاية قوةً، والشاب ما يفتأ يهيب بنا ويثير حميتنا، ونحن نقف ثم نتسلق، ونقف ثم نتسلق، حتى انفرجت الشعاب والصخور أمامنا على سطح مسْتوٍ اندفعنا إليه مطمئنين إلى أنَّا إذ بلغناه قد صرنا من القمة والغار على بضعة أمتار، وليس استواء هذا السطح من عمل الطبيعة، وهو لم يكن مستويًا أيام كان محمد يصعد حراء للتحنث فوقه؛ إنما سواه الناس حين كان الألوف من الحجيج يصعدون يبتغون القبة المشيدة على القمة للتبرك بها. وارتقينا من هذا السطح عشرين مترًا أو نحوها، وبلغنا القمة التي كانت تقوم القبة عليها، وهنالك انكشف لنا الوجود المحيط بنا كله، فهذه القمة أعلى حراء، وهي ضيقة لا يزيد مربعها على الثلاثين أو الأربعين مترًا، وهي مكشوفة لا يحيط بها صخر ولا يحجب الناظر منها إلى ما حولها حجاب".

وصل الدكتور هيكل في نهاية صعوده إلى مبتغاه، وقد نقل إلينا كيف وصل إلى الغار ثم ينقل وصفه حين رآه لأول مرة، فيقول: "عاد إليَّ بعض أصحابي، فانحدرنا إلى الغار الذي كان ملجأ رسول الله والذي نزل عليه الوحي الأول فيه، وبين الغار والقمة عشرون مترًا أو نحوها، وهي مقدار ما بين السطح الأول والقمة، والوصول إليه يقتضي المرور بين صخرتين تكادان تتلاصقان، فلا يتخطى الإنسان ما بينهما إلا بمشقة وإن كان نحيفًا، فإذا تخطاهما وجد الغار في داخل الجبل محجوبًا عن كل ما حوله بالصخور الضخمة، وهو أشد من كل ما في الجبل وحدةً وعزلة، ووجده لا يتسع لأكثر من شخص واحد ينام فيه نومًا خشنًا جافيًا كل الجفاء، دخل الشاب الذي معنا إليه وتمطى فيه، فلم يطق المقام به غير لحظة ارتد بعدها إلينا ووقف معنا يشهد وإيانا في هذا الوسط الموحش ذلك الوَكْر المخوف، يفزع منه من يجهل أن الحياة لا يملكها إلا من سَما فوق الخوف من كل ما في الحياة، وهو

مخوف حقًّا، ولولا ما تنطوي عليه نفوسنا من تقديس إياه لما طاوعتنا إلى البقاء أمامه، ولفررنا مشفقين مما فيه، وأنى لنا أن نعرف ما فيه والصخور الضخمة حوله لا تدع مسربًا للنور إلى أبعد من فوهته، فأما ما وراء الفوهة فظلام لا تهتك العين حجابه، والجبل بشعابه من وراء الصخور أجرد داكن اللون في حمرة قاتمة يزيد المخاوف ولا يهوِّن منها).

أدى الفقيه والأديب والقاضي السوري الشيخ على الطنطاوي [4] فريضة الحج حين كان طالبًا مبتعثًا من بلاده للدراسة في مصر، فأرسلته الدولة المصرية مع بعثة طلابية للحج في النصف الأول من القرن العشرين وكان آنذاك -رحمه الله - رياضيًا فتيًا، فيقول واصفًا جبل النور، والغار، ورحلة الصعود المضنية: (كان الجبل بدءًا في الجبال، جبلين ركب أحدهما فوق الآخر. أما الأسفل فجبلٌ عادي، وأما الأعلى فقطعةٌ واحدةٌ من الصخر الأسود الأملس كأنه بيضةٌ كسرتَ رأسُها، ثم أقمتها عليه، أو كأنه قبةٌ مصنوعة (بالإزميل) ذاهبةٌ في السماء. كنا قد بلغنا القمة بعدما تقطعت أنفاسنا، ونشفت حلوقنا، وبلغت أرواحنا التراقي، ونظرنا فإذا نحن كالمعلق في السحاب، وإذا الدنيا كلها أسفل منا، وإذا نحن لا كمن هو على ظهر جبل. ففي الجبال ما على ظهره من فلواتٍ فساح بل كمن على ظهر عمارة سامقة، وإذا ذروة الجبل لا تزيد مساحتها عن مساحة غرفة من الغرف، أما الغار فكان تحتنا في مكانٍ لا يمكن أن يصل إليه إلا من يتدلى ثم يمر من شقٍ في الجبل حتى يبلغ فُرجة في الصخر، كأنها وَكْرُ نسر، ما أحسب طولها يعدو المترين ولا يبلغ عرضها المتر وكان هذا غار حراء. فقلت في نفسي إننا لم نصل إلى القمة ونحن جماعة، ونحن نصعد على درج منحوتة، حتى أشرفنا على الموت، فكيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصعد وحده. وكيف عرف مكان هذا الغار. إلا أن يكون قد ارتاد هذه الجبال كلها وبلغ أعاليها. وكيف كان يقيم وحده الليالي ذوات العدد. وما حوله إلا هذه الجبال السود. وهذه الوحشة الصامتة المرعبة. ونظرتُ فإذا كل شيء من حولي صامت صمت الرهبة ساكن سكون الجلال لا نأمة ولا حس ولا حركة، ولا شيء يشغل الإنسان عن التفكير في السماء، والكعبة تبدو من بعيد وسط هذا الإطار الصخري فمن كان في الغار كأنه في الدنيا وما هو في الدنيا، يرى الكعبة وحدها فيتصل منها بكل ما هو سماوي طاهر، ويخفي عليه كل شيء غيرها، فينفصل عن كل ما هو أرضي ملوث).

ومن الذي لا يحاول أن يسير في نفس الطريق الذي سار فيه الرسول العظيم؟ هكذا سأل الكاتب أنيس منصور نفسه وهو يستجمع قواه لمغالبة جبل النور وهو يحاول الصعود إلى "حراء"، فيقول[5]: (في هذا الطريق إلى غار حراء سار الرسول أكثر من ألفي يوم، طالعًا نازلًا متفكرًا متأملًا متألمًا، خفيفًا بصفاء روحه، وثقيلًا بهموم قومه وكل الناس. الناس يسمونه "جبل النور" فمنه وفيه ظهر جبريل. ومنه خرج نور يهدي الناس إلى سواء السبيل، إلى كلمة سواء، إلى ما هو أنفع وأرفع. الطريق صعب، وأنا لم أستعد لهذا الصعود، ولا خبرة لي به. وكلما عرضت هذه الفكرة لم يفلح أحد في أن يخفي استخفافه أو دهشته. أما الدهشة فلأنه طويل صاعد صعب، ولأنه من الصعب على من اقترب من الخمسين ويزيد وزنه على الثمانين أن يصعد كل هذه الصخور إلى ارتفاع شاهق. ووجدتُ الناس على حق، ولكن أريد أن أرى. أن ألمس، أن أستذكر، أن أسترجع، أن أكون على مقربة من مكان تغيرت فيه الدنيا. هناك متنفس رجل عظيم، هناك، فوقه. كان الرسول وحده مع الله وحده، كانت السماء تعد جسمه لأن يكون جهاز استقبالٍ فريدًا، يستقبل كلمة الله التي هي السماء والأرض وما بينهما. إن جسم الرسول لابد أن يعد إعدادًا خاصًا، لابد أن يروض على الصفاء أكثر، والنقاء أشد، والإحساس أرهف، لابد أن يتعرض للضوء الباهر ليعاد ترتيب خلاياه وذرات عقله وقلبه. وفي هذا الغار، في هذه الغرفة الصخرية، وعلى هذا الارتفاع في مواجهة نور السماء، أعيد تكوين الرسول ليقدر على تحمل الضوء الإلهي والصوت المليء والكلام المنزل. ووقفتُ عند سفح الجبل من الناحية الأخرى. لا توجد أية معالم لأحد قد صعد، ولكن من المؤكد أن كثيرين أشد إيمانًا وأخف وزنًا وأكثر حيوية قد صعدوا كالغزلان، ولكن ما الذي صعدوه: الصخور متقاربة مثل أنياب من الجرانيت مفتوحة، لا أكاد أتقدم خطوة حتى أقع ما بين نابين، قدمي على ناب ويدي على ناب، وأمامي ووراءي أنياب، والصخور نظيفة يمسحها الهواء أولًا بأول. وقد نصحني كثيرون أن أخطو إلى الأمام ولا أنظر وراءي، فالطريق أمامي طويل صاعد عصبي، لا يكاد ينحني يمنة، حتى ينحني إلى اليسار وبحدة وشدة، ولكن الطريق ليست له معالم. وكنت أنظر إلى القمة التي لا أراها بوضوح، وأمد يدي إلى الصخور، وأرفع ساقي، ولا أعرف ما بعد ذلك، وأقول: كان الرسول إنسانًا آخر، وكان شابًا، وكانت عنده قضية كبرى، وتنتظره نداءات السماء. وطال الطريق. وتوقفتُ ألهث، وأحسست أنني ارتكبت مجموعة من الأخطاء، فلم أرتدِ حذاء يمسك قدمي من الانزلاق، وكنت أرتدي

جلبابًا، وكنت أذوب عرقًا، والجلباب لا يمتص العرق، وإنما يتركني وحدي في مهب الهواء البارد، ولو كنت أرتدي قميصًا وبنطلونًا لالتصق القميص يمتص عرقي ويمتص خوفي من لفحة هواء لصدري وحلقي، ولم آتِ بعصا أتوكأ عليها، ولم أتعلم تسلق الجبال، بل إنني لا أقوم بأية رياضة في مصر، ورياضتي الوحيدة هي هبوط سلالم "أخبار اليوم" بأدوارها التسعة، وأنا الآن أصعد الجبل، وأحاول أن أقرأ الأسماء على الصخور - ولم تكن محاولة القراءة إلا حيلة لكي أتوقف بعض الوقت لآخذ نفسي، ولتبرد حرارة جسمي ـــ ولكني في نفس الوقت لا أستطيع أن أقف طويلًا فأنا أخشى أن تغرب الشمس فلا أعرف كيف أهبط الجبل، وهذه غلطة كبرى أنني صعدت الجبل قبل الغروب بقليل! وتكاتفت الصخور كلها مرة واحدة كأنها لا تريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك، فالصخور كتلة واحدة، كأنها حائط، كأنها سقف، سد منيع وفي لحظة ضعف فكرت أن أكتفي بهذا القدر على أن أعود غدًا، ولكن هذه الفكرة ألقيتُها فوق الصخور بسرعة ورأيتها وقد تبددت إلى ذرات، وكل ذرة منها انقلبت عفريتًا، أو إبليس الذي كان يريد أن يصدني عن شيء رائغ يتمناه كل أحد! وبعد دقائق طويلة، واستراحة بعد أخرى، وجدت مكانًا على شكل حوض ماء، الحوض جاف، كانت إذا نزلت فيه الأمطار بقيت بعض الوقت، ولابد أن يكون الماء باردًا على هذا الارتفاع، ولابد أن الناس كانوا يشربون منه، ولكني لم أجد ماء، وإنما بقايا الماء على الجدران، ووجدتُ سلمًا صغيرًا ينزل إلى عمق الحوض الذي يبلغ المتر، أما طوله فمتران وعرضه متر ونصف متر، وبعد ذلك عاودت الصعود، الأحجار ما تزال حادة باردة، إنها أنياب أو أضراس حيوان مفترس كلفته السماء بأن يحرس صاحب الغار، بعيدًا حتى عن الهواء إذا فكر أن يتسلل إلى هدوئه الكريم).

بعد هذه المعاناة التي صورها لنا "منصور"، وصل إلى الغار، فيقول: (وعند قمة جبل حراء، هذا هو الغار، أو الجانب الخلفي من الغار، له فتحة على شكل شفتين متجمدتين من الحجر الأحمر الجرانيت، كأن الغار أراد أن يقول شيئًا. ولكن فجأة تحولت صرخاته إلى شفاه جامدة فسكت منذ ذلك الوقت، وإنما الذي نطق بالحق هو الرسول الكريم، والغار له فتحة من الناحية الأخرى في مواجهة الكعبة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقف في هذا المكان، ثم ينزل ساقيه ويتساند على هذه الصخرة بالذات، ثم يدخل الغار وقد حنى رأسه قليلًا، ثم يضع طعامه، من لبن

الماعز، وبعض الخبز، ثم يجلس، ثم يسند رأسه إلى داخل الغار ويتوجه إلى السماء، فإذا جاء الليل، دخل الرسول إلى عمق الغار وأسند ظهره وراح يفكر في أمر الناس، ما كان منهم وما سوف يكون، ولكنه لا يدري ما الذي يدفعه إلى هذا المكان، إنه مدفوع إلى هنا، وعلى الغار كانت قبة انهدمت، ولم يبق من هذه القبة البيضاء إلا جداران صغيران طُليا بالجير الأبيض، فيراهما الإنسان من مكة، ومن عرفات، أما مدخل الغار فمسدود بالأحجار أيضًا فقد كان من عادة الناس أن يجيئوا إلى هذا المكان، وهي رحلة شاقة، وبعضهم كان يسقط ميتًا، وبعضهم تحطمه الصخور، وبعض الناس كان يقيم الليالي الطويلة في الغار، والغار ضيق والناس يتزاحمون، وبعضهم يتعبد، ولم يأمر الرسول أحدًا بفعل ذلك، ولكن التعبد في هذا المكان بدعة، ولذلك سدت فتحة الغار حتى لا يذهب أحد إليه).

ونلتقي مع وصف أدبي ماتع حديث نسبيًا كتبه الأديب والشاعر الشيخ إبراهيم الحمدو العمر، عندما حج وأقام بمكة بالقرب من جبل النور وذلك في أخريات عام 2009م تحت عنوان "رحلة إلى غار حراء"، وقد سجل خواطر صعوده لجبل النور فجرًا مخافة الحر ظنًا منه بأنه سيكون من السابقين، فيتفاجأ بالكثرة الكاثرة التي سبقته من الرجال والنساء على اختلاف الأعمار والجنسيات والألوان، الكل يتتبعون خطى الحبيب صلوات الله عليه، ويترصدون الأماكن التي مشى فيها لكي يمشوا عليها ولا تجد فيهم إلا متأملًا متفكرًا معتبرًا فأي عظمة لهذا الدين بل أي سلطان لك يا رسول الله على قلوب أتباعك ومحبيك صلوات الله عليك هكذا حدث نفسه، سأنقل خواطره التي كتبها على غير ترتيب، بأسلوبٍ قشيب، بتصرف غير مخل لضيق المساحة، فيقول: (في نهاية الجبل وأنت تقصد الغار قمة وعرة جدًا وصعبة وطريقها مخيف، والجبل مطل على الكعبة المشرفة، وقد رأيت منه منائر الحرم، والجبل في طبيعته على قسمين كأنك منه في جبلين، فالقسم الأول قاعدة عريضة تعلوها قمة كالقلعة المستقرة على هذه القاعدة المتينة أو قل هي جبل صغير موضوع بإحكام فوق جبل كبير، وإن هذه القمة لتختلف حتى في طبيعة تكوينها اختلافاً لا يخطئه الناظر، فهي تكاد تكون مربعة في شكلها لو نظرت إليها من بعيد، وهي تبدو للرائي كأنها صخرة واحدة كبيرة،

وبينما طريق الجبل الأسفل عريض يتسع لخمسة أو ستة أشخاص وفيه شيء قليل من سلاسة الصعود عليه وله من الطرف الأخر طريق آخر أيضًا، تجد طريق القمة ضيق جدًا يضيق في معظمه عن شخصين، وعرٌ جدًا يكاد المتسلق عليه يفقد توازنه وكثيرون هم الذين يحبون فيه حبوًا خصوصًا من النساء وكبار السن، أو من يعتمد على عصا، وليس لهذه القمة إلا هذا الطريق الضيق فيدور معه الصاعد حيثما دار، والجميل في هذا الطريق الوعر أن سيل الصاعدين والنازلين الذي لا ينقطع لا يؤذي بعضهم بعضًا ولقد قلتُ في نفسي إن هؤلاء الذين يصعدون جبل النور على كثرتهم وضيق المكان بهم مع هذا اللطف والاحترام هم غير أولئك الذين تراهم يزاحمون ويتدافعون عند البيت وفي الطواف وعلى الحجر، وكأن روح الجبل برسوخه وسر الوحي سرى في الصاعدين إلي هذا الجبل الوقور، وأنت في طول رحلتك الشاقة هذه على سماع مستمر لذكر النبي صلى الله عليه وسلم وبلغات مختلفة من تركي وباتان وعربي وغيرها، وقد كانت إقامتي قريبة من جبل النور وهذا من فضل الله ومنته فكنت أتأمله كثيرًا ومرات عديدة في اليوم فيخيل لي أن لقمّته هذه التي أتكلم عنها من الإشراق ما لا أرى للجزء الآخر منه وهو قاعدته، وكأن هذه القمة صيغت صياغة أخرى في تكوينها فهي قمة منيعة كأنها وُقْنَةُ نسر(الوقنة: محضن الطائر في الجبل) أو مرصد قائد أو نجعة المتأمل الذي يرمق الأفق البعيد بنافذ بصره أو هي محراب المتعبد المتبتل الخاشع الذي هجر الدنيا وأهلها وهُرِعَ إلى ربه يناجيه ويأنس به ويطلق روحه الوثاب ليعانق إشراقات النور الباهر، أو، أو هي قمة جبل النور التي اختارها الحبيب المصطفي صلوات الله وسلامه عليه مكانًا يعبد فيه ربه بعيدًا عن أصنام قريش وخرافاتها وضوضائها، وهي المكان الذي كان ملتقى أول إشعاعات الوحي الإلهي على قلب الحبيب المصطفي صلوات الله عليه لتكون هذه الرسالة قمة بين الرسالات كقمة هذا الجبل، وعرة على من يريدها بسوء مثل وعورته، عصية على من يكيد لها. يتسلق إليها المسلمون على اختلاف أجناسهم بدون انقطاع بسيل هدار يملأ

الدنيا بهدوء وحكمة وروية كهدوئهم في صعود هذا الجبل الأبيّ، ولقد تأملت في هذا الجبل وفي الجبال التي من حوله مرات ومرات فما وجدته إلا كما وصفت لك من منعته وإحكامه وما وجدت بين الجبال الكثيرة من حوله ما يشبهه وأظن أن من يقرأ وصفي له سوف يهديه نظره إليه بمجرد أن يراه دون أن يسأل أحدًا عنه، وبالطبع إذا ما كان قريبًا منه وقارن بروية بين هذه الجبال الكثيرة وأسلوب تكوينها، ولو وُصِفَ لي كما أصفه لك الآن لما بقيتُ أيامًا بجانبه وأنا لا أعرفه، واختيار هذا المكان من النبي صلى الله عليه وسلم ليس اختيارًا عاديًا فإنك لن تجد في جبال مكة كلها ما يساويه من حيث إنه يفتح باب التأمل، يطل على بيت الله ويتصل منه بشعاع لا ينقطع وينأى عن خرافات أهل مكة، وهمج قاطنيها، ويغتسل كل لحظة بالغمام الطهور، وتصافحه مواكب النسيم وتقبّله قطرات الندى، ولولا أن النبي صلى الله عليه وسلم فوق العبقرية وأجلُّ لقلت إنه اختيار عبقري، ففيه كل ما يطلبه ذو اللب من صفاء ذهن وفتح لآفاق الفكر، وانطلاقه في فُسَح تلك الأودية عبر تلك الصخور على قمم تلك الجبال خلال ظلمات تلك الكهوف خلف مرامي تلك الخيالات في طهر ذلك الغمام الذي يغمرك وأنت تصعد ذلك الجبل، معانقًا أشعة الشمس أول ما يبدو حاجبها الفتان من خلف الغار، وآه من ذلك الشعاع ما أجمله وما أروعه، شعاعها على جبل النور له ضياء من النور آخر، وبريقٌ من الجمال مختلفٌ جدًا. تُرى كيف يرى عشاق الحبيب المصطفي صلوات الله عليه شعاع الشمس وضوء القمر على هذا الجبل الحبيب، بل قل ماذا يُكشف لهم من الأسرار في تلك الصخور العاشقة التي احتضنت بين جنباتها أشرف نسمة من بني الإنسان، ورأت أمين الوحي يسلم الحبيب المصطفي صلوات الله عليه بريد خاتمة الرسالات السماوية من رب العزة جل جلاله في هذا المقام ثم يلقاه بين الفينة والأخرى يبلغه أوامر مليكه العزيز، ويا ترى ماذا حصل لتلك الحجارة العاشقة حينما خفق عليها بجناحيه جبريل عليه السلام أول مرة وهي التي طال عهدها بمثل ذلك النور الملائكي المضمَّخ بعبق العرش والكرسي وظلال

الجنة وأنفاس الأملاك العلوية؟ في أعلى هذا الجبل العاشق غار حراء، أول بقعة أشرق بين جنباتها نور الله وأول من احتضن سر النبوة وأول من سمع مناجاة جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول له (اقرأ) فيقول الحبيب صلوات الله عليه: "ما أنا بقارئ" والغار مكان لا يليق به إلا التعبد والتفكر، صغير يتسع لأشخاص معدودين فقط، في قُنّة الجبل (القنة بالضم أعلى الجبل)، يترك الجبال من خلفه ويمنحها ظهره، ويواجه الوادي الفسيح الذي يتصل بمكة فيظهر منه بيت الله، والقاعد فيه يطل على الكعبة من علٍ، والكعبة بيت الله تواجهه بهيبتها وأسرارها وأنوارها، وملائكتها المتنزلة، يزينها يمين الله الحجر الأسود، ياقوتة الجنة، ودرة الأرض، ومغناطيس المحبين العاشقين الذي يجذبهم بسلاسل النور وسر الحب، فلا يفلت منهم أحدًا، غارٌ خُلِق للتأمل، وخص بـ (اقرأ باسم ربك الذي خلق)، وأبى أن يؤوي إليه من النساك إلا أشرف الخلق صلوات الله عليه، فكيف كان صلوات الله عليه يصعد هذا المرتقى لوحده وهو البعيد عن أم القرى للسائر على رجليه؟ وكيف كانت إقامته في ذلك الغار؟ وكيف كان اتصاله بخالقه جل جلاله؟ وكيف كانت تلك السيدة التي جاوزت الخمسين من عمرها تتجشم عوائق الصخور الحادة وعنت الصحراء، وأهوال الفضاء الرحيب لتسير حاملة الطعام لحبيبها صلوات الله عليه؟ وأي إخلاص هذا وهي السيدة الشريفة ذات العز والجاه والمال والشرف الرفيع والمكانة في قومها وعشيرتها، فأية زوجة كانت؟ وأية رابطة محكمة أوثقت عرى ذينك القلبين الشريفين حتى كانت تتحمل معه مثل هذه الحياة التي لم يألفها أهل مكة، فكانت تساعده وتقف معه وتسانده وتريش فؤاده بعطفها وحنانها؟ وأي زوج ذلك الذي امتلك لب تلك الشخصية الكبيرة من أشرف نساء قريش والعرب قاطبة، وأسَرَها؟، هنا يحجم القلم وتُعجِم التخرّصات وتكذب الظنون، وهنا يكفينا قوله صلوات الله عليه: "مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ").

وكان صالح بن حسين المحضار[6] من الذين صعدوا الجبل وسجل رحلة الصعود بتفاصيلها، فيقول: (إذا ما نظرت إلى الأسفل، فقد قطعت شوطًا لا بأس به، بل هو طويل، وإذا ما نظرت أمامك ابتعت بطاقة بريدية تقدم لك الغار على طبقٍ من ورق، فإذا ما نظرت إلى الأعلى شاهدت خيوطًا رفيعة من البشر، الذين يتشاركون في الرحلة معك إلى غار حراء، أحدهم قال وهو يجيب على سؤالٍ لي: الطريق طويلة، لكن رفيقة دربه قالت: بل الطريق مطوية، وصعدنا لا نلوي على شيء، فإذا ما اشتدت أنفاسنا علينا، توقفنا، وتوقف معنا آخرون، الصاعد كان أكثر لهفةً على معرفة شيء، أي شيء، فقد كان ينظر إلى نوق، والنازل كان يتقي بيده حرارة السماء. ثم ينظر إلى مكة، كان النظر إلى الوراء باعثًا على الإحساس بالرهبة، واصلنا السير حثيثين إلى قمة الجبل، الحقيقة انه لم يعد سيرًا بل كان تسلقا للروح يشبه تسلق قمةٍ ايفرست دون اللجوء إلى عصي أو حبال، ثم ما لبثت أن انتصف الجبل ــ أو هكذا خيّل إلينا ــ فيما أخذت القمة شكلًا يصعب الولوج منه بيد أن النساء كنَّ أكثر قدرة على دفع أنفسهن من الرجال الذين كانوا يستغلون فرصة التوقف ليسمع الصاعد من النازل كلامًا يدفع به إلى أعلى، وهناك مسافرون يستريحون كلما جثا بهم التعب ليجدون عريشًا من ظل لا يملكه أحد، والمشهد كان مكة البيضاء، تخيلتها لوهلة: أكوامًا من اللؤلؤ، هل أتجاوز حين أطلق عليه (بانوراما)، ولولا أن سبقني أحدهم إلى قول مثله لقلت: (إن الناس قد انقسموا إلى قسمين) أولئك الذين شاهدوا من هنا مكة وأولئك الذين لم يشاهدوها، تسمع صلواتٍ على النبي فيما يتردد كثيرًا اسمه (محمد) فتصلي على النبي، ولما تسمع اسمًا كجبريل عليه السلام وهو المأمور بعدم إخافته صلى الله عليه وسلم وآله وسلم فيقول له: (اقرأ)، فيقول: "ما أنا بقارئ"، فيقول له: (اقرأ)، فيقول: "ما أنا بقارئ"، فيقول له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾).

يسرد الدكتور التركي "مقداد يالجن"، الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية، دوافعه إلى زيارة الأماكن المقدسة بالمملكة العربية السعودية، حيث يقول: (كانت رؤية هذه البلاد أمنية وأحلامًا منذ كنت صغيرًا، دفعتني إلى رؤية هذه البلاد قراءة الوالد سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، كيف كان يصعد إلى جبل النور وإلى غار حراء ليتعبّد أيامًا وليالٍ وحده، وكيف اختفي في الغار في جبل ثور حين أراد الكفار

قتله وكيف ذهب إلى مكة والمدينة، وكنت أقول لا يكفي الذهاب إلى الحج أو العمرة بل ينبغي أن أبقى في ربوع تلك البلاد سنة أو سنتين لأزور تلك الأماكن وأبدأ أسير في الطرق التي سار فيها الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن أصلي حيث صلى في غار حراء، وأن أنام حيث نام في غار ثور وأن أرى مكان موقعة بدر وأحد، وأن اعتمر وأن أحج، والحمد لله تحققت تلك الأمنيات).

يصف الدكتور يالجن أهم انطباعاته وذكرياته بعد أن أتى مكة المكرمة وزار الغارين "حراء وثور"، فيقول: (اقتنعت تماماً بأن المشاهدة غير السماع، فليس الذي يشاهد كالذي يسمع، لاحظت ذلك عندما صعدت إلى جبل النور لرؤية غار حراء، وإلى جبل ثور لأرى غار ثور، فكنت أظن أن الجبلين قريبان إلى مكة، وأن ارتفاعهما قليل، ولكن لما استغرق الصعود والنزول إلى كل جبل ما يقرب من ثلاث ساعات، مع خطورة الصعود والنزول لوجد الصخور العالية ووعورة الطرق والشعور بالتعب الشديد، وبخاصة عند الصعود، عندئذ أدركت حقيقة هذين الجبلين وموقعهما من مكة، وعجبت كيف كان يصعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى غار حراء ويقيم فيه أيامًا وحده، ويتعبدّ في الليالي المظلمة، وقد يظن الإنسان أن هذا الغار كبير يرتاح فيه الداخل إليه، ولكن عندما يراه ويدخله لا يستطيع أن يقوم فيه بدون انحناء وطوله وعرضه يشبه القبر أو بقدر القبر، وإذا تعثّر عند الدخول إليه أو الخروج منه، فإنه يقع من أعلى ارتفاعه، ويبلغ حوالي مائة متر فوق الصخور، حيث يتمزّق عليها جسمه، وإذا دخل إليه نهارًا فإنه لا يستطيع الخروج منه ليلًا. وكذلك غار ثور، فكم تعبنا عند الصعود إليه ونحن في وسط النهار، فكيف صعد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ليلاً؟ وكم كان الصعود والنزول والإقامة فيه صعبة، إلى جانب خطر الموت لأن الأعداء يتعقّبونه، وكم يتصور الإنسان عداوة قريش حيث صعدوا فوق الجبل العالي بحثًا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ظنًا بوجوده هناك، لقد قلت عندما صعدتُ وقد استغرق مني الصعود ساعتين، وعانيتُ من الإرهاق الشديد، لو أنني أعلم أن عدوّي هناك لما تحمّلت مشقات هذا الصعود والنزول في أشد أيام الحرارة وفي وقت الظهر بالذات).

يروي الكاتب السوداني هاشم الفاتح [7] ابن مدينة "طابت الشيخ عبد المحمود" تلك المدينة الحالمة التي تظللها الروحانية في السودان، كيف غرس معلمه في وجدانه عشق حراء، فيقول: (تدور ساقية الحياة وتطحن بين عجلاتها أيام عمرنا

تاركة رماداً باردًا في أقصى الأعماق المهمومة بالتهمش والسـراب وسط معـابر جوفاء رتيبة كقصة النملة التي دخلت ثم أخذت حبة وخرجت، سـرد علينا المعلم ونحن في المرحلة الأولية كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يفد إلى غـار حراء ـــالمطل على مكة المكرمةـــ فيتحنث فيه حتى نزل عليه الوحي، أحاط الأستاذ القصة بوهج مقدس وانسابت دفـقاتـها الروحية في قنوات مشاعرنا ليصبح الغار حلمًا يداعب الصغار كما يحلم السجين بالحرية. يكبر الصغار، فيكبر الحلم معهم اضطرادًا، بل يسبق أعمارهم فتزداد الرغبة اضطرامًا في الأعماق، خرجت مع صحب كرام لأداء فريضة الحج وفي النفس حُمَّى تلهب الدماء لزيارة الغار دفـعتني إلى تمشيط الـمنطقة حتى آخر نقطة زيت في مصباح نشاطي دون طائل، ولم تكن الشعلة قد انطـفأت بعد، حتى منّ الله علينا بحجة أخرى ونصبنا خيمتنا بالقرب من جبل "النور" من حيث لا ندري. راقني هدوء المكان وعزلته، فالطبيعة وحدها لا تنفد ثروتـها من الجمال والإيـحاء، نجد فيها فسحة من الوقت وقدرًا من المتعة ولا نجد لهما أثر في حياتنا العادية، اجتاحتني كل المشاعر السابقة البريئة والتي أخشى عليها من التشوه والضعف إذا حاولت وصفها وتحليلها، كانت كل نظرة تعيد إلى ذهني صفحة من سنين عمري الغارق في آبار الماضي والكتمان، استطعت أن أقطع أكبر فترة زمنية وانفعالية في رحلة العودة إلى الجذور، كان امتناني عظيمًا أن هيأ الله لي موقعًا على مرمى حجر من ذلك الحلم الذي غذيته منذ الصغر، غمرتني لحظات العبور بشعور فريد أكبر من الفرح، كان سروري كالسرور البريء الذي يشعر به الفلاح عندما يتناول طعامًا من غرس يده، إنه لا يستمتع بطعامه فحسب، بل يعود بذكرياته إلى الأيام البهيجة التي غرسه فيها حلمًا وعملاً وأملاً ثم رواه ماءً وحبًا حتى تجسد أمامه على المائدة. لقد زرعت بذرة الأمل في وجداني وأنا طفل صغير، تفاعلتُ معها، غاصت في أعماق نفسي وسط أنواء الحياة، مضغت كل هذا في صبر وإيمان لأعيش على انتفاضة وجداني في الرحاب الطاهرة بعد أن تذوقت الثمرة طعمًا وواقعًا، احتشد الشوق في العيون وانحبس الإخوة للكبر والإرهاق ولفح الهاجرة لينطلق لسانـهم بالدعوات الصالحات. حزمت أمري والشمس قد استقرت في كبد السماء، سلكت طريقًا طالته الصنعة تسهيلاً على المارة ـــ دون طمس للطبيعة ـــ لتنام على ظهر الجبل مسالك متعرجة تلتقي عتد غار "حراء" وأنا أتخيل الصخور المترامية أمامي كحبال الأمل أتعلق بها لتدفعني أكثر وأكثر بفؤاد ظمآن ويد تحمل قارورة ماء،

أمامي وخلفي نفر تتباعد خطاهم ومواطنهم بشكل يسمح بالتمييز والحصر، ولولا غياب المعرفة وصعوبة الاهتداء وخصوصية مثل هذه الزيارة، لكان مشهد الناس رهيبًا كما في جبل "عرفات"، حيث أنك لو ألقيت برتقالة من فوقهم لما وجدت مستقرًا لها على الأرض، الكل يسير وقد لفّ الصمت خاصرة الجبل إلا من أصوات الباعة والمصورين ـــ ليس افتقارًا إلى موهبة الكلام ـــ وإنما لجلال المكان وعظمته ليكون الحديث بالإشارة، وراعني أكثر، مشهد النسوة، وقد خَطَّ المشيب سطورًا طويلة على شعرهن وهن يبكين وليس أشهى لديهن من أن يمتد بـهن الأجل حتى ينعمن بدخول الغار، قطعتُ نصف المسافة صعودًا واستوقفني مشهد رجل كسيح الشباب وقد طغت عليه الملامح الإفريقية الصارخة، هممت بمساعدته بيد أنه أخرج حديثًا من جوفه بلغة عربية فصحى: "إن كل خطوة تتألم بها قدماي على هذه الصخور الجبلية تسكب قطرة من البلسم على نفسي الجريحة تماماً يا بني كآلام الخاطئ النادم الذي يلتمس راحة الضمير وقد تعلق بأستار الكعبة"، تجاوزتُه نزولًا على رغبته لأرى أمامي صورًا أخرى متفرقة، أصاب كاهل البعض انحناء، وعجز البعض عن مواصلة السير بعد أن اضطرب ظهرًا لبطن، ومن الصعب أن أسرد بترتيب منطقي كل التأملات، فقد عطلت الصورة حواسي لفرط روعتها، ولم يبق لي سلطان على نفسي، ورغم تمتعي الآن بسكينة هادئة ألا أن الأحداث باتت محفورة على جدران الضلوع، فجأة وجدت نفسي في مؤخرة حائط بشري أوله عند مدخل الغار الذي تراءى اسمه مكتوبًا على الصخر بكل اللغات، والحائط يتقلص أمامي ليمتد من الخلف بقادم جديد. وبينما أنا أدنو من الدخول تفجرت ينابيع مخزوني العقائدي وغرقت حواسي في غمرة من أرق الأحاسيس أثقلت قلبي وامتلأت عيناي بالدموع وسقطت واحدة على معصمي لأجد أنني أمضيت ساعة في الصعود، جاء دوري فانحنيت عند مدخل الغار الصخري واستقمت داخله لأصلي ركعتين على أرضيته الرملية التي تسع شخصًا واحدًا، لقد كانت الوحدة في هذا الفردوس الأرضي حلمًا يداعبني منذ الصغر، وتألبتْ عليّ كل المشاعر القديمة والجديدة، أحسست بأنني سيد هذه الجنة الفيحاء، إنني وحيد هنا تتوالد في وجداني هتافات صامتة، تحلق بي في أجواء من الخيال والواقع، تتفجر حولي دونما قسوة، ثم تومض أمامي لحظة إشراق تغمرني حتى العظم لتنبلج الرؤى أمام عيني فجراً مدهش الضياء، يا لها من متعة حلوة، رغبت بقاء أطول، إلا أن آخرين في انتظار دورهم، خرجت من الغار وفي وجداني

إحساس الفائز الطريد، هذا التزاوج كبّل خطايَ في رحلة العودة واحتفظت بصورة فوتوغرافية متكئًا خارج الغار لمنع التصوير في الداخل ولم ألحظ وجودًا للنساء إلا أن كثيرًا منهن يعجزن في منتصف الطريق.

واصلت المسير فدخلت الخيمة قبل العصر بقليل واستقبلني الإخوة بمشاعر فياضة وعيونهم قناديل حب مضيئة، كان ذلك عام 1980م وأذكر منهم: تاج الأصفياء الشيخ هاشم، مبارك أحمد إمام، الطاهر عاشور، ومن لبنان: محمد سليم، وإبراهيم المصري الذي قال حديثًا يدفئ القلب ويعطّر المكان: "ليس في مقدور الكثيرين يا أبنائي التمتع بمثل هذه الخلوة، إلا أن الإنسان في مكنته أن يخلع ثوب الحياة ــ ولو إلى حين ــ لينفك من هذا الحصار الذي ضربه حول نفسه، بخلوة مع الذات هي غار في الوجدان لتسقط من حياتنا فواتير اللهث والتهافت والسباق الدنيــوي").

بدأ عشق الكاتبة الأردنية أروى طارق التل لغار حراء منذ الصغر، وزارته أيضًا في صغرها، ولعلها الحالة الوحيدة التي وقعتُ عليها لطفلة ارتقت صعاب جبل النور بقلبٍ مليءٍ بالنور وصولًا إلى النور في الغار الحبيب في محاولةٍ غير ناجحة، أججت فيها نار الشوق إليه التي لم تخمد حتى وافته كبيرة، تصف تجربتها، فتقول: (بدأت منذ نعومة أظافري في الصف الرابع الابتدائي، حيث كنا نجلس خلف قضبان المدرسة تروي المعلمة القصة، ونُردد على مسامعها، اسم الغار واسم الجبل واسم الرسول، ونحن نتلفت لبعضنا ونبتسم فالقصة ملفتة، والقصة شيقة، والقصة مغامرة، والقصة مخاطرة، والقصة رعشة متزمل متدثر بخيط أتاه من نور السماء، والجبل في عقل الطفل الصغير مجرة وتسلقه كتسلق كوكب، وجبريل وما سد من أفق ومحمد وما حدقت عيناه في شمس، نوران يلتقيان على جبل من نور كلها لو كانت في قلب امرئٍ نِعس القلب كافر الذنب لكانت صحوة روح له لبُعد ثلاثي أو خماسي أو سداسي لدنيا اعتاد أن يكون بُعدها أُحادي، فكيف اذا اجتمعت في قلب طفل صغير بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، وكانت به صبابة عاشق متيم متبتل تبتيلا. أذكر تماما ما كنت ألبس، وأذكر تمامًا كيف كنا نتكئ على الصخور، أذكر تماما كيف ضعنا في منتصف الجبل، بل وأذكر تمامًا كيف كانت أقدامنا الصغيرة أنا وأخوتي كثيرًا ما تنزلق على الصخور الملساء، وأذكر تمامًا كيف كان

أبي يقول لنا ونحن في منتصف الجبل هنالك ممر لو وصلنا إليه لعرفنا طريقنا، وأذكر تمامًا كيف اعتمت علينا الدنيا ونحن لم نهتد إلى طريقنا بعد، وأمي تنتظرنا في السيارة تحدثنا بعد ذلك عن قلقها علينا، إذ ما عاد للصغار مع أبيهم أثر ونحن نحاول أن نتتبع أثر الرسول، وأذكر تمامًا ولعله أكثر ما أذكره حزني الدفين عندما قرر أبي أنه يجب أن نعود أدراجنا، فلم يعد يمكننا الاهتداء للطريق في العتمة، حزن استمر معي بعدها ثلاثين عامًا أشتهي لغار حراء وصولاً.أما اليوم وقد بلغتُ ما بلغ الرسول من عمر البعثة ولكن بقلب ضعيف هزيل، لا كقلب الكريم النابض عليه السلام، وبلغت قمة الجبل وأدركت مغزى تلك الحقبة وتلك العزلة، وكيف كانت ضرورة للتهيئة لا يشوب أهميتها شائبة، فقد كان الجبل قاسيًا صلدا صلبًا، ولا يرحم فيه كبرياء شديدة، يأبى أن تتناوله كشربة ماء، فيه صعود لا كالصعود، وشموخ بين جبال الأرض لا كالشموخ، الواقف عليه لا كأي واقف، والمتأمل وجه الحياة من عليائه لا كأي متأمل، وإطلالته ليست ككل إطلالة، وتلك حقائق روحية، من يعلوه تعلو في نفسه بلا أدنى حيلة! جبل التقت فيه السماء بالأرض، وابتعثتْ سفيرها منها إليها، وأعلنت هديها عليه، في بعثة أخيرة، وفي جلال مهيب، لا ينقطع شعورك به رغم انقطاع أنفاسك وأنت صاعده، كنتُ استريح بين الدقائق القليلة في كل بضعة دقائق، ولم يعد قلبي يخفق من شدة التعب رغم وجود الدرج لبعض تسهيل، بل غدا دماغي أكثر خفقانًا منه في محاولة لتناوب التعب معه، أو في محاولة منه ليبقيه على تماسكه.أما الشعور بالهيبة، أما الشعور ببركة المكان فشأن آخر، بمجرد أن دخلتُ الغار ـــ بعد استراحة قليلة على ممر من الشقوق الصخرية استعدت فيها أنفاسي المنهكةـــ انخرطت بالبكاء، كل جزء في الجسد يرتجف في حنين طوته الروح في الأعماق عمرًا، لا قِبل للكلمات به، ولا للنعوت بوصفه).

وصف اللواء إبراهيم رفعت باشا صعوده إلى غار حراء قائلاً: (وقد صعدنا هذا الجبل في 35 دقيقة، وأنه يكاد يكون عموديًا، فلذا كان صعب المرتقى، واضطررنا إلى الاستراحة مرتين أثناء الصعود[8].

يتذكر الأستاذ عبد الرحمن بن ندى العتيبي أيامًا قضاها في مكة المكرمة حين كان يؤدي العمرة، وكيف حدثته نفسه بالصعود إلى غار حراء حبًا للاستطلاع وليس

تعبدًا، وبين أوراقه يعثر على ورقة دون فيها انطباعاته الموجزة آنذاك، فيقول: (قمت بالصعود إلى غار حراء، وبدأت الصعود في الساعة الثامنة وخمسة عشرة دقيقة صباحًا، وتم الوصول إلى قمة الجبل الساعة التاسعة وأربعين دقيقة صباحًا، وكان الأمر صعبًا وشاقًا لأن الجبل عالي الارتفاع وفيه منحنيات ومنعطفات خطيرة جدًا، خاصةً لمن لم يعتد تسلق الجبال مثلنا لأنه لا يوجد في الأماكن التي نسكنها، وفي الجبل استراحات، قمت بالاستراحة فيها ثم واصلت إلى أن وصلت إلى أعلى الجبل فجلست في مكان مظلل وعنده أخوة من الهند من كشمير يبيعون الماء والعصير، بعد هذا المكان وبالقرب منه يوجد الغار، وعلى حافة من الجبل وهو غار صغير تدخله ثم يكون مسد صخرة لا يسمح إلا بدخول شخص غير سمين ومساحته صغيرة، وفيه فتحات ترى منها جهة الكعبة).

سجل الشاعر العروضي غالب الغول تجربته في صعود جبل النور شعرًا، وذلك في قصيدته "غار حراء"، والتي يقول فيها:

وغارُ حِراءٍ قد قصدناهُ عبرةً ... بنظرةِ عينٍ واشتياقٍ لَما زرنا
فأيقنتُ، دون الشَّك، أنَّ نبينا ... قويُّ صبورٌ عاركَ الكدَّ والوهنا
جبالٌ بناها اللهُ صخرًا مجَلمدًا ... فكيف رسولُ اللهِ قد طوَّع المبنى؟
صعدناهُ كدًّا بل وذقنا مرارةً ... وكان رسول اللهِ يصعده هوْنًا
وقد كان ربي قد حباهُ عزيمةً ... سريرتها عمقٌ وفي عمقها معنى
تحصَّن بين الصخرتين بمجلسٍ ... ولكن حفظ الله قد أمَّن الحصنَ
وما البدرُ إلا أنت يا سيد الورى ... لتنذرَ قومًا ظلَّ فعلهم شَيْنا
نرى جبلًا طالَ السحابَ بقمةٍ ... تناطحتِ الأحجارُ تحسبُها قرْنا
ولَّما نزلتُ الغارَ صِرتُ محاصرًا من ... الناسِ ضغطًا، يا ويلتىَ، كِدتُ أن أفنى
وشقَّ على نفسي لأسلكَ دربهُ ... على البطن زحفًا بين صخر وما طقنا
وأقسمُ أن الناس قد داخ بعضهم ... تراهم ذبول الغصن من يسعف الغصنا
جزعتُ وقلبي اليوم من هول ما أرى ... فهامت دموعي تحرق العينَ والجفنا
رأيتُ عبادَ اللهِ قد ساروا بعزمهم ... وما همهم وَعرٌ وعن صبرهم قلنا
ترانا كسرب النمل من قاع بلدةٍ ... إلى قمَّةٍ تعلو فتمنحكَ الأمنا
وغارُ حِراءٍ كانَ أول نبضةٍ ... تجلَّى بنور الحقِ شوقًا له عدنا

لقد جمعت هذه الشهادات ممن صعدوا وكتبوا تجربتهم في الصعود والوصول، وهناك المئات الذين صعدوا واكتفوا بالمشافهة في رواية تجربتهم ولهذا فلم نسعد بضمها، وعلى سبيل الرصد أذكر أنه قد صعد عددًا من الرحالة والمؤرخين المسلمين جبل النور وصولًا إلى الغار، ومنهم الرحالة ابن جبير الأندلسي الذي يقول: (وفي يوم الأحد بعده وهو الموفي عشرين لشوال صعدنا إلى الجبل المقدس حراء وتبركنا بمشاهدة الغار في أعلاه الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه وهو أول موضع نزل فيه الوحي عليه صلى الله عليه وسلم ورزقنا شفاعته وحشرنا في زمرته وأماتنا على سنته ومحبته بمنه وكرمه لا رب سواه)[9].

وبعد أن أنهى الرحالة عبدالله بن محمد العياشي فريضة الحج، قصد غار حراء فوصف طلوعه قائلاً: (وقد خرجت لزيارته مع جماعة من أصحابنا في إحدى ليالي ذي القعدة سحرًا، وصلينا الصبح بعدما تجاوزنا بيوت مكة كلها ووصلنا أعلاه عند طلوع الشمس، وهو مع صعوبته قد سويت طريقه).

يقول الدكتور محمد بشناق [10]: (الطريق الذي سلكناه إلى قمة جبل النور طويل وشاق ووعر. وتتساءل بعجب: كيف استطاع الحبيب المصطفي صلى الله عليه وسلم تسلق هذا الجبل مرارًا وتكرارًا في ظلمة الليل البهيم ووحشة هذا المكان البعيد. أخذني التعب والإرهاق وحاولت جاهداً اللحاق بالمعلم الذي كان يقفز بكل حماس وحيوية مثل الأطفال من صخرة الى أخرى. وفجأة بدأت معالم الغار تظهر على بُعد أمتار أسفل منّا، هذا هو غار حراء! لم أستطع أن أكتم سعادتي وشوقي وحماسي لدخول هذا المكان التاريخي، والذي شهد أول اتصال بين السماء وإمام المرسلين. سرت قشعريرة في أرجاء جسدي وأنا أجلس مكان سيد البشر وأتخيل تلك اللحظات التاريخية. يا الله! بادرني المعلم بالسؤال: هل تعلم ماذا كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المكان؟ قلت له: لا أدري. كان يجلس لوحده. فاقترب منّي وهمس: كان يمارس الصمت والخلوة والتأمل. لقد اختار الله تعالى هذا الرجل ليكون خاتم المرسلين وإمام البشرية. لا شك أن مهمةً عظيمةً مثل هذه تحتاج إلى معاييرٍ عاليةٍ وخصالٍ فريدة، وقد تم إعداده بهذه الطريقة. مرارًا وتكرارًا حتى سن الأربعين. تخيّل معي كيف كان يقضي تلك الليال الطوال وحيداً ويمارس الخلوة والصمت والتأمل. الصمت عادة يومية لدى الحكماء. تحتاج أن تقضي

ساعة من يومك في حالة صمت وانقطاع عن التواصل مع الآخرين. سوف تلاحظ أن الحديث مع النفس يعلو ويتّضح بالتدريج. حتى تنعم بالسلام الداخلي، أنت بحاجة إلى تحقيق الانسجام والتناغم والتفاهم مع النفس. وقد تحدث القرآن الكريم عن الصمت في سورة مريم: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ .أمّا الخلوة، فهي الابتعاد عن الناس لبضع ساعات مرةً أسبوعياً. وقد كان من هدي نبينا صلى الله عليه وسلم والنبيين من قبله الاعتكاف كما تعلم. كما عرف عن المفكرين والمبدعين والعظماء ميلهم للخلوة والتفكر. إن الخلوة تفتح الطريق للوعي والإبداع والخيال الخلّاق. وأمّا التأمل، فهو حالة من الاسترخاء الجسماني والذهني، تمارس فيها التنفس البطيء والتركيز. حاول أن تغمض عينيك ولا تفكر بشيء. تمنحك هذه العادة النقاء في الفكر والنفس، وتسمح لسيل من الأفكار الإبداعية والأسئلة الملهمة لمخاطبة عقلك الباطن. المسألة تشبه إلى حد بعيد كأس الماء الملئ بالرواسب. ما أن تضع كأس الماء فوق الطاولة حتى تستقر الرواسب في الأسفل وتلاحظ النقاء والصفاء في الماء. وهذا ما يحدث في العقل والوجدان في حالة التأمل. تحتاج إلى 20 دقيقة على الأقل في مكان هادئ.نظر اليّ المعلّم وقال: لم لا تجرب الخلوة في غار حراء؟ عشرون دقيقة من الخلوة والصمت والتأمل في مهبط الوحي، شيءٌ فوق الخيال! لأول مرة في حياتي تغمرني هذه الحالة من السكينة والطمأنينة. شعور عارم بالامتنان والرضا والنقاء وحالة عجيبة من التوازن والسلام الداخلي).

كما صعد إلى غار حراء في يومٍ واحد سبعة وثمانين شخصًا برفقة الرئيس الباكستاني ضياء الحق عام 1391هـ، من مرافقين له ومرافقين من الخارجية والأمن بالمملكة العربية السعودية، حيث كان يؤدي الرئيس الباكستاني العمرة [11]. كما يصعد الجبل كل يوم حوالي العشرين ألف زائر في موسم الحج.

صعد جبل النور وصولًا إلى غار حراء جماعات في مهمات علمية ومنهم الدكتور عدنان بن عبد البديع اليافي الذي تيسر له أن يتسلق بعض من جبال مكة المكرمة مثل جبل النور وغيره، وأن يشاهد غار حراء في واحدة من عدة رحلات

علمية قام بها في معية رفقة من العلماء الأفاضل، يدون اليافي انطباعاته عن تلك الرحلات فيقول: (رحلات لا تزال تنثر عطرها في الذاكرة ومما سرني في رحلتي إلى حراء أنني وجدت معظم ما ذكر في المصادر التاريخية عنه يتفق إلى حد كبير مع ما شاهدته في رحلاتي لهذا الجبل التاريخي).

إن أكثر ما يقر في قلب وعقل كل من يطالع رحلة الصعود والانقطاع في غار حراء ويشهد بكونها تشكل معجزة بشرية للنبي صلى الله عليه وسلم هو ما توقف عنده أكثر العلماء والمفكرين بالدهشة والحيرة والاستغراب:

ـــ كيف لرجلٍ ثري أن يترك المدينة المتوهجة بنورها وناسها ثم يختار ـ بمحض إرادته ـ مكانًا ليس فيه ما يغري أي إنسان في أي عصـــر بالذهاب إليه، ويبعد عن داره حوالي الأربعة كيلو مترات ليصعد طريقًا شاقًا يحتاج تقريبًا لثلاث ساعات، ثم يجلس وحده في غار قابع في قمة جبـــل موحش ومظلم؟ والاستغراب الذي يثير التساؤل: ما وجـه الاضطرار لهذا الصنيع مع كونه لا يمثل للرسول صلى الله عليه وسلم آنذاك أية شعيرة دينية حتى يمتثل لها طائعًا!

- لماذا الحرص على تكرار الصعود والانقطاع والدوام عليه، أي أنه لم يكن فكرة طارئة، قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم ليشبع في نفسه رغبةٍ ما، ثم تولى عنها.

أذكر حين كنت أشرح تلك المعجزة في مدينة سياحية تغص برجال الأمن، وتحوطها الجبال أن أشرت إلى تلك الجبال غير القريبة والمظلمة، فقلت لمن أحاضر فيهم:

ـــــ هل يستطيع أن يتحرك أحدكم بدون سيارة لأي جبل يختاره، فيقصده صاعدًا ثم يبقى فيه وحيدًا منقطعًا عن الناس؟
ولم أنتظر الإجابة؛ فقد أتت بإقرارهم في كون صعود الرسول صلى الله عليه وسلم وانقطاعه في الغار إعجاز.

لقد زرتُ جبل النور بسيارة مكيفة في وضح النهار، والعمران والأمن يحيطان بالمكان، ولم أصعده رغم شغفي وشوقي لفعل ذلك، لأن من معي أثبطوني متعللين بالمشقة والمسافة والوقت، فنظرت إليهم وأنا أستحضر جهد ومعاناة رسول الله صلى الله عليه وسلم حال صعوده وانقطاعه، فصعدت الحافلة وقلبي قبل لساني يتمتم: إنها لحقًا معجزة،

هوامش الفصل الأول

[1] دكتورة عائشة عبد الرحمن: مع المصطفي في عصر المبعث ص 15.
[2] مجلة الجندي المسلم عدد (122) بتاريخ 2006/1/1.
[3] دكتور محمد حسين هيكل: في منزل الوحي، ص 192 ــ 198، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، القاهرة 2014.
[4] على الطنطاوي: من نفحات الحرم ص 20-21.
[5] أنيس منصور: طلع البدر علينا ص 148.
[6] مقال: "غنيت مكة"، مجلة الجزيرة العدد (142) محرم 1427هـ.
[7]هاشم الفاتح: "حراء، غار في الوجدان"، "موقع ناس طابت".
[8] إبراهيم رفعت باشا: "مرآة الحرمين" مطبعة دار الكتب المصرية، المجلد الأول".
[9] رحلة ابن جبير ط دار بيروت، ص 94.
[10] محمد بشناق: كتاب "المعلم عمر، حوار روحاني في رحاب رمضان ومكة المكرمة"، اليوم الثاني في مهبط الوحي.
[11] قصة الشيخ جميل جلال مطوّف الرؤساء والملوك: هذا ما يفعله زعماء العالم أمام الكعبة.

الفصل الثاني

حِراَء، والتقاء الأرض بالسماء

بدأت اللحظة الفارقة في تاريخ البشرية يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلًا، الموافق لليوم العاشر من شهر أغسطس سنة 610 من ميلاد المسيح عليه السلام، وذلك كما حددها بعد النظر والتأمل في القرائن الشيخ صفي الرحمن المباركفوري في كتابه "الرحيق المختوم"، مستندًا في هذا على الرأي القائل بأن ميلاده صلى الله عليه وسلم كان صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل/ نيسان سنة 571 من الميلاد، وهو الذي يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل، وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم، أخذًا بما حققه عالم الفلك المصري المرحوم محمود باشا الفلكي. وهو التاريخ الذي اعتمدتُه في كتابي: "محمد صلى الله عليه وسلم، كما لم تعرفوه".

بناءً على التاريخ الذي تقدم يكون عمر الرسول صلى الله عليه وسلم أربعين سنة قمرية تامة، وستة أشهر، و12 يومًا، وذلك نحو 39 سنة شمسية وثلاثة أشهر وعشرين يومًا من السنة الثالثة من عزلته صلى الله عليه وسلم في غار حراء، حين شاء الله تعالى أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرم عبده محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة، ثم أنزل إليه جبريل بآيات من القرآن الكريم.

لعل أكثر من قرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكلف نفسه وقفةٌ للتأمل ليتعايش مع تلك اللحظة الفارقة والتاريخية في حياة البشر، وتاريخ البشرية، لا في تاريخ الإسلام والمسلمين وحسب، تلك اللحظة التي توقف عندها الكثرة الكاثرة من مفكري وأدباء وشعراء العرب والعجم والعالم ممن هم على الإسلام ومن ليسوا به بمؤمنين، سيدرك مسلم العصر وقتها أنه لم يوليها ما تستحق من العناية والدراسة والاهتمام، ولن أستغرب حين يوجه لنفسه بعض اللوم على هذا التقصير؛ فلقد تعامل بشيء من الرتابة والكلاسيكية وتسطيح مع تلك اللحظة التي أدهشت ومازالت تدهش العالم، تلك اللحظة الرأسية الأفقية في

عمر البشرية وتاريخها؛ أفقية من حيث التاريخ الزمني، ورأسية من حيث أهميتها وعظيم ما أحدثته في التاريخ والجغرافيا، وبنية العقائد البشرية.

لعل من تعامل مع هذه اللحظة بمثل ما أسلفنا ووصفنا، سيظن أنني أبالغ في توصيفها ورصدها، ولكن عزائي سيكون عندما سيصوب سبابته لصدره متهمًا نفسه بالتهوين من شأنها، وأنا من هنا بدوري سأربت على كتفه لأهون عليه؛ إذ لا يقع كل الذنب عليه، لقد كان ضحية لمعادلة مازالت تجري في واقعنا الدَّعَوي كل يوم جمعة من كل أسبوع، حين تضيع أحداث السيرة النبوية الشريفة بين كلاسيكية الطرح وكلاسيكية التلقي؛ فكلاسيكية الطرح أعني بها التواصل مع السيرة النبوية باعتياد وبديهية وتراتبية سواءٌ من صاحب المنبر "الداعية" أو شيخ الأوقاف" أو من المُصُلي/ المُتلقي لهذا الطرح بنفس الروح، دون بذل الجهد الكافي لحث "الطارح" على بذل الجهد في التجديد لا من حيث اختراع أحداث ـ وهذا مستحيل ـ ولكن ببث روح التأمل والفكر فيها، واستكناه أسرارها، وإبراز مغزاها ومؤداها.

كلما توغلنا في صفحات هذا الكتاب ستتبدى لنا أهمية تلك اللحظة الفارقة، بل أحداث الغار من صعود وانقطاع ثم عند النزول منه، وذلك حين نطالع أقوال من رصدوها ونثروها نثرًا وشعرًا إعجابًا بها، وثناءً عليها، وحين نطالع أقوال وأفكار من توقف عندها وبثها في الكتب افتراءً عليها بغية وقفها، أو هدمها كُرهًا لها.

سنؤجل الشعر للفصل القادم، وكذلك سنؤجل الافتراءات، لنبدأ رحلتنا مع من رصد تلك اللحظة الرائعة بالحب والفهم، بالقلب والعقل، أولئك الذين أدهشهم سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم مع هذا الغار الضارب في عمق الصحراء بعيدًا عن الحضر تاركًا زوجه الطاهرة وفلذات كبده وهم أكثر ما يضعف الأب أمامهم عند الفراق ليأنس بالوحدة والظلمة الداجية، وهذا البعد الإرادي الاختياري.

سنبدأ مع من رصد تلك اللحظة من قديم الزمان وانتهاءً بعصرنا، حتي نتبين بأن هذه اللحظة مازالت بمثل قوتها وزخمها وطزاجتها، تعمل عملها من يوم انطلاقها وحتى الآن في قلوب وعقول وأقلام وأفكار من تناولوها من القدامى

والمحدثين، من أولئك الذين صعدوا إلى الغار فاقتنصوا اللحظة عيانًا، أو من اقتنصوها عبر قراءة الأسفار استخلاصًا وبيانًا، ومع هذا فهيَّ تتبدى أمامنا قوية، ناصعة، رائعة، لانفرق حين قراءتها بين من صعد ومن لم يصعد، لتفعل فعلها فينا، سواء من صعد منا ومن لم يصعد، فيعيشها كما عاشها أصحابها وربما أكثر بحسب حبه وإيمانه،

يصف العلامة محب الدين الخطيب لحظة صعوده جبل النور ثم دخوله الغار الحبيب الذي تشرف بمُقام الحبيب به صلى الله عليه وسلم الليالي الرمضانية من كل عام، فيقول [1]: (كان أول ما اشتهيت أن أعرفه ـ يوم دخلت مكة ـ جبل حراء الذي خوطب عليه سيد الخلق صلى الله عليه وسلم بوحي الحق جل سلطانه. وقفت من جبل النور على قُلَّة شامخة زَلُوج [قمة مرتفعة زلقة]، وأرسلت بصري في الآفاق فإذا جبال خالية من الناس بعيدة عن ضوضائهم، مستريحة من دسائسهم وشرورهم، أمرها الله أن تكون فكانت، ولا تزال على ما أمرها الله بها من غير تبديل أو تعديل إلى أن يأمرها الله بالزوال فتزول. وتشرفت بدخول الغار المبارك، ثم خلوت بعيدًا عن أصحابي أتأمل كيف أن روح خاتم الأنبياء، وسيد أولي العزم كانت من السعة بحيث ترجو الله أن تعم كلمة [لا إله إلا الله] جميع أقطار الدنيا، وأن تعلو أرواح سكان تلك الأقطار من حضيض العبودية للبشر أو الجمادات إلى مستوى التوحيد الخالص الذي لا يليق بعقول البشر ونفوسهم غيره، وأن تتحول أمم الأرض عن خرافاتها وأكاذيبها وخساساتها وحِيَلِها، فتكون بالإسلام أمة صدق ورحمة، وإيثار وعمل وجهد وإصلاح، في هذا الغار هبط الوحي الإلهي على قلب عبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ومن هذا الغار انتشر نور الهدى، فاستنارت به قلوب أمم لا عِداد لها، وسيدخل هذا النور قلب كل ابن انثى إذا استطاعت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تتأسى به، وتصغى إلى صوته فيما أمر به من معروف، وما نهى عنه من فساد).

أما العبقري العظيم والمحب للعباقرة عباس العقاد فلم يصف رحلته للحج في كتاب مستقل ولكنه وصفها في عدة مقالات متناثرة وكتب مختلفة. ويعد العقاد أفضل من وصف رحلته للحج في عصره وزمانه، وقد ترك سيارة المرافقين له ودخل بنفسه "غار حراء" حينما أشار السائق إليه، وصعد الجبل بنفسه وقال عن ذلك:

"لابد أن أصعد بنفسي الجبل وأجلس في المكان ذاته الذي اجتمع فيه أمين الوحي مع الصادق الأمين حينما قال له: "اقرأ". وقد تساءل العقاد في مذكراته قائلاً: "كيف كان النبي الكريم يخاطر بنفسه في الصعود إلي هذا المكان الموحش الوعر الذي كانت تسكنه السباع والوحوش. أم أنها العناية الإلهية التي اختارت له ذلك المكان المظلم لكي تشع منه أنوار الوحي وتنبعث منه هدايات السماء وتنطلق منه أعظم حضارة شهدتها البشرية جمعاء. ولم يكتف العقاد بذلك بل ذهب إلي غار ثور، وإلي بيت أبي بكر الصديق وقد عبر عن مشاعره الجياشة في هذا البيت قائلاً:"لما دخلت الدار شعرت كأنني أحاوره فيما كان من شأن الدعوة في مهده؟"[2]، كما قال وهو يتأمل الغار والمتحنث فيه:(كان العالم كله في غفلةٍ عن ذلك الرجل الذى يأوي إلى غار حراء متوحدًا في سبيل التوحيد، وكانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور، فلما انقضت مدتها لم يبق في الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغار، ولم يبقَ جاهل بآثار تلك الساعات التي كان يقضيها بالليل والنهار، وحسبك نظرة واحدة إلى الجبل ومرتقاه لتحيط بعض الإحاطة بتلك النوازع المرهوبة التي كانت تنهض بالرسول في صباه إلى ذروة تلك القمة مرات بعد مرات وأيامًا بعد أيام، كل مرة من تلك المرات تترجم لنا عن قوة البواعث المحتدمة في نفسه الشريفة، وترينا كيف بلغت هذه البواعث المحتدمة أن تدفع بالعالم كله في طريق غير طريقه، وإلى غاية لم تكن له قبل في حساب، فلولا لاعج من الشوق الإلهي ينهض بالروح والجسد نهضة لا تصبر عليها طبيعة البشر لما توالت تلك المصاعد ولا تعاقب ذلك العكوف، إن اللواعج التي حملت الرسول إلى مرتقى الغار هي السر الروحاني الذي استجاش العالم كله بعد ذلك في حركة دافقة تقتحم السدود وتخترق الأسوار والحدود، وكل أولئك كان في نشأته الأولى خاطرًا في قلب الرجل وحيد، يتفرد في سبيل التوحيد، وكل ذلك السيل الجارف إنما تجمع قطرات عند هذه القمة العالية، كل ذلك كان في هذا المكان) [3].

يتأمل الدكتور عبد الوهاب عزام كيفية خروج محمدًا من الغار من شرنقة التفكر، إلى بوتقة انصهار الرسالة في دنيا الناس، فيقول [4]: (لقد خرج محمد من هذا الغار حقيقة نقية كالسماء الصافية، خرج قانونًا من قوانين الله التي تُسيِّر الشمس والقمر، وتمسك السماء والأرض، يمضي قُدمًا إلى الغاية المقدورة مُضيّ النجوم في حُبكها والشمس في فلكها، هبط الرسول من حراء وقد حمل أمانة

الرسالة، فليت شعري أَهَبط ونفسه قريرةٌ كما ينزل النور من الشمس والقمر؟ أم نزل ونفسه جائشةٌ كما ينزل الغيث بين الرعد والبرق. ما هي المشاعر والأفكار التي كانت تجول في قلبه وقد حمل ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ لينقذ به العالمين من الظلمات إلى النور . لست أدري، ولكنه نزل دينًا جديدًا، وعصرًا وليدًا، وتاريخًا مديدًا، وإصلاحًا شاملاً وهدى كاملاً، ورحمةً للعالمين).

يقر الشيخ على الطنطاوي بأن غار حراء أجمل مكان في الكون، فيقول[5]: (لقد طوفت في الآفاق، وضربت في البر والبحر، ورأيت من البلدان قديمها وحديثها، ووقفت على مواطن القدس، وآثار المجد، ومجالي الجمال في الأرض. فما رأيت مكانًا كان أبلغ في قلبي أثرًا، وكان أكثرُ على البشرية فضلاً، وأخلدُ في التاريخ عِظَمًا، وأكبرُ على الحضارة يدًا، من هذا الغار القفر، القائم على قمة جبل أجرد، في قفرٍ موحش، هذا المِرْقَبْ الذى أطلّ منه يومًا على العالم، سيد العالم محمد صلى الله عليه وسلم).

من الذين صنعوا صنيعي فاكتفي بالوصول إلى جبل النور دون الصعود الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف المصري الراحل أثناء أدائه العمرة بعد عودته من رحلة في الشرق الأقصى، وبالتحديد في أوائل شهر شوال 1390 هـ /1970م، ولم يكن وحده بل رافقه صديق "حجازي" ـــ أي من أهل الحجاز "السعودية الآن" ـــ قام بدور المرشد له، واتفقا على أن يقضيا ليلتهما أقرب ما تكون إلى رسولنا عليه الصلاة والسلام، يحكي الدكتور انطباعاته عن تلك الليلة، فيقول [6]: (سرنا في الطريق التي كان يسلكها الرسول الأعظم إلى غار حراء، ووقف صديقي عند صخرة:

ـــ هنا كان يجلس الرسول في طريقه إلى الغار، هنا مساره .

وتابعنا السير ما استطعنا، وحملتنا السيارة إلى قرب جبل النور، وصعدت عيوننا على الطريق الوعر إلى الجبل الصديق، الذي قضى فيه الرسول ما شاء الله له أن يقضي، نور من القمر، ونور نحس به منبعثًا من الجبل، والليل قارب الانتصاف. والصمت يلفنا ويلف الأحياء من حولنا، وجلال الذكرى يصرفنا عن الإحساس بالزمان، أنحن قريبون من المكان الذي نزل فيه الروح الأمين؟، وهنا، نعم هنا، نزل الأمر الإلهي الأول: ﴿اقْرَأْ﴾، نزل على النبي الأمي).

وقف خالد محمد خالد مع كل المتيمين الراصدين بحب وعلم لحظة صعود العابد المتحنث محمد بن عبد الله وكمونه وانقطاعه في غور سحيق بشاهق جبل في فلاة لا يسكنها بشر، أقرب للسماء منها إلى الأرض، فكوَّن هو والغار والجبل والسماء صحبة متعبدة منقطعة لذكر الخالق وحده في لوحة مغمورة في عبق ضياء التوحد، ثم استقباله سفير السماء الذي لم يكن ينتظره فيبلغه القرار الإلهي بشرف الاصطفاء ليصبح رسولًا لكل الناس وسيدًا لكل الناس بعد أن كان واحدًا من الناس، ثم نزوله لدنيا الناس مودعًا الغار إلى الأبد مثقلاً بأمانة الرسالة، محملاً بعبء التكليف والتبليغ، فيقول [7]: (هذا رجل كانت الأقدار تعدُّه، وتختصَه بحمل تبعات الغد، الغد الذي لن ينتهي بين عشيةً أو ضحاها. بل سيمتد ويطول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم، يعزف في إباء وفهم عن معتقدات قومه الباطلة الهازلة، ويتردد إلى غار هناك في أعماق الجبل، يُنصِتُ فيه إلى همس الكون كله، وإلى رؤاه المُجَنَّحَة في ملكوت الله، ويتحدث مع نفسه وأشواقه حديثًا معطرًا بالذكاء، وبالوعي الباطني، والإلهي المُضاء ثم يغادر الغار إلى الحياة الصاخبة، مؤديًا فيها عمله في طهر وعَناء، أكانت أحاسيسه ومشاعره على موعد مع أمرٍ ما، قد اقتربت أيامه، وتهيأت أعلامه؟، أكان "الرسول" الكامن في "الرجل" على وشك أن يُؤذَن بالظهور؟، هل انتهى دور الإعداد والتهيئة، وأقبل دور الإمداد والرسالة الخالصة، ها هو ذا يكثر من اللجوء إلى غاره الحبيب، وكأنه على موعدٍ هناك مع مفاجأة لا يعرف هويتها، ولا يدرك حقيقتها!! إن كل شيء في داخله يتوهج ويتألق ورُحُه الطُّلَعة تتواثب بين جوانحه، ويبدو قلبه الكبير، وكأنه يريد أن يطير! وبسمعه المرهف المتحفز، قد أعرض عن الكلمات والإشارات، وأوصد جميع نوافذه إلا نافذة واحدة، اقترب منها وألقى إليها نفسه في تجددٍ وتبتل؛ وإنصات وإصغاء، لكأنه على موعد مع كلمات سيتلقاها من الله! هذا في داخل الغار، أما خارجه فقد بدت الحياة وكأنها تحولت بكل ما فيها إلى مهرجان حافل ورائع تصدع من خلاله، وتهتف: أهلاً بمقدم الرسول صلى الله عليه وسلم).

ويقول أيضاً منبهرًا بيوم الوحي العظيم [8]: (أعلنت السماء إذن مُختارها ومُصطفاها الذي طال ترقبه وانتظاره، صدقت إذن كلمات الكتب، ونبوءات الحنفاء والقديسين ، وها هو ذا في مكان منعزل عن صخب الحياة، في أعمق غور

لأعلى جبل، حيث أوى إلى هناك ناسكاً طهورًا يضرع إلى ربه كي يَدُلَّه عليه، يهبط عليه سفير السماء في جلاله، حاملاً نور الله إلى المتبتل الأواب، وحاملاً إلى البشرية وثيقة رشد جديدة، سيكون إمامُها فيه وأستاذها ومعلمها هذا الإنسان الودود، حفيد إبراهيم، ودعوته وبشراه، تُرى لو لم يكن يوم الوحي هذا بين أيام الدنيا، فأي مصير كانت البشرية ستلاقيه؟).

وقف الكاتب أنيس منصور أمام غار حراء متأملًا[9]: (ولا أخفي شعوري بالفزع والرجفة عندما وقفت فوق الغار، مع أن الغار أحجاره ككل الأحجار، أحجار عادية، ولكن المعنى، المناسبة، التاريخ، شيء يخيف ويهز ولا يجد الإنسان ما يقوله، فما الذي يمكن أن يقوله أحد بعد الذي قاله صاحب الغار، ما الذي يمكن أن يقوله عنه وعن الذي قال، إن صاحب الغار قد كان له رأي في كل شيء، وله وقفة عند كل قضية).

كما يسترجع "منصور" المعنى العميق الذي جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يصعد إلى هذا المكان المنعزل عن العالم بعلوِّه وسموِّه، إلا يتمه واختلافه عن كل ما يحيط حوله فيما أسماه بـ "اليتم الرابع"، فيقول: (بعد شهر من ولادته مات أبوه في المدينة، وبعد ست سنوات ماتت أمه في مكة، وبعد ثلاث سنوات مات جده عبد المطلب، ثم جاءت سيرته الكريمة وأخلاقياته الفريدة فجعلته يتيمًا مرة رابعة، الناس على شكل وهو شاكلة أخرى، وترفع عن الناس وارتفع ومازال يعلو "جبل حراء" ويستقر في غاره وينتظر حتى جاءته السماء بكل ما فيها من نور وحكمة لهداية كل الناس، كأن الأرض ارتفعت فأصبحت جبلاً، الجبل لما ارتفع بالرسول، فإن الرسول قد ارتفع به، كأن الغار حصن من حجر، كأنه "رَحِمْ" الكون كله ، والرسول وليد السماء والأرض، أو هدية السماء إلى الأرض).

غير أن الدكتور عبد الحليم عويس يرصد هذه اللحظة الفارقة في عمر الدنيا وفي تغير موقف الكون والإنسان منذ نطق جبريل أول كلمة باح بها اللوح المحفوظ لما أذن رب السموات والأرض لأمين السماء عاطرة منورة مطهرة من الفم الملائكي إلى الفم البشري، فيقول في مقالته "حراء شمس متجددة"[10]: (عندما نزلت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ في حراء كانت شمسًا جديدة تطل على الكون، جامعة في نسيج

واحد بين قراءة الوحي والعقل والكون، فتحقق لأول مرة في تاريخ الحضارات رسم خريطة تتناغم فيها الربانية والإنسانية على امتداد لإشعاعات الوعي الإنساني، وما كان ممكنًا قبل هذا الحدث الفارق أن تكون هناك حضارة إنسانية تتصل فيها الأرض بالسماء من خلال وسائل تتحدد فيها العلاقة الواضحة بين "الله" المعبود الخالق وبين "الإنسان" العابد المخلوق لقد كان "الكون" قبل هذا الحدث الذي وقع في "حراء" معبودًا يخشاه الإنسان ويتقرب إليه بشتى القرابين، ووسائل التعبير الدالة على الخضوع والخوف والعبادة).

ويعلن الدكتور عويس في موقع آخر من مقاله عن انبثاق "العصر القرآني" هذا العصر الذى سيعيد الكون إلى مكانه الصحيح كونًا مسخّرًا للإنسان، وبذلك يتاح للبشر ولأول مرة عبور حاجز الخوف الماضوي لينطلقوا محققين العبودية لله، فيعمروا الأرض مسبحين بحمد الله، وبالتالي يصبح الكون الذي كان في الوعي الإنساني الوثني معبودًا "عابدًا" خاضعًا للبحث والاكتشاف والتسخير، ليؤكد في النهاية: (وكما خرج النور من حراء عندما هبط الوحي مُعلنًا بداية "العصر القرآني "عصر تكامل القراءات السماوية والكونية والعقلية، لقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم واقعية ترتفع إلى قريب من شمس النور الخالد، شمس المثالية الإنسانية التي لا يمكن أن يصنعها إلا كتاب الله فكرًا وتربيةً وتنظيرًا، وسيرة الرسول الكريم فعلًا وحركةً وتطبيقًا).

يرى الدكتور عبد المعطى الدالاتي أن محمدًا إن لم يكن المبتدئ فهو الذى ألبسه الله حُلةَ الخاتمية حين أنزل عليه أنوار وحيه، فيقول [11]: (لقد كان الأنبياء هم البدء، ولا بد للبدء من تكملة، والتكملة بدأت في يوم حراء، غرة أيام الدهر، ففيه تنزلت أنوار الوحي على من استحق بزّة الخاتمية فكان خاتم الأنبياء، ومن ذا يستحق أن يُختم به الوحي الإلهي غير الصادق الأمين.).

يحكي الصحفي التونسي حسن الطرابلسي [12] خواطره مع غار حراء أثناء رحلته للحج تلك الرحلة التي لم يكن قد أعد لها؛ إذ جاءته دعوة من إحدى المنظمات الإسلامية بألمانيا بناء على دعوة كريمة موجهة من خادم الحرمين الشريفين لعدد من الشخصيات بأوروبا وأمريكا عام 2002، وآثر أن لا يفوته زيارة

الغارين حراء وثور، فقال عن حراء بعد صعوده: (غار حراء: لقاء السماء بالأرض أو تأسيس الإنسان فعلًا إنه للقاء خالد، ذلك اللقاء الذي حدث في التاريخ البعيد، ولكنه كان لقاء يؤسس في الإنسان، لم يكن طويلًا فيملّه النّاظر، ولم يكن مبهرجًا بالزينة فيبغضه المراقب، ولكنه كان قصيرًا في زمنه، طويلًا في خلوده، بسيطًا في مظهره، عميقًا في جوهره لا شكّ في وجوده. كان هذا اللقاء بناءً متجذرًا في الزمان، شامخًا في المكان. لقد شهد ميلاد الإنسان الذي حمل الأمانة التي أبت السماء والأرض أن يحملنها وحملها الإنسان. في هذا اللقاء اكتمل بناء الإنسان، وبناء الرسالة، فانفتحت في مضامينها وتوجّهاتها وارشاداتها وتشريعاتها، فكان لا بد أن تكون عالمية في المكان وأزلية في الزمان، شاملة في التشريع، دقيقة في البيان والتبيين. وبحكم أن المشروع اكتمل كان لا بدّ أن تكون الرسالة خاتمة، ولا بدّ لصاحبها أن يكون خاتمة مباركة لبداية مباركة. ولكنها كانت خاتمة للرسالات - وهذا من روعتها وبهائها - وبداية لأمانة جديدة. خاتمة للرسالات لأنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وبداية لأمانة جديدة وهي عالمية الإسلام وشمول دعوته وتحقيقه تمام الاستخلاف. ولذلك كان أول نداء في ذلك اللقاء الخالد: ﴿اقْرَأْ﴾ وأكرم به من نداء دوّى عاليًا ليعلن في وضوح لا موارية فيه أن الدعامة الأساسية لهذا الدين هي العلم. لأنه بدون العلم لا قراءة للإنسان ولكتاب الكون المفتوح، ولا علم أن لم يكن نابعًا من مشكاة أنوار الرسالة والنبوة فيعود بنا دائمًا إلى هذا الالتحام والارتباط الوثيق بين الأرض والسماء فانفصال أحدهما عن الآخر يقود إلى الضلال في كل الأحوال، وإنما التمسك بهما معًا هو الموصل إلى بر الأمان وشاطئ السلام. والله هو السلام).

أمَّا نور الدين محاجنه فيناقش فلسفة مهبط الوحي بحراء، [13] فيقول: (حراء كان مهبط الوحي، ولماذا حراء، وليس ذلك في قلب الكعبة؟ حيث التقديس والتشريف، والتنزيه والتكريم، حيث توجه إليها من قبل أبوه ابراهيم، وشيدها آدم، وقامت على بنائها الملائكة، وقصدها الأنبياء والرسل محجًا ومزارًا، فلماذا لا يكون مهبط الوحي من مكة، ومن قلب مكة من جوف الكعبة. تلك هي المعادلة الأولى التي أرادها الله لهذا الدين المتين، دين تقوم أركانه على الشموخ والعلو، دين ثابت بثبوت الجبال، لا تقرعه الرياح، ولا تؤججه نفوس الحاقدين، أو ترشَحُ فيه ضغائنهم. هكذا أراد الله لهذا الدين أن يكون وكان، دين ثابت من ثبوت الجبال، قوي صلب، هو فوق هذا وذاك شامخ نحو العلياء، يزاحم الثريا في عنان السماء

بعد أن غرس نفسه بأصل الثرى، وبذلك كان له الثبات في الدنيا والشموخ في السماء. تلك المرجعية التي أرادها الله لأبناء هذا الدين أن يفقهوها وعيًا يستقر في نفوسهم، ويسيل في دمائهم، أن الإسلام قد ميّزه الله عن باقي الأديان، أنه عزيز بثبوته ومنعته وقوته التي ولدت بولادة الجبال. وميزه الله أيضًا بشموخه وعلوائه. لتكون تبصرة لكل مسلم مؤمن موحد، أن الوصول إلى رِبّة الإسلام، هنالك حيث يقبع الغار الذي نزل فيه الوحي، وتحنث فيه صاحب الوحي، لن تكون سهلة سلسة، بل هي طريق وعرة صعبة المنال، شائكة في غاية الوصول، شائقه لمن وصل. فالإسلام العلي يحتاج إلى المشمرين عن سواعدهم، والمستعدين إلى طول السفر وقصد السبيل. فيا من أراد اللحاق بالإسلام، آن لك أن تشمر، لأن السفر طويل، جدٌّ طويل، طريقه وعرة حافلة بالكد والعناء، ولكن لك بعد هذا العناء الدامي والكد المضني أنك ستصل إلى ذروة الإسلام، حيث ستصل إلى الأفق، فتبيت تنظر من علياء إلى أسفل حيث يكشف لك كل شيء بائن واضح بارز جميل رائع).

يقول الأديب والشاعر الشيخ إبراهيم الحمدو العمر في مقالة تحت عنوان "رحلة إلى غار حراء": (ههنا كان صلوات الله عليه يتعبد وههنا كان يبيت وههنا اتصل وحي السماء بإنسان الأرض، وهاهنا التقى جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم، ههنا سحب العز أذياله، وههنا شيد المجد بنيانه، وههنا ضرب الإسلام بجرانه فأي سر ذاك الذي لأجله تم اختيار هذا الجبل الرفيع الذري لتلقي أولى كلمات السماء ونداء الله لأهل الأرض؟ ترى ماذا كان الرافعي سيقول لو رأى ذلك الجبل وهو الذي قال عن الصحراء وهيبتها وجلالها وسر اختيارها مأوى للإسلام: (إنما الإسلام في الصحراء امتهد، ليجيء كل مسلم أسد، بوركت يا غار حراء يا من ضممت بين جنبيك أشرف من أوى إليك، بوركت حجارتك، وبوركت صخورك، وبورك نورك، وبوركت هيبتك).

يروي الدكتور محمد بن لطفي الصباغ [14] قصة صعوده وسعوده إلى وبغار حراء، فيقول: (في شهر شوّال من عام 1388هـ رغبت في أن أزور غار حراء قبل أداء مناسك الحج، وكان ذلك، وكتبت يومها هذه الكلمة، وبقيت في أوراقي، وأنشرها اليوم: ساعة من أحلى ساعات العمر، ساعة قلّما يحظى بمثلها الإنسان في هذه الحياة، هذه الساعة لم تكن مُتْرَعَةً بالراحة، ولا مقضية بجلسة هادئة أتناول فيها الطعام الفاخر الطيب وأحتسي فيها الشراب اللذيذ السائغ، نعم، لم

تكن ساعة لذةٍ من لذائذ الحياة الدنيا، ومع ذلك فقد كانت ساعة من أحلى ساعات العمر، إي والله.كانت هذه الساعة في حراء، وفي الطريق إلى حراء. و(حراء) كلمة خالدة، تثير في نفس المرء المسلم أحاسيس ومشاعر لا حدّ لها، ويصعب وصفها.خرجنا في الصباح وامتطينا السيارة المريحة ذات المقاعد الوثيرة، وانطلقت بنا السيارة تطوي الكيلومترات طيًّا حتى وصلنا إلى سفح الجبل؛ جبل النور، وشرعنا نرقى هذا الجبل الذي كان يرقاه خير خلق الله صلوات الله وسلامه عليه، ولقد كان الطريق صعب المرتقى، شديد الوعورة، عديد المزالق، وكأني بهذا الطريق يذكّر المسلمين بحقيقة مهمة قد تغيب عن بال بعض الشباب، هذه الحقيقة هي أن طريق الدعوة إلى الله لم يكن في الأمم التي خلت ولن يكون في المستقبل طريقًا معبَّدًا مفروشًا بالسجاد، ومزينًا بالورود والرياحين، وعذب المنى، ولكنه كان أبدًا طريقًا مفعمًا بالمصاعب والمتاعب والمكاره والآلام، وهو ارتقاء ولكنه صعب، وهو صعود ولكنه عسير، وهو طريق وعر إلَّا على المؤمنين. وأودّ أن أقرّر - وأنا في نشوة المتعة بهذا الجوّ الروحي السامي، وأنا في هذه الساعة الحلوة من ساعات العمر - أنّ زيارة هذا الغار ليست منسكًا من مناسك الحج والعمرة، ولا أمرًا مندوبًا إليه من العبادات.كنت أودّ أن أكحل عيني برؤية الأرض التي شهدت أول اتصال للسماء بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم. كنت أريد أن أمشي على الأرض التي كان يمشي عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحرج ساعات الدعوة. كنت أود أن أشاهد الغار الذي كان فيه بدء نزول القرآن الكريم، وكان فيه بدء تلقي رسالة الإسلام، يحملها جبريل عليه السلام، يخاطب فيها رسول الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ رسالة الإسلام القول الثقيل ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، النور الذي بدَّدَ ظلمات الجهالة، وقضى على المظالم الاجتماعية التي كان العالم يومذاك يئنُّ من وقع آلامها، هذه المظالم التي تكون في كل مكان يُتجاهل فيه شرع الله.لقد كانت ساعة مباركة شهدها هذا الغار الكريم المبارك الذي بدأ نزول الوحي فيه، يقرر التوحيد والإيمان باليوم الآخر، وينظم حياة الإنسان تنظيمًا يحقق له سعادة الدنيا والنجاة والفوز في الآخرة، لقد هزَّت كلمة التوحيد الدنيا كلها، وغيرت مجرى التاريخ، ودفعت الإنسان إلى الأمام، وحرَّرته من المظالم والأوهام، وجعلته يُحِسُّ بإنسانيته.حقًّا لقد كانت الليلة التي كان فيها هذا الحديث العظيم خيرًا من آلاف الليالي العادية، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

(1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. إنَّ هذا الغار بقعة صغيرة كانت أوسع بركة على الدنيا من عدد من بقاع الأرض، لقد اتسع لجلال الوحي وسموّ الرسالة، نعم، عشتُ في الغار وعند الغار لحظات، بَدَتْ لي فيها الدنيا على حقيقتها، وتجلَّت لي عظمة هذه الرسالة الخالدة، وحمدت الله أن هداني إليها فكنت من المسلمين، لقد تصورت وأنا بين جوانح هذا الغار رسولَ الله العظيم صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان ينأى عن الانحراف والضلال والشرك والزيغ والفساد الذي كان يسود في مكة، وينأى عن دويِّ الحياة الصاخب واضطرابها ومشاكلها، ينأى عن ذلك كله بجسده بعد أن نأى عنه بقلبه ووجدانه، ويقضي في هذا الغار ساعات من التأمل يستشعر فيها عظمة الله، وضآلة الكون بالنسبة إلى الله – تبارك وتعالى – العلي القدير، ويخلو بنفسه فيحيا معها في إحساس مرهف، حتى صَفَتْ وارتقت وأصبحت مكانًا صالحًا لتلقي الرسالة الخالدة السامية.بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه، مِن متمرِّد على الضلال والجهل والباطل، كان يرتضي المقام في هذا الغار، ويُؤْثِرُ الإقامة فيه على الإقامة في أهله وبين زوجته وأولاده وعشيرته، ويبقى في هذا الغار الليالي ذوات العدد.غار بين صخور متراكبة بعضها فوق بعض، صخور طولانية ترى فتحة فيها من جهة القبلة، ولا يتسع هذا الغار لأكثر من أربعة أشخاص، وفي أعلاه فتحات يسيرة، وأرضه غير مستوية، ساعة لا أنساها، كأني بها من ساعات الآخرة).

يستعرض الكاتب الراحل أحمد أمين [15] أسباب صعود الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يصف التقاء الأرض بالسماء ذلك الالتقاء الفريد الذي لن يتكرر، وصولًا إلى نتيجة منطقية تفرضها المقدمة، فيقول: (لقد جرب العزلة الساعة واليوم فوجدها تفتح قلبه وتريح نفسه، ووجد فيها مفتاحًا لحيرته واتجاه لهدايته فبالغ فيها حتى بلغت الشهر! إن الناس وضوضاءهم ومناظر حياتهم يضنون نفسه فليهرب منهم، وإن منظر الطبيعة بجمالها وبهائها ورونقها ليحي نفسه فليطمئن إليه، يتعاقب عليه في عزلة الليل والنهار فيجد في كل غذاء نفسه: هذا الليل في أعلى الجبل بسكونه وهدوئه، وسمائه ونجومه، والعالم حوله كله نائم، وهو يناغي النجم، ويشاطره الاضطراب والحيرة، وهذا النهار ـــ في أعلى الجبل

أيضا ـــ يشرف منه على العالم من تحته، فيهزأ بالناس وسخافاتهم هزؤا مشوبا برحمة، واستخفافا ممزوجا بعطف كل ذلك وأكثر من ذلك كان يخفق له قلب محمد في غار حراء. لقد عرف الباطل، ويريد أن يعرف الحق؛ وأدرك الضلالة ويريد أن يدرك الهدى؛ ولم يحب ما عليه الناس، ولكن يريد أن يعرف ما ينبغي أن يكون عليه الناس.هذا الظلام فأين النور؟ وهذا العمى فأين البصر؟ وهذا ما يجب ألا يكون، فأين ما يجب أن يكون؟ لقد طلب الحق ـــ في غار حراء ـــ بعد أن تهيأت نفسه واستعدت روحه، وكملت مشاعره، وتوجت بالحيرة، فكانت حيرته إرهاصا لليقين، وضلاله إرهاصا للهدى لم يطلب الحق من طريق الشعر؛ فالشاعر يتخيل ثم يخال، والشاعر يخلق ما لم يكن ولا يدرك ما يجب أن يكون، والشاعر يغني لنفسه - أولا - ولا باس أن يسمع للناس، والشاعر يعيش في جو خيالي يخلقه بنفسه لنفسه. وليس هذا من النبوة في قليل ولا كثير. ولم يطلب الحق من طريق الفلسفة أو العلم، فكلاهما عبد المنطق، عبد الألفاظ، عبد الكتب، عبد النصوص؛ وأحسن أمرهما أنهما عبدان للعقل، والعقل معيب مغرور مضل؛ ولكل إنسان عقله، ولكل إنسان تفكيره، ولكل إنسان منطقه وقضاياه إنما طلب محمد الحق من طريق أسمى من ذلك كله، وأرفع من ذلك كله: طلبه من طريق القلب، وأعلن أنه لم يطلب علما ولكن طلب إيمانا، فأعلن أنه أمي وفخر بأميته، لأن القلب فوق اللغة، وفوق الكتابة والقراءة، وفوق العلم، وفوق المنطق؛ وهو القدر المشترك بين الناس، لا يؤمن بحدود اللغة والجنس، ولا يؤمن بحدود اللسان والألوان من أجل هذا لم يذهب - وقد حار - إلى معلم يعلمه الكتاب، ولا إلى مثقف بالكتب والأديان، وإنما فضل على ذلك كله غار حراء حيث الطبيعة على فطرتها مفتوحة أمام قلبه، وحيث يتصل هو وهي بربها وربه لقد اهتدى إلى الصراط المستقيم، واتجه اتجاه الأنبياء، لا اتجاه الشعراء والعلماء، وتهيأ للأمر العظيم، فلمعت في قلبه الشرارة الإلهية، كما يتهيأ السحاب فيلمع البرق، لقد أضاءت له هذه الشرارة الإلهية كل شيء، وكانت رسالته من جنس هدايته؛ فرسالته أن يبعث الحياة في القلب، ويبعث الضوء إلى النفس، كالقمر يستمد نوره من الشمس، ثم يعكس أشعته الجميلة على الناس، يشترك في الاهتداء به العالم والجاهل، والذكي والغبي، والفيلسوف والعامي، على اختلاف فيما بينهم، لأن لديهم جميعا قدرا مشتركا من القلب صالحا للاهتداء، وليست العقول مسايرة في الرقي والانحطاط للقلوب، فقد يكون مريض القلب صحيح العقل، وقد يكون صحيح القلب مريض العقل، ومقياس صحة

الاستفادة من النبوة صحة القلب لا صحة العقل، فلذلك آمن بلال قبل أن يؤمن عمرو بن العاص، واسلمت جارية بني مؤمل قبل أن يسلم أبو سفيان، كانت فترة غار حراء الحد الفاصل بين محمد بشرًا، ومحمد بشرًا رسولا. لقد صعد إليه إنسانًا حائرا، وهبط منه إنسانا نبيا، مهتديا مطمئنا. صعد شاكا. وهبط مؤمنا. لمع في قلبه النور الإلهي فإذا كل شيء حوله شفاف يراه بقلبه ويكشفه بنوره، نزل من الغار يدعو الناس أن يستضيئوا بضوئه، وأن يحيوا قلبهم من حياة قلبه، وأن يسمعوا لصوت الله على لسانه، وأن يروا عظمة الله في كل أثر من آثاره، أي شهر كان هذا الشهر؟ لو وزن به الزمان لوزنه، وأي مكان غار حراء؟ لو فاضل كل مكان لفضله).

يصف الدكتور عائض القرني النقلة النوعية في حياة العرب ـ بتصرف ـ: (هي لحظة تاريخية مفصلية في حياة العرب، هذه اللحظة التاريخية هي لحظة نزول ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، من عند الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة روح القدس جبريل عليه السلام في غار حراء، في هذه اللحظة حصلت النقلة النوعية للعرب فانتقلوا مباشرة من أعراب أجلاف قتلة متخلفين مشركين إلى جيل مؤمن مجاهد يحمل مشاعل النور للعالم وبشائر الرحمة للمعمورة فينطلقون بلا إله إلا الله شهداء عليها وشهداء على الأمم ويزكيهم ربهم بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، فعزتنا وكرامتنا بدأت من غار حراء مع كلمة "اقرأ" في ذاك اللقاء التاريخي بين محمد صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام ولم يحصل في العالم حدث مثله لا قبله ولا بعده، ومن تلك الليلة بدأ يُكتب تاريخنا المشرق، والعرب لم يغيرهم حدث في تاريخهم الطويل مثلما غيرتهم ليلة نزول اقرأ).

يصف الكاتب المسيحي المبدع سليمان كتاني لحظة دخول ونزول الرسول صلى الله عليه وسلم بأسلوب أدبي وفكري يعانق الأدب ويصف اللحظة البشرية قبل دخولها مدار النبوة والتكليف، فحق له أن يصفها على نحو أدبي وفكري، يقول[16]: (دخل الغار وأدخل معه كل خطوات الأمس، وراح يعرض، أمام ربه كل دقات قلبه، كل وجفات ضميره، كل مسارح خياله، كل أشواق روحه، كل ومضات فكره، وكل مسالك جسده .لقد دخل غار حراء معه كل فسح الجزيرة، في

كل إطاراتها في المكان والزمان، ومعه كل الملامح واللفتات والموازين والمقايس ومعه الاستعداد والتهيؤ، ومعه الخيوط والمغازل، ومعه الإرهاف، ومعه عمق البصيرة، ومعه جوهر الإنسان.دخل ومعه العظيم النادر في وجود الإنسان: معه العبقرية التي لا تشمل الإنسان، حتى تخطفه إلى فوق، إلى عمق، إلى مدى، حيث يصبح في الحالة الكبرى وعلى المدرج الساطع. ما كان يرجع محمد إلى بيته، من خلواته في غار حراء إلا مثقلاً بمهابات. أي جلال للفكر يسرح على جبين المفكرين؟ أية مهابة للعباقرة تسبق خطواتها وهم يتنقلون على الدروب، تتهامى من عيونهم، كأنها الفيض من آماق السحب؟ كيف تحدد الصفات، في انفتاح تكاملها، وتناسقها وتضافرها وتلاحمها؟ بأي لفظ توصف وهي مزيج من رصانة ووقار ومعرفة واطلاع وعمق وفكر واختمار ووعي وغوص وتناه في الطيبة وتلاش في المصدر الأشمل؟ وإن يكن من اغتباط، فهنيئًا للعين التي تتمكن من لمح هذه المهابات على وجوه العباقرة، حتى وإن فاتها التعبير في وصفها، أن وصف مهابات العبقرة عصي على شقوق الأقلام).

يرى عبدالكريم بن عبد العزيز القصير أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو سيد المتفائلين وقدوتهم، ولهذا كانت نظرة "القصير" إلى قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع حراء من زاوية جديدة ومختلفة من حيث التناول؛ إذ رآه صلى الله عليه وسلم متفائلًا وهو وحده في غار حراء يوحد الواحد الأحد ولكن ليس لديه طريق واضح، ولا منهج محدد لمواجهة ذلك، وكان اختياره لهذه العزلة من تدبير الله له، وليكون انقطاعه عن شواغل الأرض وضَجَّة الحياة وهموم الناس التي تشغل الحياة، وكانت نقطة تحول واستعداد لما ينتظره من الأمر العظيم، لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجه الأرض، وتعديل مسار التاريخ ينطلق في هذه العزلة شهرًا من الزمان يتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن له الله سبحانه، فيقول: (من غار حراء شع نور النبوة فشق حجب الظلام وتألق في كل الأرجاء، وبدد بكلمة التوحيد جحافل الشرك، وقصم بناموس العدل ظهر الظلام، فاستقام الميسم وظهر الحق واستعلى الإيمان، فتحطمت الأصنام والأوثان تحت سنابك خيول النصر، ولقد صدق من قال: خلاصة الدين في الغارين: في غار حراء تعبد وتأمل في الحياة وتفكر في الكون وتعلم للقرآن وتدبر لآياته، وفي غار ثور مرابطة ومجاهدة وتوكل وسكينة)[17].

في خاتمتين رائعتين تجمعان المبتدأ والمنتهى، المقدمات والنتائج، الإرهاصات والحقائق، لرحلة الإسلام والهداية في العهد النبوي، نبدأ بأولها، بتلك النظرة الإجمالية التي يرصدها الشيخ علي الطنطاوي للمواقف التي مرت بها رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم، بداية بالصعود إلى غار حراء، مرورًا واحتماءً بغار ثور، ثم انطلاق ركب الهجرة المبارك، فيقول: (يا شعوب العالم! استبشروا فقد نشأت اليوم الموجة الخيرة التي ستغمر العالم - وتغسله من أدران الماضي - لقد نشأت من غار عال منقطع. في قمة جبل رفيع، ومشت تقطع الرمال ـــ نحو أرض الثمار والرياحين ـــ نحو أرض المدنيات، . لقد ابتدأ اليوم أكبر حادث تاريخي: إن ركاب النبي المنتظر، قد تحرك من مكة يسير إلى نصرة الشعوب، إلى حماية العقل، إلى إنقاذ الفضيلة، إلى إنشاء عصر الحرية والعدالة والمساواة فخفقت القلوب في كل مكان لذكر النبي المصلح، وعاشت بحبه، وسألت :إلى أين بلغ؟ إلى أين بلغ؟ لقد بلغ الغار، فوقف فيه يودع هذه الجماعة السخيفة، التي جاءها أعظم رجل، بأعظم مبدأ، فلم تفهم منه شيئا، وحسبت أنها تستطيع القضاء عليه، فهي تريد أن ترد النبي فتقتله أو تسجنه، فهي تبعث رسلها، يفتشون عنه في أنحاء البادية، وشعاب الجبال، ومنعرجات الأودية، وينفضونها نفضًا، ولكنهم يعمون عن هذا الغار العالي المكشوف الذي يطل منه سيد العالم، أهؤلاء يحرمون البشر من العصر الذهبي المرتقب؟ ويقضون على الأمل الوحيد الذي تعيش به ملايين الخلائق؟ يا للمجرمين، يا للجاهلين المغترين! وتفرق الناس يهتفون في كل مكان باسم المنقذ الأعظم، باسم النبي! وبعد، فيا من ينعمون بحضارة القرن العشرين، يا من يعرفون قيمة الفكر البشري، ويستمتعون بثمراته، .يا من يقدرون العدالة والحرية والمساواة، .لا تنسوا أبدًا أن المنار الذي اهتدت به القافلة الضالة، والسفينة الحيرى، إنما خرج من ذلك الغار، فاذكروا دائماً عظمة هذه الغيران غار "حراء" إذ بزغت منه أنوار الديانة التي هذبت العقل الإنساني، وأرشدته إلى أقوم سبل الحقيقة والخير والجمال، وغار "ثور" إذ بدأت منه الموجة التي نسفت قصور الظالمين، وصروح العتاة، وقفت على الماضي السخيف، وحملت إلى العالم أسمى المبادئ وأعلاها، حين حملت إليه تعاليم حراء، إن هذه الغيران كعبة في التاريخ، لا ينبغ عقل ولا يمشي في طريق التفكير الصحيح، إلا بعد أن يطيف بها، ويقف عليها، .إن العالم قد سار نحو الكمال، يوم سار محمد صلى الله عليه وسلم نحو الغار،

.إنه لولا الهجرة، ولولا الفتح الإسلامي، . ما خرج العالم من الهوة، التي دفعته إليها أرستقراطية السادة الأشراف، وجبروت الملوك المستبدين، . ولا كانت حضارة القرن العشرين!)[18].

أما الخاتمة الثانية فيستعرض فيها الأستاذ عبد المنعم خلاف نقطتا الانطلاق ونقطة النجاح، من البّذرِ إلى جني الثمار، وذلك حين وقف الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي تلخص فيه مجد الإنسان وتحقق به وشاع منه على عرفات في حجة الوداع، وقد احتشدت حوله في ذلك الرحب الصامت الرهيب الذي فيه أول بيت وضع للناس، الأزمان والدهور وأرواح الملأ الأعلى والرسل والحكماء وأعضاد الإنسانية وحاملي المشاعل على طريقها، وأفواج الخلائق من عالم الذر والبرزخ، وأجساد أولئك المتجردين من لبس المحيط والمخيط من صحابته المخبتين، ومن فوق الحشد الخفي والمستعلن ينظر وجه الله ذو الجلال إلى عبده ورسوله وهو يلقي الكلمة الخاتمة البلاغ الأخير بالآيات المنزلة من حول العرش: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)، . ويعلن حقوق الإنسان وواجباته ويسأل الجموع المحشودة: هل بلغت؟ فتردد البطاح والأودية والشعاب التي كان يأوي إليها في طلب الهدى ثم في التخفي بالدعوة ثم في الجهاد لها - الجواب الإجماعي في إقرار وشكران وما بد من أن الكلمة الأولى: (اقرأ باسم ربك، .) التي طالعه بها الوحي في "حراء" كانت تتردد على سمعه في تلك البرهة الخالدة، فتتوالى أمام مخيلته عزائم جهاده في الأرض التي كان كل قديس فيها رجسا، وكل بَرَّة فَجْرة، وكل امرئ آثما في عقيدة القلب، خرفًا في رأى العقل، ضاريًا في معاملة الخلق، طفلا في طقوس العبادة، . أيام أن كان يتخفي بالغار في حيرة وانفراد ورهبة وصمت وشك وفراغ، وأعصاب مرهفة، وقلب مفجوع بالضلالات المعقدة، وعقل عظيم، ولكنه أمي ينظر إلى كون مبهم مختلط نظرًا لا يقع إلا على قمم الجبال وصفرة الرمال وأمم تحنو على أصنام من الأناسي والأحجار والأخشاب، ومواكب من النجوم تبدأ كل يوم من الشرق وتروح إلى الغرب في قهر وصمت وطواعية ووجوم، . وهو ذا الآن على عرفات في استعلانٍ ومعرفة وحشدٍ وطمأنينة وضجة ويقين وامتلاء في العقل من عالم الشهادة، وفي الروح من عالم الغيب، وفي اليد من أجساد العباد الذين لم يؤمنوا به حتى أحبوه أكثر من نفوسهم التي بين جنوبهم، فهم في يده يقذف بهم على كل أفق وتحت كل كوكب ليكونوا

امتدادا منه وظلا من دعوته، وقد امتلأ قلبه بالأمل الواثق بان الله متم نوره ومعل كلمته. وقد شبع عقله من جوع إلى المعرفة واتصلت به شرارة الوحي، وانتهت إليه ينابيعه فأضاء وصفا وعمق، ففيه لبني الإنسان الهدى والحلي والطهر.وقد تعوض نظره من رءوس الجبال التي حول حراء، برءوس خاضعة من النساء والرجال الذين رباهم ثلاثا وعشرين حجة في كل يوم بآية من الكتاب أو جملة من بيانه أو فعلة من سلوكه أو إيماءة أو صمت، حتى صقلوا وصاروا أناسًا كالنجوم المصابيح.بين الكلمة الأولى الآمرة المغرية المثيرة لعقله وروحه بقصة خلق الإنسان ذلك الكون العجيب من علق، وقصة القلم ذلك الشيء العجيب الذي يجعل الدنيا كلمات بين البنان واللسان: (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربُّك الأكرمُ الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم) وبين الكلمة الأخيرة المخبرة الهادئة الممتنة بكمال الدين واختيار الطريق: (اليوم أكملت لكم دينكم، .)، . دار الفلك ثلاثا وعشرين دورة على محور من ذلك الرجل الذي كان عقله مرآة لما يدور في السماء حول صلاح عمار الأرض. وها هو ذا يقف معلنا (أن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) وأن حركة بدء واستهلال وولادة ثانية للإنسانية تتمخض عنها الأيام الوالدات، .وإنها لكلمة ثقيلة التبعات لأنها حديث عن ابتداء الزمن واستدارته كهيئته في اليوم الأول.! ومن ذا الذي يجرؤ على الحديث بها إلا أن يكون نبيا؟ إذاً هو الأب الثاني للبشر ولدت منه الإنسانية ولادة روحية وعلية كما ولدت من آدم بالجسد [19].

أما أنا الذي جمع كل هذه الخواطر، والذكريات، والنظرات المتأملة من أضابير المؤلفات الضاربة في أعماق الزمان، فقد عشت كل تلك اللحظات مع أصحابها كما عاشوها مستبطنها ومتصنعها، ومحاكيها، كما لا أدعي فضلًا ولا أبالغ حين أقول: أني قد عشتها مثلهم وغيرهم، عشتها ببشريته ونبوته صلى الله عليه وسلم، يتبدى ذلك نظريًا وتطبيقًا حين رصدت بشريته صلى الله عليه وسلم في كتاب بأكمله، وحين وعيت حجم ومكانة عمق تلك اللحظة الامتدادية في مستقبل البشرية، والآتية من عمق زمن بعيد ولكنه حتى في تراكمه ممتد وحي ونابض، فكان هذا الكتاب الذي قصرته على قنص هذه اللحظة وحدها من نهر السيرة النبوية العاطر العامر بملايين اللحظات المشرقات الموحيات بآلاف الدلالات.

لن أدّعِي حين أقول أن الوقت الذي توقفت فيه عند جبل النور كان كافيًا لرصد تلك اللحظة الكبيرة، بيد أني استجمعتها ونحتها على شغاف جدران قلبي وعقلي، بحيث أصبحت لروحي مزارًا تكراريًا محببًا إلى نفسي لا يفارقني، وبعيد عن أبصار وبصائر كل رامق أو محدق.

لقد عشت اللحظة البشرية وأنا أرمقه صلى الله عليه وسلم وهو في طريقه إلى ذلك العالم الذي كان يهمه وحده، يتوحد فيه بذاته، يحمل معه رفضه المهذب الهادئ لكل تلك الوثنية الزاعقة المبثوثة في أركان تلك القرية التي تضج بالقوافل، والتجارات، والصادرات، والواردات، والوافدين من أجناس شتى، وألسنة شتى، وألوان شتى، ومن الطائفين والقاصدين البيت الحرام بنفوس مشركة تنوي الخضوع والذلة لمعبود صنعوه بأيديهم، ونصبوه في عقولهم وقلوبهم.

عشت تلك اللحظة واحترمتها دون أن أفسرها أو أفلسفها فما فعل صلى الله عليه وسلم ذلك ولا استحضرها بعد تكليفه بالنبوة، ولا سأله عنها أصحابه رضوان الله عليهم، ولا أصادر عن أي أحدٍ اجتهاده في استكناه أسرارها، ليبقى جمالها وجلالها في غموضها، وطي جوانح الرسول صلى الله عليه وسلم خباياها وكوامنها.

هي لحظة مضروبة ومقسومة في وعلى ملايين اللحظات البشرية تلك اللحظة التي يشق فيها أمين السماء حجب الغيب ويتسلط على عالم المشاهدة فيكسر حاجز الصوت ويضغط الزمن أمام ذلك المتحنث القابع في ركن ذلك الغار الغائر عن كل الشهود، لحظة ينخلع قلبي هلعًا وجزعًا كلما تمثلت انعكاساتها على قلب ووجه الحبيب صلى الله عليه وسلم يروعني عليه اشفاقًا ذلك النزول المفاجئ وقد روعَه ذلك اللقاء غير المرتقب.

إنها اللحظة التي غمره فيه صلى الله عليه وسلم طوفان النور والحكمة بوصفه أمين الأرض مُمثلًا للجنس البشري كله، ويبقى لـ "حراء" رمزية النيابة عن كوكب الأرض كله، لتعمل تلك اللحظة في أهل الأرض قرابة الربع قرن بالحضور النبوي، ويعمل جاهدًا صلى الله عليه وسلم في تجزئتها وتقسيمها إلى قطرات لتتحملها تلك النفوس العطشى من الصحابة، ونتحملها نحن ومن بعدنا فما كنا لنتحمل ذلك الطوفان كله، والنور كله، إنها لحظة التقاء السماء بالأرض في مشهد كوني حافل

بمراسم الاصطفاء والتكليف، ينزل معه الرسول صلى الله عليه وسلم صاعدًا بأطراف الأرض إلى آفاق السماء، مؤكدًا أن الاتصال بين الإنسان والله قائم بلا حلول ولا اتحاد، برسالة تمثلت أنقى تمثيل بالتوحيد، وعبادة الله بلا وسائط ولا شركيات، ويبقى محمد صلى الله عليه وسلم بعد هذا رسول الله البشر من البشر المصطفي بالوحي الإلهي.

مازالت الروح تحلق مشتاقة في مدارات حراء، غار النور، لا تشبع، ولا تَمِلُ من التطواف في لحظته الغابرة الممتدة، حتى تستطلع ما جادت به قرائح الشعراء، وكيف رصدتها أقلامهم بروحانيتها وشفافيتها فتلك اللحظة لا تدرك إلا بشغاف الروح في صفائها.

هوامش الفصل الثاني

[1] محب الدين الخطيب، مقال بعنوان: "قدوتنا الأعظم" من كتاب: "محمد رسول الله خلاصة سيرته ومقالات نادرة فيه" صـ59-60.

[2] ناجح إبراهيم: في رحاب الحرمين، جريدة الشروق القاهرية، 19 سبتمبر 2015.

[3] عباس العقاد: "الإسلام دعوة عالمية" ص99.

[4] عبد الوهاب عزام، كتاب: رحلات ص 330.

[5] الشيخ على طنطاوي: "من نفحات الحرم" ص17.

[6] دكتور عبد العزيز كامل: الإسلام والمستقبل ص 38،39، سلسلة اقرأ عدد (401)، دار المعارف، القاهرة 1975.

[7] خالد محمد خالد: كتاب "الإسلام ينادى البشر إلى هذا الرسول" صـ 85-86.

[8] خالد محمد خالد: عشرة أيام في حياة الرسول.

[9] أنيس منصور: طلع البدر علينا ص 157.

[10] موقع الدكتور عبد الحليم عويس، شبكة الألوكة.

[11] عبد المعطي الدالاتي: "ربحت محمد ولم أخسر المسيح" ص9.

[12] حسن الطرابلسي: رحلة النور ج1/4، الفجر نيوز يوم 31 - 10 - 2008"بتصرف".

[13] نور الدين محاجنة: موقع www.eqraa.com.

[14] دكتور محمد بن لطفي الصباغ: "في غار حراء"، موقع الدكتور بشبكة الألوكة.

[15] أحمد أمين: "في غار حراء"، مجلة الرسالة 196.

[16] سليمان كتاني، "محمد شاطئ وسحاب"، ط2 ص7، دار الهادي للطباعة والنشر، 2007.

[17] عبدالكريم بن عبدالعزيز القصير، "ابتسم للحياة"، ص6.

[18] على الطنطاوي: في رأس السنة الهجرية،معنى الهجرة، الرسالة 196.

[19] عبد المنعم خلاف: "بين حراء، . وعرفات"، الرسالة 196.

الفصل الثالث

حِرَاء، وقرائح الشعراء

حَلَّقت لحظة نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم في سماوات قرائح بعض شعراء الأرض قاطبة سواء من العرب أو من العجم، من المسلمين ومن غيرهم، قديمهم وجديدهم، يستوي في ذلك من استدعى تلك اللحظة صراحة أو من وصفها بحسب تاريخية وتراتبية الحوادث فيها من قبل حدوثها وأثناءها وبعدها، وشخوصها، ومنهم من استدعى الغار كرمز له دلالة حداثية يُسقِط عليه الواقع سقوطًا عموديًا لاستجلاء المشهد الحادث على ضوء المشهد التليد.

ولو بدأت من الغرب فيطيب لي أن أبدأ بأديب ألمانيا وشاعرها الكبير يوهان ولفجانج جوته ذلك المحب لرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم والذي تتحدث عنه الكاتبة الألمانية كاتارينا مومزن [1] جوته والعالم العربي، فتقول: (إن علاقة جوته بالإسلام ونبيه محمد، ظاهرة من أكثر الظواهر مدعاةً للدهشة في حياة الشاعر، فكل الشواهد تدل على أنه كان في أعماق وجدانه شديد الاهتمام بالإسلام، وأن معرفته بالقرآن الكريم كانت بعد معرفته بالكتاب المقدس أوثق من معرفته بأي كتاب من كتب الديانات الأخرى. ولم يقصر اهتمامه بالإسلام وتعاطفه معه على مرحلة معينة من حياته، بل كان ظاهرة تميزت بها كل مراحل عمره الطويل).

نظم جوته وهو في الثالثة والعشرين من عمره قصيدة رائعة أشاد فيها بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحينما بلغ السبعين من عمره أعلن على الملأ أنه يعتزم أن يحتفل في خشوع بتلك الليلة المقدسة التي أُنْزِل فيها القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، وستزداد دهشتنا عندما نطالع العبارة التي صدَّر بها ديوانه "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي" والتي يقول فيها إنه هو بنفسه: (لا يكره أن يقال عنه أنه مسلم). وهو الذي قال عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (بحثتُ في التاريخ عن مثَلٍ أعلى لهذا الإنسان فوجدته في النبي العربي محمدٍ صلى الله عليه وسلم).

سافر جوته بخيال فؤاده إلى لحظة اللقاء السماوي الأرضي الباهر وكأنه أمام ساكن الغار صلى الله عليه وسلم قد توحد معه بلحظات حياته كلها فصارا معًا، وأصبحنا نحن خارج الحدث، فإذا به يشير إلينا بل إلى كل واحد منا قائلاً في انبهار: (أنظر إلى ينبوع الجبل يتدفق صافيًا كشعاعٍ دريٍ فوق السحب، أرضعت ملائكة الخير طفولته في مهده، ساحبًا في إثره أخواتٍ من العيون كأنما هو مرشدها الأمين، وأما في البوادي فالرياحين تنبثق عند قدميه، والمروج تحيا من أنفاسه، لا يثنيه الوادي الظليل ولا الرياحين التي تطوق ساقيه، وتحاول أن تستهويه بلحظاتها الفواتن وها هو العباب زاخرًا يندفع لا يثنيه ثانٍ، مُخلِّفًا وراءه المنارات والصروح ذلك هو "محمد بن عبدالله").

توفي جوته ولم يكن قد نشر بعد إحدى أجمل وأروع قصائده في حب النبي صلى الله عليه وسلم، وعنوانها: "بعثة محمد" التي عثر عليها تلاميذه وأصدقاؤه، ويصف فيها برهافة صادقة اللحظات الأولى لتلقي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الوحي والنبوة، يقول فيها: (حينما كان يتأمل في الملكوت، جاءه الملاك على عجل، جاء مباشرة بصوت عالٍ ومعه النور، اضطرب الذي كان يعمل تاجرًا، فهو لم يقرأ من قبل، وقراءة كلمة تعني الكثير بالنسبة له، لكن الملاك أشار إليه وأمره بقراءة ما هو مكتوب، ولم يبالِ، وأمره ثانية: اقرأ فقرأ، لدرجة أن الملاك انحنى، واستطاع القراءة، واستمع الأمر وبدأ طريقه)[2].

ـــ حراء في الشعر الروسي:

في روسيا حفلت قصائد أمير شعرائها الكسندر بوشكين بالاستلهامات القرآنية والنبوية والتي تعطي لقارئها انطباعًا قويًا عن اطلاعه القوي والعميق على التراث الإسلامي، ولأن غاية ما نبتغيه من شعره هو ما يتصل اتصالاً وثيقًا بلحظة التنزيل القرآني الأول في حراء، فنجده ممثلاً بقوة في أعظم قصائده: "الرسول" أو "النَّبي" التي كتبها في عام 1826، وتأخذني الحيرة في نقلها لكثرة من ترجمها من أهل الاهتمام بالأدب الروسي بعامة وبشعر بوشكين بخاصة،

ورغم روعتها في كل من ترجم لها مثل الدكتور طارق مردود، وضياء نافع، وإبراهيم إستنبولي، إلا أنني سأنقلها بترجمة الشاعر رفعت سلام[3]:

ظامئًا قلبي الوحيد
قطعتُ الأراضي البورَ القاحلة
حين وجدته أمامي، ساروفيمَ المجنّح،
صامتًا، منتصبًا،
وعلى مفترق الطرق انتظرني.

على عيوني الطينية العمياء
وضع أصابعه برفق،
وكعيني نسرٍ عند الرعب،
فُتِحتا وراقبتا الأرضَ والسماء،
لمس أذني، ثم الأخرى،

وواضحة متميزة تمامًا،
أتتني الرفرفةُ الرهيفةُ لأجنحة الملاك،
فسمعتُ الكرمة
وهي تغوصُ في الأرض، وترتفع في السماء،
وهُولاتِ أعماق البحر
تنزلق في الماء كالأسماك.
اعتصرَ لسانيَ الآثمَ البارعَ من فمي،
وانتزعه بيدٍ دامية،
مال فوقي بلا شفقة
وَدسَّ ناب أفعى بين شفتيَّ الهامدتَين.
ثمّ- غارسًا سيفه اللاَّمع ببطء ـــ
شقَّ صدري،
واقتلع قلبيَ المرتعشَ المُعتمَ، الكالحِ،

وغرس بتثاقُلٍ في الفجوةِ المفتوحة
جمرةً، سرت مع اللَّهيب.
رقدتُ هناك، ميَّتًا،
وإلهي، تكلَّم يا إلهي،
وهذا ما قال:
انهض أيها الحكيم، يا من تسمع دعوتي
افعل كما أطلب، يا من يعوُقُك العدم؛
تقدَّم على الأرض، نبيًّا، لافحَا قلوبَ الرجالِ
بكلمةِ الحق [4].

ويأخذنا رائد الواقعية التقليدية إيفان اليكسيفتش بونين ـ آخر عمالقة الأدب الروسي الكلاسيكي، وأول من فاز بجائزة نوبل من أدباء روسيا ـ إلى رائعته "ليلة القدر"، وهي واحدة من قصائده الإسلامية الغزيرة، نتيجة لقراءته العميقة للقرآن الكريم الذي لم يفارقه حتى في سفراته العديدة، ولذا فقد جاءت قصيدته تلك من فهمه الواعي لسورة القدر، والتي بدأها بآية منها:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾[5].

إنها ليلةُ القدرِ. تلاقتِ الجبالُ و اتحدتْ،
و صعدت ذراها نحو السماء.
كبّرَ المؤذّن. وقطعُ الجليدِ ما زالت حمراء.
و لكن صقيع الظلام قد بدأ يتنفس في الثغور والوهاد.
إنها ليلة القدر. والغيومُ ما فتئت تهبط
و تتشتتْ على سفوح الجبال المظلمة.
كبّرَ المؤذّن. والنهرُ الماسيُّ يجري
أمام العرش المعظّم، و هو يتبخّر .
و جبريل – دون أن يُسمَع أو يُرى –
يلفّ العالمَ النائمَ. ربي، باركْ
الدربَ الخفيّة للحج المقدس

وامنحِ الأرضَ ليلة من السلام والمحبة!

ذكر الشاعر نيقولاي تيخونوف "ليلة القدر" ضمن قصيدته الفريدة "الإسلام" والتي سننتخب منها المقاطع الخاصة بتلك الليلة المباركة:

إلاّ الله.
شفاهي – حق وحساب!
لكم – البشر، لكم – الغيوم، لكم – وحوش الصحراء.
أبوه – جمل بأسنمةٍ كالدخان.
أمّه ذات الشعر المتجعد الأخضر – نخلة في المدينة المنوّرة.
لقد اقتفيتُ آثار أقدامه.
ولكن قلبه – قطعة جمر، وروحه – ضالة.
. . . .
وابتعدتُ، ابتعدتُ إلى حيث الريح والطريق –
أهوَّ، يا الله، مَن سيكنس الظلام؟
و إذ بالجملِ الماسيّ يشقُّ لي صدري بحوافره،
و الكلبُ المقدس يَنبحُ: نعم، هو.
ألِف، لام، ميم!
اِسمع:
ليلةُ القدر أكثر اخضرارًا من الغابة،
يا مَن دق البابَ عندي والقلبَ؟
. ‘
تَعِبَ النخيل من هزّ الرؤوس نحو الشرق،
النبات يصلّي، والأُسُود لا ترِدُ الماء –
ليس مائة قبلةٍ، بل حقاً ثلاث مرات سآخذ
منك مائة مع أول نجمة ليلية،
لكي تعود حياتي إليَّ
في ليلة القدر هذه.
و أنا قلتُ لذلك الشخص: "وقت"،

هو الأكثر بأسًا،
شفاهي حق، وشفاهي – حساب!
غداً سأنطلق في الدرب،
لأنني جمّال أنا، والجمل،
والأرض، والسماء فوقها،
و يوم غد – كالسيف.
لتنامي، يا زهرتي،
فاليومَ سلامٌ – في الأرض وفي المحيط.
اليومَ في ليلةِ القدر
يدخلُ الجنّةَ مع الأنبياء
حتى أشدّ المنبوذين بين الناس.

إن سورة " ليلة القدر" العظيمة، وعلى الرغم من قصرها، قد أعطت دفعة قوية لمثل ذلك الإلهام الشعري الرفيع، و تسبب الاطلاع عليها بنشوء تيارات عميقة من الرؤى والتصورات في الأدب الروسي[6].

ـــ حراء في الشعر الأوردي:

اللغة الأوردية من اللغات التي يتكلم بها أكثر من ثمانين مليون من سكان الهند وباكستان وبنجلاديش، وقد تأثرت بالحضارة الإسلامية وباللغة العربية التي انتقلت إليها مع الإسلام، وذلك في قواعدها وعروضها وحروف الكتابة، والكثير من الألفاظ. ولهذا فقد أصبحت لغة الثقافة بين المسلمين، بفضل الأعمال الأدبية التي كتبها عدد من الأدباء البارعين، أمثال: ميرزا غالب، والسيد أحمد خان، وألطاف حسين حالي، و الدكتور محمد إقبال، والذي سنكتفي به وبالشاعر حالي.

لا يجهل أغلب المسلمين من غير الهند وباكستان الشاعر الفيلسوف الحكيم شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي كان يرى أن الإسلام هو دين الإنسانية والرسول صلى الله عليه وسلم هو المثل الكامل للإنسانية، فإذا ذكره ترنحت

عواطفه وجاشت نفسه وفاضت عينه. ويحكي الشيخ علي أبو الحسن الندوي [7]: (إنني أذكر شاهداً على ذلك، كان أحد كبار الأمراء وأصحاب الولايات في الهند، زمن الحكم الإنجليزي قد دعاه لدراسة بعض الصكوك والوثائق القديمة التي أعطاها الملوك المغول لآبائه، وليترجمها إلى الإنجليزية، فقد كان محمد إقبال محامياً كبيراً ودارساً للحقوق فهيأ له مكاناً من أحسن ما يمكن، وأثثه أحسن تأثيث يقدر عليه أمير وصاحب ولاية وحكم، وهيأ له كل ما تقع إليه الحاجة من أسباب الراحة، ثم تخوّف أن يكون هنالك نقص أو فراغ، فدخل غرفته فجأة، فرآه مستلقياً على الفراش في الأرض، ولم ينم على السرير الذي قد هيئ له، فقال:

ـــــ سامحني يا معالي الدكتور، لماذا تنام على هذا الفراش وتترك السرير.

فتوقف قليلاً، فلما ألح قال:

ـــــ والله تذكرت أن سيدي الذي أنتمي إليه، والذي يؤول إليه كل الشرف وكل السعادة في حياتي كان ينام على بساط متواضع على الأرض، فكيف يطيب لي النوم على هذا السرير الأثير، والفراش الناعم؟، ودمعت عينه، وأثّر ذلك على الأمير وإن كان هندوسيًا).

يقول إقبال في قصيدةٍ له متحدثًا عن مثله الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(إن قلب المسلم عامر بحب المصطفي صلى الله عليه وسلم، وهو أصل شرفنا، ومصدر فخرنا في هذا العالم. أن هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى كان يرقد على الحصير. إن السيد الذي نام عبيده على أسرّة الملوك كان يبيت الليالي لا يكتحل بنوم، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد فكان أن وجدت أمة، ووجد دستور، ووجدت دولة)[8].

لقد عاش إقبال حياته كلها تنفيذًا لوصية أبيه: (كن يا بنيَّ من البراعمِ في غصن "محمَّد"، وكن زهرةً يُحييها نسيمُ ربيع "المصطفي")، فكان نعم البرعم، ونعم

الزهرة المحمدية. إذ كان يملكه حب النبي صلى الله عليه وسلم، والإعجاب بشخصيته المعجزة.

وبعد تجربة "إقبال" الطويلة في الحياة وعلمه ونظرته يرى"إقبال" أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم أفضل المحبوبين، فهو يخبر كل قرائه أن طرق العشق تبدأ من ذاته صلى الله عليه وسلم، فحب الرسول الكريم يعطي الجمال للحياة والدوام للعشق.

إنك لا تعلم من أين يبدأ العشق، فهو شعاع من شمس الرسول صلى الله عليه وسلم، فأنت حي ما دامت روح الحب موجودة بداخلك، وهذا الحب يحفز إيمانك. ولهذا فإن العشق يعطي القوة للذات الإنسانية، وهذه القوة تعطيه القدرة على ضبط النفس التي بواسطتها يتصل بالله، ولكن لكي يصل الإنسان لهذه الدرجة فلا بد أن يسمو بذاته ويتعلق بالله، وهذه التجربة مثل تجربة الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء، ومن الضروري لك أيضًا أن تقيم في حراء قلبك لتحصل على جواهر الحقيقة [9].

احكمِ العشقَ بتقليد الحبيب
حتى يحبِبكَ رب العالمين
واجلس في حراء القلب هادئًا
واترك علائق ذاتك
وهاجر إلى الله راضيًا
احكم نفسك بالحق
ثم ارجع إلى نفسك
وحطم هوس اللات والعزى [10].

أما الشاعر الشيخ ألطاف حالي، فيقول [11]: (نزل من غار حراء وفي يده إكسير من السماء، حول التراب تبرا، والحصى درا وجوهرا، أقبل إلى الأمة العربية التي كان يخيم عليها الجهل من قرون، فأحدث فيها ثورة جذرية انقلبت بها أوضاعها، وتغير بها مجرى التاريخ. إن الحجر الذي رفضه كل بناء وزهد فيه كل معمار،

تناوله بيده الكريمة، وجعله حجر الزاوية، لقد هاجت سحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمان وبصره، وشرق وغرب رعدها وبرقها، فبينما رعدت على نهر "تاجة" في إسبانيا أمطرت على نهر كنج في شبه القارة الهندية، لقد أحيا فيها مزرعة الإنسانية القاحلة، وعمرها البر والبحر، فما ترى في العالم من رواء وبهاء ونور وسناء إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمدية).

ـــ حراء في الشعر العربي:

إن أجواء غار حراء حين نزلت فيه الآيات الأولى من القرآن الكريم، أصبحت مقصدًا لقرائح الشعراء تحلق فيها، تتنسم عطر الوحي في بواكيره، وترصد من خلال رؤى متعددة أبيات تقطر حب وصفاء وأنس وانصهار بل توحد بتلك اللحظة حتى حكاها أصحابها كأنهم عاينوها، ومنهم من رصد تاريخيتها وسار معها من مبتداها إلى منتهاها، بينما اكتفي بعضهم بلحظيتها فنقلها، أو تأملها، ومنهم من رصد عناق غار حراء لليلة القدر الأولى، تلك التي تتجدد في حيوات المسلمين ذكرى ومعايشة وقيام واستلهام في شهر رمضان المعظم في كل عام.

وقد استلهم بعض الشعراء من غار حراء والمتحنث فيه صلى الله عليه وسلم اسقاطات تاريخية عمودية على اللحظة المصيرية الراهنة استئناسًا باللحظة التاريخية لاتصال الأرض بالسماء، أو منهم من اتخذها رمزًا دار حوله ليجدله فيما يتبناه مستخرِجًا منه صورة عصرية لأفكاره.

ونختم هذا المسير بشعراء الحجاز أولئك الذين رافقوا ورافقت المشاهد المقدسة أطوار حياتهم، ومنابت موهبتهم، فكيف عاشوها وعايشوها، ونقلوها لنا، هل مذاقهم لها كان مختلفًا عن بقية الشعراء؟، أم أن وقع المحبة من حراء بالذات ـــ وهو ما يعنينا ـــ على قلوبهم كوقعه على قلوب الشعراء من المسلمين وغير المسلمين؟

(أ) ليلة القدر عند بعض شعراء العربية:

مثلما رصد بعض الشعراء الروس ليلة القدر وتحاوروا معها، لم يكن غريبًا إذن أن تلامس أنوارها وأحداثها جمهرة من الشعراء العرب الذين يدينون بدين الإسلام، ويرصدونها من عدة رؤى تعكس مدى تفاعلهم بها، وقد اخترت هذه الأبيات التي تمثل بلدان عدة، وأجيال عدة، فمن العراق الشاعر بدر شاكر السياب، ومن فلسطين الشاعر يوسف العظم، ومن مصر الشاعر عبد المجيد فرغلي وَتأتي قصيدته أطول القصائد؛ إذ بلغ َعَدَد أَبْيَاتُهَا (109) بَيْتا شَعْرِيّا اخترنا مِنْهَا بِعضها، وله قصيدتان في ليلة القدر أيضًا ضمن الجزء الثاني من الأعمال الكاملة له، ثم نختم بأحدث من كتب في هذه الليلة المباركة من السعودية الشاعرة ينابيع السبيعي.

ليلة القدر ــ بدر شاكر السياب[12].

يَا لَيْلَةً تَفْضُلُ الأَعْوَامَ وَالحِقَبَا هَيَّجْتِ لِلقَلْبِ ذِكْرَى فَاغْتَدَى لَهَبَا
وَكَيْفَ لا يَغْتَدِي نَارًا تُطِيحُ بِهِ قَلْبٌ يَرَى هَرَمَ الإِسْلامِ مُنْقَلِبَا
يَا لَيْلَةَ القَدْرِ يَا ظِلاً نَلُوذُ بِهِ إِنْ مَسَّنَا جَاحِمُ الرَّمْضَاءِ مُلْتَهِبَا
ذِكْرَاكِ فِي كُلِّ عَامٍ صَيْحَةٌ عَبَرَتْ مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ تَدْعُو الفِتْيَةَ العُرُبَا
يَا لَيْلَةَ القَدْرِ يَا نُورًا أَضَاءَ لَنَا قَاعَ السَّمَاءِ فَأَبْصَرْنَا مَدًى عَجَبَا
تَنَزَّلُ الرُّوحُ رَفَّافًا بِأَجْنِحَةٍ بِيضٍ عَلَى الكَوْنِ أَرْخَاهُنَّ أَوْ سَحَبَا
عَطْفُ الأُمُومَةِ فِي عَيْنَيْهِ مُتَّقِدٌ وَإِنْ يَكُنْ لِلتُّقَاةِ المُحْسِنِينَ أَبَا
وَلِلمَلائِكِ تَسْبِيحٌ وَزَغْرَدَةٌ تَكَادُ رَنَّاتُهَا أَنْ تُذْهِلَ الشُّهُبَا

ليلة القدر ــ يوسف العظم[13].

هجر الأصنام وفارقها لم يعبـــد إلا مـــــولاه
وأتى جبريل يخبره أن الرحمن سيرعاه
النولا تلألأ في الصحرا ومحمد يهتف ما أقرا
وإذا جبريل يبشره في غار حراء بالبشرى

في ليلة آيات القـــدر وسلام الله إلى الفجر
نزل القرآن على أحمد في أعظم أيام العمر
اقرأ والله هو الأكرم خلق الإنسان من العلق
ومضى جبريل يودعه وتوارى في جوف الأفق

ليلة القدر ـــ عبدالمجيد فرغلي[14].

يَا لَيْلَة أَلْف شَهْر أَنْت دِرَّتَهَا،،، وَأَنْت خَيْرٌ وَفِيْك الْعَفْو مُنْتَظِر
فِيْك الْتَّجَلِّي عَلَي خَلَق رَحْمَتِه،، وَفِيْك يُرْجَي الْهُدْى وَالذَّنْب يُغْتَفَر
أَلَم يَقُل فِيْك رَبِي فِي مَنْزِلَه ، مِن أَلْف شَهْر سَمَت مِن فَضْلِهَا ذِكْر؟
تَنَزَّل الْمَلِك الْرُّوْح الْامِيْن بِهَا،، .، وُحَفَّهَا الْامْن لَم يَحْلُل بِهَا كَدَر
قَد فَاض تَنْزِيَلْه فِي لَيْلَة عَظُمَت، قَدْرا وَفِيْهَا تُوَارِى الْخَوْف وَالضَّجَر
فِيْهَا مَلَائِكَة وَالْرُّوْح قَد نَزَلْت،،، بِالْأَذَن مِن رَبِّهَا بالْخَيْر تَأْتَمِر
لِمَطْلَع قَد سَاد الْسَّلام بِهَا،،، .، فَلَم يُخَالِط سَنَّا إِشْرَاقِهَا كَدَر

ليلة القدرـــ ينابيع السبيعي[15].

يا ليلة خطها الرحمن ميثاقًا جلت عن الوصف تنزيلا وآفاقا
فيها القلوب على جنح الهدى سمقت آمالها كنجوم الكون إشراقا
عن ألف شهر حباها الله منزلة ترنو إليها قلوب الخلق إطراقا
بالوحي طافت نفوس قض مرقدها شوك الذنوب فجاء الروح ترياقا
شقت عصا النور ديجور النفوس هدى فاستقبلتها عيون السعد أشواقا

(ب) لحظية وتاريخية حراء على الشعراء:

(1) لحظية حراء في الشعر:

أما رصد اللحظة الفارقة في تاريخ العالم وتصويرها في أبيات، فلم يفلتها أساطين الشعر العربي وشبابه على مختلف العصور من مسلمين وغير مسلمين المقيم منهم أو الساكن في بلاد المهجر؛ إذ تناولوها كلٍ من زاويته ورؤيته لها، فمنهم من صب اهتمامه على اللحظة ذاتها وتجريدها مما حولها من أحداث:
ولعل من أقدم النصوص الشعرية التي تناولت بالذكر غار حراء قصيدة شاعر الإسلام الصحابي المجاهد كعب بن مالك [16] في رده على هبيرة بن أبي وهب يوم أحد، حين قال:

وفينا رسولُ الله نتبعُ أمرَهُ إذا قالَ فينا القولَ لا نتطلَّعُ
تَدَلَّى عليهِ الرُّوحُ من عندِ ربِّهِ ينزِّلُ من جوِّ السَّمَاءِ ويرفَعُ

لغار حراء مع الشاعر محمود حسن إسماعيل [17] لقاءات عدة عبر بعض قصائده التي دومًا ما يحلو له استدعاؤه وبثه في ثناياها، مثل قصيدته: "النور الأعظم" التي كتبها وهو يهم بالعمرة فكانت من روحه نجوى للنور الأعظم صلى الله عليه وسلم، وأيضًا مثل قصيدته: "سجدة في طريق النور" التي تحكي أول خطوة خارج الغار لنبي الإنسانية صلى الله عليه وسلم إلى العالم بعد لقائه العاطر المزلزل في آن مع جبريل عليه السلام، والتي يقول فيها:

كل حصاةٍ في الطريقِ أومأت تنتظرُ وكل ذرات الأثير أقبلت تكبّرُ
والريح من كل اتجاهٍ أيقظت ربابها وأسبلت على جبين أفقها أهدابها
واسترسلت تعزف للسكون من صلاتها وتستعيد شجوها همسًا على لهاتها
وتسمع الجبال من تسبيحها أنغاما لم تدرِ كيف انحدرت من قلبها إلهاما
والفجر من مزاره النعسان في وجه الوثنْ ردَّ خُطاهُ لخُطا جديدةٍ على الزمنْ
جاءت تهز مطرقًا أمام ربٍّ مطرقِ كلاهما وهمٌ لوهمٍ جاهلٍ ملفقِ
جاءتْ تردُّ الظلمَ مدحورًا إلى طاغوتهِ ندامةً مذعورةً تصُرخ في تابوتهِ

جاءتْ تَوُّج نارُها تأَوُّهَ المضطهدِ وتُضرمُ الإباءَ في جبينهِ المستعبدِ
جاءت ونورُ اللهِ يحدو الخطوَ في طريقها والكون يستاف عبير الصحوِ من شروقها
والبيد ليلٌ ضارعٌ في القيدِ حول الصنمِ والناس أوهامٌ تدور في ضلالها الملثَّمِ
في خيمةٍ خيَّمَ فيها الرقُّ منذُ الأزلِ وغمغمَ الإنسانُ حولَ قيدِه المكبّلِ
جاءت إليهِ تنزعُ الهوانَ من جبينهِ وتحصدُ الإطراقَ والذّلةَ من جفونهِ
جاءت من الغارِ من النور خُطا محمدِ طُوبى لمن خفَّ إليها بالضياءِ يَهتدي

يركز الشاعر عمر أبو ريشة [18] في أبياتٍ من قصيدته "ملحمة النبي" على حدث اللقاء بين أمين السماء وأمين الأرض عليهما السلام، ويجعل آخر بيتين من القصيدة نتيجة هذا اللقاء، فيقول:

وأتــى طـوده الـموشح بالنور وأغــفي فــي ظـل غار حراء
وبــجفنيه مــن جـلال أمــانيه طـيــوف عــلــوية الإســراء
وإذا هــاتف يــصيح بــه اقرأ فــيــدوي الــوجود بــالأصداء
وإذا فــي خــشوعه ذلك الأمي يــتــلــو رســالــة الإيــحــاء
وإذا الأرض والــسـماء شــفاه تــتــغنى بــسـيد الأنــبـياء

ثم يستعيد الشاعر عمر أبو ريشة في الرحاب الطاهرة ذكريات وفادة النبي عليه الصلاة والسلام. ويثيره كثيرًا "غارُ حراء" الذي رأى فيه الشاعر ملتقى الشوق بين أحمد والوحي، بين الأرض والسماء، بين الإنسان الكامل واللّه سبحانه. ويجيل عين البصيرة في قول الملاك للمرسل: "اقرأْ"، فيتراءى للشاعر أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قد استطلع على رجع هذه الآية غيوب الأزل والأبد، ما لم يقيّض لمخلوق قبله. وإثر هذا أضاء مشعل النبوة ليالي الإنسانية الدامسة:

أنا في مكة وغار حراء كوكب في جبينها متلالي
صِلةُ الشّوقِ بين أحمد والوحـ ـي أي المهيمن المتعالي
همسة في سماعِ أحمد قرّت وهو ذاك الأمّي ذاك المثالي
هبّ مستطلعا على رجعها البِكـ ـرِ غُيوبَ الآبادِ والآزالِ
فإذا مشعل النبوة مابيـ ـن يديه ينير دُهمَ الليالي
وإذا ذكره على شفة الحقّ ابتسامُ الآمال للآمال
وتراءى إليّ غارُ حراء وهو منّي ذاك القصيُّ الدّاني
مشرق من جبين طود أشمّ مطمئن في هدأةِ وأمانِ
يسهر الوحيّ في حماه على آ لاءِ نُعمى يتيمة في الزمان
والنبيُّ الأميُّ يقرأ باسم اللّـ ـهِ فيه من محكمِ القرآنِ

ويظلّ الشاعر شديد التعلّق بـ "غار حراء" الذي مثّل له رمزًا لصلة السماء بالأرض ومنطلقًا للشّرعة الجديدة التي مهدت السبيل لأكبر دولة عرفها التاريخ الإنساني. فغار حراء في حقيقة الأمر ذلك الموضع المقدّس الذي طالما انقطع فيه النبي عليه الصلاة والسلام عن دنيا الخلق، ليتلقى أمر رب الخلق. ويظلّ الحقد القرشي الذي استقبلت به الدعوة ماثلاً في ذهن الشاعر كلّما ذكر شأنًا من شؤون "النبوة" والدعوة في مكة المكرمة.

يأمر الشاعر بشير يموت [19] في قصيدته "في غار حراء" الزائر للغار أن يعظم زائره ويطأطئ الرأس اكبارًا لعامره، ثم يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بما يليق وما هو أهلٌ له، ممهدًا لأن يباغتنا بأن نوره صلى الله عليه وسلم انتقل معه إلى الغار، فيقول:

انظر إليه تزين الغار طلعته وترسل الأنس في جافي بشائره
وتبعث النور في أقصى جوانبه مع النسيم يغني في بشائره

ثم يصف حال الغار الذي قابل زائره والملائك والحور صفوفًا في انتظاره بالاختيال والزهو، فيقول:

والغار يختال معتزًا بنازله كقائدٍ يتهادى في عساكره
وكيف لا يتعالى والمقيم به محمدٍ خير هادٍ في مآثره
يقضي الليالي والأيام معتكفًا مستغرقًا في الرؤى مُغضٍ نواظره
يلذه الفكر والنجوى لخالقه كما يلذ محب عطف هاجره
عبادة الروح في أسمى مراتبها من هاجدٍ في ظلال الليل ساهره
هذا التحنث في أبهى صفائه هذا التعبد في أصفي عناصره

ينقلنا الشاعر بشير يموت داخل الغار لنرى حال الرسول صلى الله عليه وسلم مختليًا بربه يبثه شكواه وحال قومه وعبادتهم للأصنام وإعراضهم عن الخالق الواحد الحق، ثم ينقل نجوى الرسول صلى الله عليه وسلم ودعواته لربه أن يهديه الصراط السوي القويم، فيتقبل الله تعالى منه صدق رجائه فيه، ويهديه إلى الحق:

وكان الله فيه ما أراد لـــــــه وجاءه الوحي رمزًا في بواكره
فظل يرعد من خوفٍ فطمأنه جبريل والله قوى من أواصره
ثم اجتبـــاه رسولًا ملهمًا لَسِّنًا يعلو بقرآنه أعلى منابـــــره

يخاطب الشاعر "حراء" متعجبًا منه:

حراءُ مالك لم تجزع عليه أســـىً ألم تكن بحفيظ العهد ذاكره.
ألا يروعك بعد الحب عن سكنٍ حنا عليه كغصنٍ نحو طائـــره.

لعلها من القصائد القليلة إن لم تكن النادرة أو إن شئت الدقة التي لم أقابلها الذي يجري فيه الشاعر حوارية مع الغار ويستنطقه تعجبًا واستفزازًا حتى أجابه حراء:

فقال: حسبي حظًا أن أكون له جسرًا إلى الفوز أو إحدى قناطره

أما الشاعر عبد المعطي الدالاتي[20] فيناجي تلك اللحظة السماوية الأرضية التي عانقت فضاء حراء في قصيدته "نجوى إلى ضيف حراء"، فيقول:

أي شوقٍ للسماءِ في ابتهالات حراءِ
أي شكوى أي نجوى أي خوفٍ و رجاءِ
أي عطـــــرٍ نبـــــويٍ عمَّ أرجـاءَ الفضاءِ
أي دمعٍ راح يرنو نحو أبواب السماءِ
أي نورٍ لاح يمحو كلَّ جهل الجُهلاءِ
أي حبٍ أحمديّ مَجَّ عطراً في دمائي
أنت أنسامُ صباحي أنت أحلامُ مسائي

يصف إمام الدعاة الشيخ محمد متولي الشعراوي في قصيدته "الإسراء والمعراج" اللحظة الأولى في لقاء رسول السماء برسول الأرض، فيقول:

جبريل روح الله وحي رسوله أدلي له في الغار بالأنباء
ضم النبي إليه ضمة وامـــــــق قال اقرأن يا سيد القراء
قد أحجم الهادي فقال مكررا باسم الإله اقرأ وعم برضاء
قد قال رعبًا زملوني دثـــــروا وأتي ابن نوفل مؤذنا برجاء
بشري فهذا المرتجى في كتبنا ورسولنـــــا في آخر الآناء

يخاطب الشاعر محمود غنيم [21] الرسول صلى عليه وسلم مناديًا ومنبهًا:

أيها الناسك في غار حـــــــــــــراء أرهف السمع رويدًا للنداء

هاتفٌ من عند رب العرش جاء بالصوتِ من وراءِ السحبِ

هتف اقرأ باسم رب العالمين

في قصيدته "حراء" يرى الشاعر محمد محمود الزبيري [22] أن لجوء الرسول صلى الله عليه وسلم للعزلة في غار حراء هو الاختيار الطبيعي والأمثل له، ذلك بعد أن عدَّد الزبيري معطيات الحياة والبيئة من حوله صلى الله عليه وسلم، فيقول:

ليس إلا الفرار بالخلق الطاهر والاعتصام والاحتماء
ليس إلا الولوه في رحمة الله وإلا الملاذ والالتجاء
ليس إلا السماء للملك الإنسان تؤوي فؤاده أو حراء
وانتحى المصطفي إلى الجبل الصامت حيث القدسية الشماء
حيث لا شاغل هناك عن الله ولا ضجة ولا ضوضاء
حيث يطوى في ذلك الصمت ما في الكون إلا الحقيقة العلياء
حيث لا نبأةٌ سوى همس جبريل . ولا منبئ ولا أنباء
وهب الله ظلمة الغار نورًا منه تمحى في ضوئه الأضواء
لم تدق مثله الشموس ولم تحلم بلألائه النجوم الوضاء
جمع الله فيه روح السموات فأجرامهن منها خلاء
وارتوى الغار منه والعرش والكرسي والكعبة الحرام ظماء
جبل في مجاهل البيد قزم ليس تدري بظلة البيداء
رفعت رأسه على كل طود عزة عبقرية قعساء
فحوى ما حوت جوانح جبريل وما أكرمت به سيناء
فجر الله في حراء ينابيع الهدى وهو صخرة صماء
فكأن الغار البليغ فم الأقدار منه الإفضاء والإيحاء
وكأن النبي فيه لسان الكون يحكي عن روحه ما تشاء

وكأنما رأى الزبيري أن قصيدته "حراء" لا تكفي لأن تبرز كل المعاني والعناء والصعوبات التي لاقاها وعايشها الرسول صلى الله عليه وسلم، فأردفها بقصيدته "إشراق النبوة" نقلنا فيها مباشرة إلى دخول النبي صلى الله عليه وسلم الغار وحيدًا، وإذا كان في قصيدته الأولى جعل الشاعر الغار نتيجة، فهنا يجعله سببًا ونتيجة معًا، فيقول:

وانطوى المصطفي وحيدًا فقد قصر عنه الخلان والندماء
وهو نجم ما أنجبت مثله الأرض ولا آدم ولا حواء
وتسامت به الخلافة لله فهانت في عزمه الأقوياء
الثرى كله له والمحيطات به والرياح والأجواء
وبنو آدم بنوه سواء فيهم الأولياء والأعداء
نبضت في طموحه قوة الله فخف الثرى وهان الفضاء
وتدانى البعيد وانفرج الهم وذلت عقابه الكأداء
وانبرى ضارعًا إلى الله يرجو أن يتم المنى به والرجاء
عاكفاً في حراء لا العيش يصيبه ولا صحبه ولا العشراء
ملأ الله قلبه فالورى لغوٌ سراب والعالمون هباء
فإذا جبرائيل يبدو كما تبدو الأماني ويستجاب الدعاء
حاملاً ما تنوء عن حمله شمس الضحى والكواكب الزهراء
كلمات الإله، فيها من الله بقاء وقوة ومضاء
وبآياتها النظام الذي قامت به الأرض واستنارت ذكاء
وبها روح الخلق يصنع فيها كل مجد ويخلق العظماء
تلمس القبر لمسة فإذا الميت حي تصبو له الأحياء
هي بعث الأرواح من قبل يوم البعث وهي الحياة والأحياء
لو وعاها حراء لاندك أو ذاب وذابت من حوله الصحراء
ليس إلا فؤاد أحمد يؤويها ، وإلا الملائك الأصفياء
غطه جبرائيل فارتاع لما ظن أن الذي به إغماء
إنها صدمة يربي بها قلب نبي ومحنة وابتلاء
شرف لا تناله لذة عميا ولا راحة ولا نعماء
ليست الملك تستعار الأكاذيب له والطبول والأسماء
ليست العرس تستجاد الأزاهير له والشموع والندماء
إنها محنة الورى وقضايا الكون والمعضلات والأعباء
حملتها ضلوع جبريل ساعات فناءت ومسها الإعياء
واحتواها قلب النبي فما ضج ولا نال من قواه العناء

يؤكد أمير الشعراء أحمد شوقي في نهج البردة أن معرفة سر النبوة مستحيل، ولا أحد يدري إلا إذا استطاع أن يسأل جدران حراء فهي التي عاينت سر النبوة وهي التي تحفظه أو أن يسأل أمين الوحي جبريل عليه السلام فهو الذي أمر بإبلاغ هذه النبوة، فيقول:

سائِل حِراءَ وَروحَ القُدسِ هَل عَلِما مَصونَ سِرٍّ عَنِ الإدراكِ مُنكَتِمِ

كَم جَيئَةٍ وَذَهابٍ شُرِّفَتْ بِهِما بَطحاءُ مَكَّةَ في الإصباحِ وَالغَسَمِ

وَوَحشَةٍ لِابنِ عَبدِ اللَهِ بينَهُما أَشهى مِنَ الأُنسِ بِالأَحسابِ وَالحَشَمِ

يُسامِرُ الوَحيَ فيها قَبلَ مَهبِطِهِ وَمَن يُبَشِّر بِسيمى الخَيرِ يَتَّسِمِ

ويقول أيضًا:

ونودي "اقرا" تعالى الله قائلها لم تتصل قبل من قيلت له بفم

هناك أذَّنَ للرحمن فامتلأت أسمـــــاعُ مكة من قدسية النغم

يصف الشاعر محمود السيد الدغيم[23] مقدمات اللحظة الفارقة ونتائجها في قصيدته "حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم":

فِيْ ذَلِكَ الْعَهْدِ الْجَهُوْلِ تَنَزَّلَتْ سُوَرٌ بِهَا لِلْعَالَمِيْنَ سَلَامْ
نَزَلَتْ وَبَلَّغَهَا الْحَبِيْبُ وَلَمْ تَزَلْ تُتْلَىْ، وَتَكْتُبُ نَصَّهَا الأَقْلَامْ
جَاءَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ بِرِسَالَةٍ قُدْسِيَّةٍ فَالْعَالَمُوْنَ قِيَامْ

الشاعر عباس الجنابي[24] في قصيدته"إمام التوحيد"

شرَحَ اللهُ صدرهُ بحِـــــراءٍ فاستطالتْ على الجبال حِـــــراءُ

ليسَ غارًا وإنما بيتُ نـورٍ غمَرَتْـــهُ الآياتُ والنُعمـاءُ

دار ناشري للنشر الإلكتروني

حيثُ جاء الأمينُ يحملُ أمـراً هُوَ للناس أجمعيـنَ ثـــــراءُ
قال (اقرأ) فضجّ في الغارِ صوتٌ حَمَلتْهُ إلى الدُنى الأصداءُ
منْ سناها مراتِبُ المجدِ لاحـــتْ تتسامى وما لها أكفـاءُ

يقف الشاعر أنمار محاسنة[25] بين التاريخ وشمس حراء التي يتباهى بها عليه ويتيه بعلويتها ونورانيتها على ذلك التاريخ الضعيف، المكبل الأعضاء، وينهي القصيدة بإعلانه:

يـكـفي البـريـّـةُ من ضيائـكَ جَـذوةً تمـشـي بها في اللـُّـجـّـة العـــمـيـاء
يـكـفي البـريـّـةُ أن يـكـون بأفـقِـهِـم شمساً تُـحَـرّرهم، كشمس حِراء

يتوقف الشاعر الدمشقي أنور سعيد العطار، عند غار حراء حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يخلو إلى ربه، بعيدًا عن شرور الحياة ولوثاتها، فإذا بالغار منضج نبوة، ومبعث وحي، ومنطلق نور، ويختال بمكانه على النجم سموًا وإشراقًا، فيقول:

لذتَ بالغار تتقي شرّة النا س وتنسى العدوان من كل ناقمْ
وتناجي ربّ السموات لهفا ن و تعنـــو لحافظ لك عاصم
وحراء بك استطال على النجم وتاهت به الصخور الجواثمْ
يشتهي الخلدُ لو تغلغل فيه حلـماً فاتن المسـرات ناعمْ
ضمّ في ساحتيه نوراً من الله أضـاءت به الليالي القواتمْ

لا بستطيع أن يبتعد الشاعر بديع المعلم [26] عن غار حراء فقد كان الوعاء والمحضن التربوي للرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول:

ولد النبي (محمد) فضـــياؤه ملأ الدنى أنى اتجهت وأينما .
وبدا (حراء) بالمهابة شامخاً يومي بأن الحكم أصبح للسما .
فالروح يصدح بالمثاني مفصحاً أفدي بروحي البلبل المترنما

عفواً حراء فكم تؤرق مقلتي لم يهجع الحادي، ولا سئم الظما

لم ينفرد الشاعر المسلم بتلك اللحظة؛ إذ لم يكن الشاعر المسيحي المقيم بأرض الوطن أو الذي يعيش في بلدان المهجر ببعيد عن تناول تلك اللحظة، ومنهم الشاعر السوري جورج صيدح، ومن قصيدته "صحراء يثرب" نختار أبيات يقول فيها:

شرفاً حراء الغار، هل كحراء في الدنيا مكان؟
أخذ الشهادةَ من شفاه المصطفي أخذَ البنان
في صدره ضمَّ النجيَّ وصان معجزةَ الزمان

ويقول الشاعر إيليا أبو ماضي في قصيدته "بين قلم وورقة":

يا نـداءً دوى بغـــار حراء وهــي الأرض لــجة الظلمات
و سمــاءً تشكي جهالة قوم لم يـروا لطفــها بعين الهداة
وترى أحرفا على الأفق تهــتز في جمال يفوق حكم الصفات
همــزة الوصــل باتصال هداها وبقـــاف اقــترانا بالحــياة
وترى الراء رافــلاً في نعيــم من جنان العــلوم والخــيرات
همزة القطع شاهد العــز عدل شمس اقرأ شعت على الكائنات
أحرف من ضيائها نحن كنــا خير قــوم ندعو لدرب النجاة

(2) تاريخية حراء في الشعر العربي:

يأخذنا شاعر الملاحم يوسف عبيد[27] في قصيدته "قبسٌ من حراء" من بداية الرحلة العلوية من غار حراء ثم ننزل معه لنعيش أصداء ذلك الحدث في البيت النبوي، ومرافقة السيدة خديجة له حيث الحبر الجليل ورقة بن نوفل، فيقول:

وصـــحـا الـــدهـر عـلـى بـارقـــة وطـــوى الـمـخـتـار عـقـد الأربـعـيـن
فـــي حـرّاء زاره جـبـريـل يـــــا أحـمـــد اقـرأ جـاءك الـوحـي الـمـبين
اقـــرأ الـقـــرآن بـــاســـم الـلـــه لا تـخـشـــى شـيـئـاً إنّـه الـحـق الـيـقـيـن
أنـت مـبـــعـوث بـــآيـــات الـهدى وإمـــــــام خـــاتـــم

لـــلـــمـرســلـــيـــــن
هـــــزت الـمـخـتـار من أعماقـه هـزةً لـو مـسّـــت الـصـــخـر يـلـيـــن
فـأتـــى الـبـيـت وفـــي خـافـقـــه رعـشـــة تـسـري وفـي الـسـمـع رنين
زمِّـلـونـــي زمِّـلـونـــي عـلّـنـــي أجـد الأمـــن بـــدفءٍ أو سـكـــون
أفـــرغ الـروع فـقـالت زوجـــه لا تـخـف إنّـك خـيـر الـمـحـسـنـيـن
تـحـمـل الـكـلّ وتـرعـى رحـمًا وعـلـى الـحـقّ تـرى خـيـر مـعـيـن
قـم بـنـا نـلـقـى ابـن عـمّـي إنّه عـنـده عـلـم بـمـاضـي الأقـدمـيـن
هـجـر الشـرك إلى الإنـجيل إذ كـان مـن بـيـن الـهـداة الـمـهـتـديـن
ضـمّـت الـشـيـخ مـلياً لا تخف أنـت فـي ركـنٍ مـن الـحـقّ ركـيـن
إنّـه الـنـامـوس قـد جـاء بـه مـلـك يـحـمـل فـيـه خـيـر ديـن
إنّـه الـقـرآن مـصـباح الهدى إنّـه تـنـزيـل ربِّ الـعـالـمـيـن
إنّـه قـول رسـول صـادقٍ وقـويٌ عـنـد ذي الـعـرش مـكـيـن

يتصور شاعر طيبة الشيخ ضياء الدين الصابوني [28]، أنه كان شاهدًا ومعاصرًا لتحنث النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، فأوقف قصيدته "في الغار" سالكًا نفس مسلك يوسف عبيد في رصد علوية اللحظة في مفتتحها ثم يختمها أرضية متوقفًا عند نبرات وكلمات السيدة خديجة رضي الله عنها الحانية الرؤوم، بيد أنه اختلف في كونه ضم نفسه للمشهد حاكيًا وناقلًا له من داخله لقارئه وليس مجرد واصف أو ناقل من خارجه، فيقول:

إني لأذكر كيف كان محمد يقضي الليالي ناعم الوجدان
في الغار ينعم سابحا ومناجيا متفكرا في روعة الأكوان
يتأمل الكون البديع نظامه والليل ساج مفعم الأشجان
قد فر من رجس الطغاة وجورهم والقوم قد عكفوا على الأوثان
يقضي الليالي وحده متحنثا في الغار يستوحي هدي الديان
وتنزل الوحي العظيم بيانه متدفقا في قلبه الظمآن
(اقرأ) كتاب الله لست بقارئ (اقرأ) بربك خالق الإنسان
(اقرأ) وتلك مكانة لم يعطها غير النبي المصطفي العدناني
فمضى يخف إلى خديجة زوجه مترقبا في حيرة الوجلان
فإذا به يجد السعادة والرضا وتقر من تطمينها العينان
تالله لا يخزيك يا علم التقى يا واصل الأرحام والجيران
يا مسعف الفقراء في آلامها يا مكرم الأيتام والضيفان
يا ماسح العبرات من آماقه ومخفف الآلام والأشجان
فكأنما كلماتها في لينها شهد، وفي التأثير سحر بيان

بطريقة الفلاش باك أي الاستحضار أو الاسترجاع الذي يعني انقطاع التسلسل الزمني أو المكاني للقصة لاستحضار أو جلب مشهد ماضٍ، يبدأ القاضي والفقيه، والشاعر الأديب يوسف النبهاني[29] قصيدته: "الطيبة الغراء في مدح سيد الأنبياء" التي بلغ عدد أبياتها 999 بيتًا بوفاة السيدة خديجة رضي الله عنها، ثم يمارس تقنية الاستدعاء الذهني مستحضرًا وقائع حياتها الأخيرة في حياة زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول:

ثمَّ ماتَت خَديجةٌ فأتاهُ أيُّ رُزءٍ جلَّت به الأرزاءُ
كَم رَأت سيّد الورى في عناءٍ، وَبِها زالَ عنه ذاك العناءُ
كُلَّما جاءَها بعبءٍ ثقيلٍ هوّنتهُ فخفّت الأعباءُ
ما أتاهُ مِن قومهِ السخطُ إلا كانَ مِنها لقلبه إرضاءُ
كلُّ أَوصافِها البديعة جلّت عَن شبيهٍ وكلّها حسناءُ

فهيَ هارونهُ بِها اللَّه شدّ ال أزرَ منه وما بها إزراءُ
وَهيَ كانت وزيرهُ الناصحَ الصا ئبَ رَأياً وهكذا الوزراءُ
وازَرته على النبوّة لمّا جاءَهُ الوحي كان منها الوحاءُ
إذ أَتاه الأمينُ جبريلُ في غا ر حراءٍ فزاد فخراً حراءُ
غطّهُ مرّةً وأُخرى وأُخرى قائل اِقرأ ولم يكن إقراءُ
فَابتدا وحيهُ بسورةِ اقرأ ثمّ فاضَ القرآنُ والقرّاءُ
فَانثنى ترجفُ البوادرَ منه لِخديجٍ وحبّذا الانثناءُ
فَرَأته فاِستَفهمته فلمّا علمَت أمرهُ أتاها الهناءُ
عَلِمت أنّه النبيّ الّذي في الن ناسِ عنهُ قد شاعت الأنباءُ
آمَنت أسلَمَت أعانَت وقد زا دَ لَديها في شأنه الاعتناءُ
خصّها اللَّه بِالسلامِ وجِبري لُ المؤدّي ونعم هذا الأداءُ
كلُّ أولادِ صلبهِ غيرَ إبرا هيم منها وما لها ضرّاءُ
رضيَ اللَّه والنبيُّ وهذا الد دين عنها فليسَ يكفي الثناءُ

تسلك مسلك السابقين عليها الشاعرة ندى الرفاعي [30] فتتناول حدث الغار من نفس الزوايا ولكنها تبسطها في قصيدتين يضمهما ديوانها "زهرة المصطفي"، فتركز على حدث الغار كمقدمة علوية ثم تنقلنا سريعًا للبيت النبوي مع خديجة في قصيدة "مولدِ الهادي مُحمد":

حِراءُ حوَاكَ والوحيُ المُرَجّى فأُودعَ في الدُنا دينٌ جديدُ
خديجةُ نسمةُ الأطيابِ زوجٌ كأنّ حنانَها الغُصنُ النضيدُ
تدثّرُ بالغِطاءِ الروعَ حتّى تثبّتُ ما أتاكَ به المُعيدُ

ثم تتناول حدث الغار من زاوية اللقاء بالسيدة خديجة رضي الله عنها، وكأنما وقفت تخاطبها بكلمٍ ودود، في قصيدتها " سيدتُنا خديجةُ الكبرى"، فتقول لها:

أنتِ الودودُ التي كلماتُها سكنٌ لَمّا دعاهُ نداءُ الوحي يَختتمُ
لن يُخزيَ اللهُ عبداً بات معتكفا لن يتركَ الربُّ مَن تُسدى به الرَحِمُ

دثّرتِهِ بِدِثارِ الحُبِّ حانيةً زملتِه حينما اشتدت به الغُمَمُ

يستعرض الشاعر إبراهيم عبدالله إبراهيم العلي [31] أحوال مكة حين يدعو صاحبه لئن يرتقيا جبل النور عسى أن تعانق أقدامهم قدميّ الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يستعرض لحظة الغار التاريخية إلى نهايتها حتى بيت خديجة رضي الله عنها، ومواساتها الحنون للمزمل عليه الصلاة والسلام، فيقول:

(يتيم مكةَ) ناداهُ الإله ولَم يتبَعْ هواه فإن العبدَ مأمورُ
صارَ التحنُّثُ من كُبرى مآثرِهِ وما التحنثُ؟ تفكيرٌ وتطهيرُ
حتى إذا شاءَ رب الكونِ أرسلَهُ فهذا (جبريلُ) للتلقينِ مَنذورُ
ناداهُ: اقرأْ، وما أقرأ؟ أجاب ولم يزِدْ، فقالَ: اقرأْ، إنه (النورُ)
وضمهُ بنشاطٍ لا مثيل لهُ فضلعُ (طهَ) بفعل الضمِّ معصورُ
وزف (جبريلُ) في حبٍّ بشارتَهُ و(المصطفي) من جليل الخَطبِ مبهورُ
مضى إلى أهلهِ، الحمَّى تلازمهُ كأنه من شديدِ البرد مقرورُ
قالت (خديجةُ): لا تجزع فأنتَ فتًى بكل مكرمةٍ في الناس مشهورُ
أبشِر فأنت رسولُ اللهِ لا كذبٌ مالي وروحي لدينِ الله مقدورُ

ـــــ حراء، في شعر أهل الحجاز:

الحجاز هو المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية المعاصرة؛ مدنه الرئيسية جدة، ومكة المكرمة والمدينة المنورة، الطائف وينبع. والسؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن لماذا فصلت شعراء العرب عن شعراء أهل الحجاز. وهو سؤال وجيه ولا شك، وتكمن الإجابة في أن لساكنيها من بنيها الشعراء بخاصة خصوصيةً في الرؤى التي تقدمها شعريةُ نصوصهم، التي تستلهم شاعرية المكان المقدس. غير أنه داخل منظومة هذه الخصوصية ؛ يمكن أن تتباين الرؤى، ودرجات الرقي بالنص الشعري والكلمة الشاعرة، من شاعر إلى آخر.

وإذا كانت مكة مثلًا مهوى أفئدة المسلمين قاطبةً قد ألهبت خيال الشعراء والكتَّاب في العالم كشفًا عن تجلياتها وعبقريتها مكانًا، فما بالنا بشعراء الجزيرة الذين تفيأوا ظلالها وطنًا أصغر وأكبر وصلات رحمى. وعن مكة المكرمة في رؤى المبدعين بوصفها مكانًا له طبيعة خاصة يقول الدكتور منصور الحازمي: (أمَّا مكة المكرمة فلا تعني هنا سوى المكان الذي يجمع إلى قدسيته البيئة والموقع والسكان باعتبارها مهادًا طبيعيًا للفكر والأدب)، ولعلّ في مكَّة البيئة والموقع والسُّكان باعتبار هذه الثلاثة إلى جانب قداستها مهاداً طبيعياً للفكر والأدب في رؤى المبدعين ؛ ما مثَّل رؤية ناضجة ومتكاملة عند كثير من شعراء الحجاز فالشاعر عندما يذكر المكان نشعر أنه يولد شعورًا وإحساسًا لهذا المكان ويضفي عليه خاصية الحيوية والحركة، إنَّ تجليات مكة مكاناً ومكانة عبقرية في شعر الشاعر المكي حيث تتخذ من المكان المقدّس هويّة حقيقية من حيث الانتماء بشتى مناحيه البيئّية والموقعيّة بل والشخوص الذين يعيشون فيه أهلاً وأصدقاء . إنّ عبقرية المكان تتجلى في كل ما يجمعه المكان قداسةً يكتسبها كل ما ومن يعيشون فيه .[32]

ويمكن أن يتجلى هذا الملمح المهم في حيز عبقرية المكان من خلال قصائد شعراء الحجاز، ولا نستطيع أن نسترسل مع مكة ككل للدلالة على عبقرية المكان، بيد أننا سنقتصر على ما يتصل بغار حراء، ونبدأ بالشاعر حسن عبدالله القرشي [33] في قصيدته "في ظلال الغار" حيث يستجلي عبقرية غار حراء، وصحراء مكة، مكانَين أشرقا بالنبيّ بعثةً للنور، وذلك حين يقول:

هِّللي يا بطـــاحَ مكـةَ حَقَّـتْ دعوةُ الحقِّ من فتاكِ الرشيـــدِ
هزّه الوجدُ حين وافاه (جبـــر يلُ) ببشرى ابتعاثِهِ المشـــهودِ
وزها البشْرُ من خديجـــة ثـــرّاً فرعته فرْحَى بقولٍ مجيـــــدِ
ثم ألوى ميمماً وجهة الغـــــا رِ بتكبيرة الإلـــــه الحميـدِ
هي لحنُ الأجيالِ أنشودة الخيـــ ر ورمـــز الإلهـام والتشـييدِ
أشرقت بالهدى رحابُ الصحاري من سهولٍ مبسوطةٍ ونُجـودِ

استطاع الشاعر حسن القرشي بلغته الوجدانية الراقية أن يخْتَزَل قداسة المكان وتجلياته مرّةً أخرى من سَعَة بطاح مكة بالمفهوم الفيزيقي والميتافزيقي، إلى ضيق الغار الذي اتسع نوراً بقاصده صلى الله عليه وسلم، تحدوه تكبيرةٌ إلهيةٌ، أسبغ عليها الشاعر في تصويره لها لحنًا للأجيال، وأنشودةً للخير، ورمزًا يجمع بين الإلهام المجرد والتشييد المجسَّد، وهو ما جسده في أكثر من قصيدة له، ومنها قصيدته "مكة" حين دخل عليها واصفًا ما فيها من أماكن عانقت فيها الروح الإيمان ومازالت، فيبدأ بالكعبة المشرفة ثم يثَّني بجبل النور ثم إلى الغار، فيقول:

أيا جبل النور كم ذا شهدت من المعجزات وكم ذا ظهر
تحدث ففي الغار شع اليقين وقد تنطق الذكريات الحجر
أيا قمة فوق هام الخلود سمت بسناها الشذي العطر
إذا ما ارتقيت إليك انطوى بحسي الزمان وكل البصر
وخففت وطئي أن يستقر أما سار فيك نبي البشر
وكم تعبد ثبت الجنان يزين محياه أسمى أثر
إلى أن طل على الكائنات كإطلالة الفجر بعد السحر
أطل وفي بردتيه الضياء ونبع من الحق عذب السور

ومن مكة المكرمة ينطلق صوت شعرائها بحبها وتمجيدها لما تحتويه من علامات رائدات في التوحيد، والدين الخاتم الذي شهدت أرضها ميلاد لحظته الوضاءة، غير أننا لن نذكر أبياتهم في مكة بل ما كتبوه حول الغار، وأبدأ بالشاعر ناصر بن مسفر الزهراني [34]، حيث يقول:

من غارها مرت الدنيا بأكملها بلحظة كان منها مولد القيم
بلحظة ما مضى في الكون مذ خلقت أجزاؤه مثلها في الفضل والعظم
(اقرأ) تعطر سمع الكون أحرفها (اقرأ) ومن علم الإنسان بالقلم

أمَّا الشاعر محمد إسماعيل جوهرجي [35] فينسب مكة له ويقرنها بالضياء، فيقول في قصيدته "مَكَّتِي وَشَلاَّلُ الضِّيَاءِ":

مِن أَرضِ مكّة شَعّ النّورُ مُؤْتلقاً وَجْهاً يُجَلِّي عَتَامَ اللّيلِ والسُّدُمِ
هَذا حِراءٌ على مَرْأى يُطالِعُنا نْديلَ ضَوْءٍ يَفيضُ النُّورَ للأُمَمِ
قدْ خصَّهُ اللّه بالتّنزيلِ فَانْقَشَعَتْ سُودُ الغَمَائِمِ في الأَمْصارِ والتُّخُمِ
وجَاءَ جِبْريلُ بِالآيات مُعْجِزةً اقْرَأْ ((مُحمّدُ)) قولَ الحقِّ واستَلِمِ
فَراحَ يَرْكُضُ في خَوفٍ وَمَوجِلَةٍ لما تَغَشَّاهُ مِنْ نُورٍ وَمِنْ عِظَمِ
قالت خَديجةُ هلْ تَخْشَى مُجانَفَةً؟ وَأنْتَ في النّاس تُقري الضَّيفَ من عَدَمِ؟
وَأنْتَ في النّاس أخلاقٌ مُطهَّرةٌ وَصوْتُ عَدْلٍ، وبَيْتٌ فارعُ الشَّمَمِ
جاءتْ لــ وَرْقَةَ تحْكي أَمْرهُ عَجَباً فقالَ، لا ضَيْرَ يا بْنَ السّادةِ الشُّهُمِ
هذا هُو الحقُّ قدْ بانَتْ دلائلُهُ فاسْتَلْهِمِ النُّورَ في رِفْقٍ وفي حَمَمِ
يا ليت أنِّي أعيشُ العُمْرَ أطْوَلَهُ حتى أرى النُّورَ شَفَّافاً على الأُطُمِ
قدْ جاءَ ذِكْرُكَ في التَّوْراةِ مُسْتَبِقاً يحكي بأنّكَ نُورُ الحقِّ في الظُّلَمِ
مِنْ مَهْبِط الوَحي فاضَ النُّورُ مُنْتَشراً يَهْدي الخَلائقَ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ

يقول الشاعر علي أبو العلا [36] في قصيدته "مكة رحاب الوحي":

وجبال النور تروي قصصًا فيه ذكرى خلدّ الدهر رؤاها
حيث ضَاءَ "الغارُ" من نور نبيّ دينه السمح، وكم أحيا دجاها
أشرق التاريخ لما أُنزلت "اقرأ" وازدان باللفظ حلاها
وتوالى سلسلاً قرآنها ينذر الأجيال، للحق دعاها
فهي في ركب الليالي كوكب وهي للأيام صفو في صفاها
وجبال النور تروي قصصًا فيه ذكرى خلّد الدهر رؤاها

يحكي الشاعر صالح سعيد الزهراني [37] في مجموعته الشعرية "تضاريس الجلال" حكاية بطاح مكة، فيقول:

وهنا تدورُ على البطاحِ حكايةٌ منسوجةٌ من أنبلِ الوقَفَاتِ
ويجيءُ (أحمدُ) فالصباح بشارةٌ والكونُ آذانٌ من الإنصاتِ
وعلى(حراءَ) الله ينزلُ هديهُ عذبَ الحروفِ، بأروعِ الآياتِ
وتذوبُ مكةُ في البيانِ ويبتدي من هذه البطحاءِ سِفرُ حياةِ
و (محمدٌ) يبني النفوسَ مهللاً ويضيءُ بدراً في دجى الظلماتِ
و (حراءُ) يفتحُ للكتابِ أكفّهُ ويتمّ هذا الخيرُ في عرفاتِ
سِيرٌ يضنُّ بها الزمان، لأنها نفحاتُ تزكيةٍ، وطهرُ صلاةِ
ما ازدادتِ الدنيا شجىً ومصاعبًا إلا بدا زحفٌ لأهلِ ثباتِ
العدلُ، والكرمُ الجميلُ وهِمّةٌ كسرتْ جيوشَ ممالكٍ وطغاةِ
من أين نفتتحُ الحديثَ عن الندى ومحمدٌ يسمو على الكلماتِ
يبقى أجلَّ من البيانِ وسحرهِ وأجلَّ من شعري ومن أبياتي

مازال الشاعر إبراهيم فطاني [38] يسمع لصوت الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يأتي مدويًا من حراء، فيقول في قصيدته "صوت من حراء":

أيُّ مجدٍ وعزةٍ وجلال أيُّ نورٍ قد شع من ذي التلال؟
أي صوتٍ علا فهزَّ البرايا وتداعت له صروح الضلال؟
من حراء الخلود أعظم بطودٍ يتحدى الحصونَ ذات الظلال
صوت طه يدعو إلى خير دينٍ فسما بالأنام نحو الكمال
ذاكمُ الصوتُ لا زال يدوي يتخطى مسامع الأجيال
سجَّلتْه في محكمٍ من كتابٍ قدرة الله ذي القوى والجلال
لم يزل داعيًا إلى كل خيرٍ وينادي بوحدةٍ واعتدال

يتقمص الشاعر عبد الرحمن العشماوي [39] دور الراوي ويحكي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لغار حراء، فيقول:

طب يا حراء فلليتيم حكاية نسجت ومنك بداية المشوار
أو ما تراه يجيء نحوك عابدا متبتلا للواحد القهار
أو ما ترى في الليل فيض دموعه أو ما ترى نجواه بالأسحار
أسمعت شيئا يا حراء عن الفتى أقرأت عنه دفاتر الأخيار

طب يا حراء فأنت أول بقعة في الأرض سوف تفيض بالأسرار
طب يا حراء فأنت شاطئ مركب ما زال يرسم لوحة الإبحار

ثم يسرد له موقف الكفار من الدعوة إلى الدين الجديد، وبعدها يعود إليه مخاطبًا وراويًا له أحداث لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم بأمين الوحي وكأن "حراء" كان غائبًا عنها، و العشماوي هو الذي عاينها، فيقول:

طب يا حراء فأنت أول ساحة ستلين فيها قسوة الأحجار
سترى توهج لحظة الوحي الذي سيفيض بالتبشير والإنذار
اقرأ، ألم تسمع أمين الوحي إذا نادى الرسول فقال لست بقاري
اقرأ فديتك يا محمد عندما واجهت هذا الأمر باستفسار
وفديت صوتك عندما رددتها آيا من القرآن باسم الباري
وفديت صوتك خائفا متهدجا تدعو خديجة أسرعي بدثاري

يصيح الشاعر إبراهيم أمين فودة [40] فينا عبر قصيدته "قصة النور"، لينبهنا إلى أن "حراء" يتكلم، وعلينا أن نصيخ السمع، وإذا كانت جدران الغار صماء كما في بردة شوقي، وإذا كان "حراء" مستمعًا في قصيدة العشماوي، هنا يتكلم، كما يقول فودة:

اسمعوا. اسمعوا. فهذا حراء يتهادى - مهلِّلاً - يتكلم!!
إن فيه "النبي" يستقبل الوحي و "جبريل" بالهدى يترنّم
وعلى الأرض للسماء لقاء هو للأرض في السموات سُلَّم
غَطَّةٌ ثم غَطَّةٌ يلتقي الروحان فيها، والنور بالنور مُفْعَم
و "حراء" في قمّة الأرض تيّاه علاء - وتحت "أحمد" أسلم

ثم يتولى فودة وصف المشهد بعد أن انطلق النور من حراء إلى الأرض، فيقول:

وسرى النـور سابحـاً فـي الدياجـي يـولـج اللـيـل فـــي النـهـار، ويقـحـم
و "حـــراء" مـنـارة يسـطـع الإشـعـاع منـهـا، والشـمـسُ و "الـغـار" تـــوأم
واستنـار الوجـود، وانجابـت الظلـمـة والـلـــيـــل بـــالـــضـــيـــاء تَـــبـــرّم!
ومشـى "مـوكـب الرسـالـة" يـنـداح نـشـيـداً إلـــى الـحـيـاة الأقـــوم
فاسمعـوا. اسمـعـوا. فـهـذا "حـــراء" يـتـــهـــادى - مـــهـــلّـــلاً - يـتـكـلـم
اسمعـوه. ذكـرى تَـردَّد فـــي الـكـون صـداهـا فـــي كـــل جـيـل ومَـعْـلَـم
غير أن الذكرى على مشهد الأبصـار حـــسٌّ أسـمـــى، وصـــوت مُـضَـخّـم
اسـمـعـوه مُـــردِّداً "قـصـة الـنـــور" تـغـشّـى قـلـب الـنـبـي الـمـلـهـم
اسمعـوه يـقـول فـــي غـيـر زهـــو كيف يزهو مـن كـان للعلـم منجـم.
هـــا هـنـا كـــان للـسـمـاء الـتـقـاء بـــرسـول بـــه الـرسـالات تـخـتـم
أمـــر الله مـصـطـفـاه "أن اقـــرأ" وبـهـا بـــدء وحـيـه حـيـن عـلّـم
أنـــا رمـــز لـهـا بـكـل فـــؤاد كَـــرَّم الله شـــأنَـــه فـتـعـلـم
أنـــا رمـــز لـهـا بـكـل لـســان هـذبـتـه بـــلاغـــة فـتـسـنّـم

أنـــا رَمْـــزٌ لـهـــا عـلـــى كـــل كـــف خـط فـــي الـطـرس بالـيـراع ونمـنـم
أنـــا رمـــــز لـــهـــا رؤى كـــل عـــيـــن أبـصـــرت نـــور ربـهـــا غـــيـــر مـبـهـــم

ينقل الشاعر رافع علي الشهري [41] لحظة نزول النور على النور صلى الله عليه وسلم في غار النور، من خلال جغرافية الحدث وتاريخيته وروحانيته في قصيدته "شعاع الوحي العظيم"، فيقول:

نورٌ أزاحَ غياهبَ الظلماءِ وأنارَ وجهَ الأرضِ بالأضْـــــــــــــــواءِ
نورٌ تنزَّل نحو مكةَ ساطعاً في الخافقَين وفي ذُرى الجوزاءِ
من قمّةِ الجبلِ الأشمّ بَدَا الهُدَى فانسابَ مِن عَلْياءِ غارِ حِرَاءِ
أنسابَ وحْياً من فَمِ الغارِ الذي يرنو لبيتِ اللهِ والبطْحَـــــــــــــــاء
وهو الذي يَعْلو القُرَى بشموخِه ويُطلُّ فوق الـــــــــــــــدُور والاحْياءِ
نَزَلَتْ بهِ اقرا وكان محمدٌ في جَوفِه يدْعو بخيرِ دُعـــاءِ
وبَدا في الآفاقِ جبريلُ الذي غَطّى سماءَ الأرضِ والأجْـــــــــــــــواءِ
غطّى بأجنحةٍ عِظامٍ أذهلتْ خيرَ الآنامِ، فَغابَ في إغمَـــــــــــــــاء
فدنا إليه الروحُ حتى غطّهُ وأزالَ كلَّ الرُعبِ والإغْيـــــــــــــــاءِ
وتَلا بوحي اللهِ آياتِ الهُدَى فَتبجّستْ نُوراً على البيْـــدَاءِ

يستنطق الشاعر السيد أحمد العربي[42] "حراء" حين يطالب كل من حوله أن يوجهوا للغار أسئلتهم، وهو قادر على الإجابة عليهم جميعًا، فيقول:

هذا حراء سائلوه يجبكم فلعله سفر من الأسفار
واستلهموه مواقف الوحي التي شع الهدى منها على الأقطار
وسلوه ماذا قد أقل من البطو لة والحجى؟ أعظم به من غار
أخلق بغار حراء أن يزهى على ال أهرام والإيوان والآثار
كم بين صاحبه وبين بناتها من فارق أربى على الأقدار

شتان بين محرر الأقوام وال مستعبدين سلائل الأحرار

يصف لنا الشاعر عائض بن عبد الله القرني موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال قصيدته "محمد في فؤاد الغار يرتجف"، فيقول:

محمد في فؤاد الغار يرتجـــــــفُ في كفّه الدهر والتاريخ والصحفُ
مُزَمّل في رداء الطهر قد صَعَدت أنفاسه في ربوع الكون تأتلفُ
من الصفا من سماء البيت جلَّله نوراً من الله لا صوفٌ ولا خصفُ
فأشرقت بسمات الوحي وانقشعت تيجان من قتلوا الأحرار واعتسفوا

ثم يتناول تأثير اقرأ منذ أطلقها أمين السماء، وأقرها الرسول صلى الله عليه وسلم منهاجًا للأمة، فيقول:

ذابت عيون وأسماعُ وأفئدةُ حُبّاً لمن نوره في الغار مكتنفُ
اقرأ فأنت أبو التعليم رائده من بحر علمك كلُّ الجيل يغترفُ
إن لم تَصُغ منك أقلامٌ معارفها فالزور ديدنها والظلم والصلفُ
تأريخنا أنت أمهرناك في أنفسنا نمضي على قبساتٍ منك أو نقفُ

يقسم الشاعر صالح بن علي العمري [43] كلمة اقرأ في مسئوليتها بين أمين السماء وأمين الأرض عليهما السلام، فيقول في قصيدته نفحات الهجرة:

شعّ الهدى، و البشرُ في بسماتهِ واليُمن و الإيمان في قسماتهِ
و تفجرت فينا ينابيع الهدى واستيقظ التأريخ من غفواتهِ
"اقرأ و ربُّك" في حراء تحررت والدهر غافٍ في عميق سباتهِ
جبريل حاملها و أحمد روحها إن الحديث موثّقُ برواتهِ
مُهج الملائك بالتلاوة تنتشي فتُقَبّل الكلماتِ فوق شفاتهِ
صلى عليك الله يا من ذكره قربى، ونورُ الله من مشكاتهِ
يا من كساه الله حلّة سمته و كساهُ بالقرآن حُلّة ذاتهِ
لمّا أضاء الله مهجة قلبه هانت عليه الروحُ في مرضاتهِ

غسل الكرى عن أعين الدنيا كما يُجلى الدُّجى بالفجر في فلقاتهِ
و أنار بالآيات كلّ بصيرةٍ فكأن نور الشمس من قسماتهِ
و اقتاد للجنّات أسمى موكبٍ "إياك نعبدُ " تمتماتُ حداتهِ
اقرأ معاني الوحي في كلماته في نسكهِ و حياتهِ و مماته
لو نُظّمت كلّ النجوم مدائحا كانت قلائدهن بعض صفاته

أما الشاعر سعود الصاعد فيتعامل مع لحظة "حراء" التاريخية من منظور انعكاسي لها وآثارها الإيجابية على من آمنوا بها عبر امتدادات الأزمنة، فيقول في قصيدته "أوراق عربي من غار حراء":

مَن نحن لولا قِصّةٌ في الغارِ
ضجّت قبلها
وتفتّحت سُجُف السماء
هل نحن إلاّ أُمّةٌ
سهرت على كتف الظلام!
وتململت قَلقاً
تصفّق للمنامِ
ولا تنام !
هل نحن - لولا قصّة الغار الشريفةُ –
غير تاريخٍ قديم .
و قصائدٍ منثورةٍ
ما بين زمزم والحطيم .
هل نحن إلاّ بعضُ أسمالٍ قديمةْ !
ومفاخرٌ كانت سقيمةْ !
مَن نحن لو لم نرتوِ
من نهر من حضنت حليمة.

ـــ رمزية "حراء" في الشعر والواقع:

لم يكن لغار حراء ذلك البعد الروحي باعتباره مكان التقاء السماء بالأرض وحسب بل بما شكله من اتخاذه رمزًا في الشعر العربي وفي الواقع المعاش استلهامًا من لحظته التاريخية القابعة في النفسية المسلمة، والتي صار يشكل ركيزة هامة إيمانيًا وتاريخيًا كأنه ـــ أي الغار ـــ ذلك الجانب الوضئ في قلب المسلم الذي يصدر عنه إيمانه ويستقبله منه بل ويستلهم تلك اللحظة الغابرة، الحاضرة بقوة في الذاكرة، وصعب عليه أن يغادرها، وإذا غادرها عاد إليها مسرعًا؛ إذ هي لحظة قديمة .جديدة، ومتجددة، لا يصيبه من تكرارها الملل، وفي داخله يحدوه الأمل لاسترواح نسائمها الأولى، كأنما كان مرافقًا لحبيبه الأسمى محمد صلى الله عليه وسلم، فلحظة حراء تكتسب حيويتها ورمزيتها من الحدث، وشخوصه، وقصته، وطهره، وبراءته، وخلوص القلب لله فيه، والميلاد الجديد، وأخذ لجام البشرية الضائعة الضالة من جموح الغواية إلى حظيرة الإيمان، ومربط الهدى، وعبادة الإله الحق، ونقاء التوحيد، والتطهر من أدران الشرك، وعبودية العباد، للإقرار بالعبودية لله تعالى وحده.

وما أجمل أن نستلهم رمزنا في كل إبداعاتنا الأدبية والعلمية والمجتمعية من عقيدتنا السمحاء، وديننا الحنيف بديلًا عن التغريب وفقدان هويتنا، والانسلاخ منها، والمباهاة برمزية غيرنا والتمسك بها في جهالة، ولهذا استلهم الشعراء "حراء" في قصائدهم وأسقطوا على تلك اللحظة رؤاهم، أو وظفوها لتوجهاتهم كما سنرى.

كتب الشاعر تميم البرغوثي [44] قصيدة "البردة" معارَضًا لكلّ من قصيدة الإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري المعروفة بـ«الكواكب الدُرِّيَّة في مدح خير البَرِيَّة»، أو البردة، وقصيدة أحمد شوقي التي عارض فيها قصيدة البوصيري وأسماها «نَهْجَ البُرْدَة»، وهي معارضة تأتي منه على سبيل التحية من اللاحق للسابق، ولقد اخترنا منها الأبيات التي تتلامس مع غار حراء فقط، يقول:

وَرُحْتَ تَكْفُرُ بِالأصْنَامِ مُهْتَدِياً مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ الكِتَابَ هُدَى
كَرِهْتَهُ وَهْوَ دِينٌ لا بَدِيلَ لَهُ غَيْرَ التَّعَبُّدِ فِي الغِيرَانِ مُنْفَرِدَا
وَيَعْذِلُونَكَ فِي رَبٍّ تُحَاوِلُهُ إِنَّ الضَّلالَةَ تَدْعُو نَفْسَهَا رَشَدَا
وَالكُفْرُ أَشْجَعُ مَا تَأْتِيهِ مِنْ عَمَلٍ إِذَا رَأَيْتَ دِيَانَاتِ الوَرَى فَنَدَا
وَرُبَّ كُفْرٍ دَعَا قَوْمَاً إلى رَشَدٍ وَرُبَّ إِيمَانِ قَوْمٍ للضَّلالِ حَدَا
وَرُبَّمَا أُمَمٍ تَهْوَى أَبَا لَهَبٍ لليَوْمِ مَا خَلَعَتْ مِنْ جِيدِهَا المَسَدَا
مِنَ المُطِيعِينَ حُكَّامَاً لَهُمْ ظَلَمُوا وَالطَّالِبِينَ مِنَ القَوْمِ اللئامِ جَدَا
وكان جِبْرِيلُ مرآة رأَيْتَ بِها في الليلِ نوراً وفي المُسْتَضْعَفِ الأَيَدَا
أَهْدَاك فِي الغَارِ بَغْدَادَاً وَقُرْطُبَةً وكلَّ صَوْت كريم بالأَذَانِ شَدَا
تَرَكْتَ غَارَ حِرَاءٍ أُمَّةً أَنِسَتْ وَقَدْ أَتَيْتَ لَهُ مُسْتَوْحِشَاً وَحِدَا
إِنْ شَاءَ رَبُّكَ إِينَاسَ الوَحِيدِ أَتَى لَهُ بِكُلِّ البَرَايَا نِسْبَةً صَدَدَا

يستلهم الشاعر أحمد بخيت [45] في قصيدتيه "العارف"، و "ركعة الشاهد" غار حراء ولكن برؤيتين مختلفتين، ففي الأولى يقول:

طلبت السرْ للدنيا، فألهاني عن الدنيا
وحين أجاءني للغَارِ، قال: عزاؤك الرؤيا
فقلت: أنا الفتى الأُمِّيُّ، قال: تَحَمَّلِ الوَحْياَ

وفي قصيدته الثانية يقول:

في البدء قال: اقرأ .قرأت فصاح بي
لقد اصطفاك الحزن للإسراء
قلت الرؤى اشتبهت أشار تبعته
قلت: استخر لي قال:صلَ ورائي
فبكت عيوني قال: دمعة مؤمنٍ
ما بالها وثنية الازياء
طوبى لمن نحروا القلوب وضيفوا
(جبريل) فوق موائد الفقراء

مطرٌ يخط على قميصي آية
ويقول موعدنا بغار (حراء)
هذا بريد الله كل سحابةٍ
شهدت على صدري صلاة الماء

يخاطب الشاعر عبد الإله زمراوي [46] أصحابه من خلال قصيدته "أقم الليل على غار حراء!"، بأنه سيغني للشعب والثوار وملايين المظلومين، والرعاة الظاعنين والجنود، ويخاطب المجذوب قائلًا:

أيها المجذوب في جبته
أقم الليل على غار حراء!
باسل اذ هب من هجعته
زانه اللوح على حبر البهاء!
ناعم الطرف، نديم الكبرياء
ضامر الخصر اذا شد البلاء!

يقول الشاعر محمد علي الرباوي [47] في قصيدته "فصل مِن كتاب الشدة":

قَدْ سَجَمَتْ مِنْ دَمْعِ عَيْـنِـيَ عَبْرَةٌ
وَحُـقَّ لِعَيْنِي أَنْ تَـفِيضَ عَلَى صَحْبِي
وُقوفاً بَغَارِ حِرَاءَ الْمُعَذَّبِ، صَحْبِي، لَعَلَّ بِهِ أَثَراً لِلأَحِبَّهْ.
هُمُ دَخَلُوا. رَكَعُوا رَكْعَتَيْنِ. وَفِي السِّجْنِ أَنْهَوْا تَشَهُّدَهُمْ. ثُمَّ قَالُوا: السَّلاَمُ عَلَيْكمْ. فَرَدَّ السَّلاَمَ مَلاَئِكَةٌ تَتَلأْلأُ بَيْنَ شِفَاهِهِمُ سُورَةُ الْفَتْحِ. إِنَّا فَتَحْنَا طَرِيقاً إِلَى الْفَجْرِ بِالرَّاحِلِينَ مَعَ الْفَجْرِ. لاَ تَعْجَبُوا إِنْ سَمِعْتُمْ زَغَارِيدَ أُمِّي. فَأُمِّيَ قَدْ أَلِفَتْ اِخْتِطَافَ بَنِيهَا. وَلَكِنْ تُصِرُّ عَلَى أَنْ تَظَلَّ وَلُودَا.

ولا يغيب "غار حراء" الرمز عن إلهام العامية المصرية وكبيرها الشاعر فؤاد حداد [48]، فيقول:

يا جموع الفقراء يمموا غار حراء
سيرى هذا التراب بعيون لا تراب
عسجديًا مسجديًا طأطأت فيه الحراب
في غار حراء الليل ما بيضلِّم صلّي على طه النبي وسلّم
يا كلّ شاعر بصّ واتكلّم الشمس في الشجره ورا العنقود
ولا الأمل موءود ولا مفقود الأرض حقّت كلها للسجود
والشمس من فرحتها مالْيه الوجود مش خايفه من فرحتها تتألّم
كانت على يمينه وعلى شماله حُرّه وطليقه وحامله أحماله
ولا عاد لها تأخّر ولا تقدّم ولا عاد لها تغرّب ولا تشرّق
في كل أرجاء السما "قرأ"
نقدر نردّ الإهانه وجاهليّه وكهانه
قال النبي الإنسان سيّد ولد عدنان
الله معانا

لا تتوقف أهمية غار حراء كرمز على الشعر فقط بل تمتد في أنسجة وشرايين الحياة الوجدانية للمسلم، الذي إن عجز عن تحويلها إلى إبداعًا على الورق، جاز له أن يستلهم مضامينها التي لن تنضب في مشروعات على الأرض غايتها أن تنتج إبداعًا وعلومًا وحكمة في العقول والقلوب وعلى الألسنة في الأزمنة والأمكنة التي تصل إليها منشوراتها، أو يصل إليها من تعلموا فيها.

فقد أسس المرشد الأول حسن البنا مدرسة «حراء»، وكان اختيار هذا الاسم عن قصد؛ فغار حراء هو الغار الذي خرج منه الدين الإسلامي، هو الغار الذيكان بداية تلقى الرسالة، نزل فيه سيدنا جبريل لأول مرة على النبى صلى الله عليه وسلم ومنه انطلقت رسالة الإسلام إلى العالمين، كان حسن البنا يظن أن شمس الإسلام غابت ولكنها ستعود على يديه، وها هو الرسول الجديد يخرج من مصر، ولكى تنطلق الرسالة لا بد له من غار يكون هو بداية انطلاق الدعوة وليس أفضل من مدرسة يطلق عليها «حراء» وكأنها غار الدعوة!! ومن هذه المدرسة ظن البنا أن جيوش الإسلام التى سيكون هو قائدها ستنطلق كما انطلقت جيوش وجحافل ابن الوليد[49].

كما صدرت بالمملكة العربية السعودية جريدة حراء سابع جريدة تصدر بالمملكة ورابع جريدة تصدر بالمنطقة الغربية، وقد صدر العدد الأول منها في 8 ديسمبر 1956م ، كانت تصدر أسبوعيًا ثم أصبحت تصدر يوميًا.

وقد حملت ذاتَ الاسم "حراء" أولُ مجلة تركية ناطقة بالعربية "لغة القران الكريم" لتصل تركيا الجديدة بتاريخها الإسلامي الجديد بعد قطيعة عاشها الأتراك إزاء هويتهم وتاريخهم وجوارهم وإزاء العربية وحرفها الذي هو من فنون الجمال، وهي مجلة علمية ثقافية فكرية تصدر كل شهرين وتعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.

يربط بين غار حراء بالديانات الإبراهيمية السابقة للإسلام من يهودية ومسيحية عدة دلالات ومعان رمزية، منها: أن الدين الاسلامي الحنيف ونبي الاسلام محمد هما من الورثة الشرعيين لديانة النبي إبراهيم الخليل والذي يمثل الحنيفية بعد أن أعطى القرآن للإسلام طابعًا عربيًا للحنيفية، عند وفاة سارة زوجة النبي ابراهيم اشترى لها إبراهيم مغارة المكفيلة في قرية اربع التي هي حبرون في أرض كنعان من الحثيين، سفر التكوين من التوراة، وعندما توفي النبي إبراهيم دفن إلى جانب زوجته سارة في مغارة المكفيلة. رمزية غار حراء تظهر أن النبي محمد هو وريث روحي وشرعي لابراهيم أبي الأنبياء، و(غار حراء) هو وريث (مغارة المكفيلة)، وبذلك انتقل الوحي الإلهي من إبراهيم إلى محمد وظهر له الوحي في غار حراء، وغار حراء يرمز إلى جوف الحوت الذي ابتلع النبي يونان (يونس) . فكما حفظ الحوت يونان من الموت، كذلك حفظ غار حراء محمد من الموت، رمزية غار حراء تشير إلى قبر المسيح عيسى ابن مريم الذي كان يوسف الرامي قد نحته في الصخر ثم دحرج حجرًا كبيرا على باب الغار.

وبذلك يكون غار حراء بمثابة الوسيلة التي أعطت لمحمد حياة جديدة وظهورا للإسلام من بعد كمون وحصار شديدين، رمزية غار حراء تشير إلى المغارة التي ولد فيها السيد المسيح عيسى ابن مريم . فغار حراء يمثل ولادة الإسلام الحنيف

المحمدي ولادة جديدة.ظافرة، عندما يصبح النبي محمد وريثًا شرعيا للنبي إبراهيم، هذا يعني أن الله سيباركه ــ أي يبارك محمد ــ ويبارك اسمه وأمته، وستكون أمة الإسلام بعدد رمال البحر أو عدد نجوم السماء، وهكذا تكتمل رمزية غار حراء باعتبار النبي محمد أحد الورثة الشرعيين، أو هو الوريث العربي لديانة إبراهيم الخليل [50].

ــ حراء يعانق ثور في التاريخ والشعر:

إذا كان جبل النور هو مصدر النور المحمدي، فإن غار حراء هو الذي منح هذا النور شرعية البقاء، وخصوصية الخلود، حين أقره يقيناً فطرياً. وهنا حُقَّ للغار أن يتحدث للناس شاهدًا وشهيدًا. فإن ما يحمله في ضميره من الذكريات تُنطِق الحجر.

إن الدكتور جريدي المنصوري في ملمح تاريخي يحدثنا عن خصوصية حراء وثور وجبل النور روحانيةً، في مقابل غيرها من جبال مكة قائلاً: "أما جبال مكة: ثبير وجبل النور وجبل ثور؛ فإن تاريخها القديم المرتبط بالشموخ والكبرياء والصمود قد تأثر بالدين الجديد، كانت العرب تردد (أشرق ثبير كيما نغير) فالإغارة غارت حين منح غار حراء، وغار ثور للمجتمع ثقافة جعلتهما في منزلة روحية تتقدم على جبل ثبير"[51].

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره لسورة النحل: (والشاعر المسلم تأمل غار حراء وغار ثور وكلامها من الأحجار فوجد أن غار حراء قد شهد نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، وغار ثور حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اختفي فيه ومعه الصديق أبو بكر في أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة، فتخيل الشاعر أن غار ثور قد حسد غار حراء، وقال:

كَمْ حَسَدْنَا حِراءً حينَ يَرى الرُّوحَ أمينًا يَغْزُوكَ بالأنْوَارِ
فَحِرَاءٌ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً بِهما تَشفَّعْ لأمَّةِ الأحْجَارِ

فغار حراء شهد جبريل عليه السلام وهو يهبط بالنور على محمد صلى الله عليه وسلم، لكن غار ثور نال أيضًا الشرف لحمايته الرسول في الهجرة.

للشاعر أحمد محرم في إلاليذة الإسلامية العيش في رحاب التاريخ والجغرافيا، مؤرخًا لأحداث دولة الإسلام، وأشهر الأماكن التي انطلقت منها الدعوة مثل غاريِّ «حراء» و" ثور" ودار الأرقم:

ظل مستخفياً بغار حراء يعبد الله عائذاً مستجيرا
ودعا الأرقم استجب، تلك داري تسعُ الدين مخرجاً محصورا
وافها واجمع المصلين فيها عصبة ـ إن أردت ـ أو جمهورا
ما في البلاد أكرم من مكّـ ـة أرضاً، ولا أحب عشيرا
غار ثور، أعطاك ربك ما لم يعط من روعة الجلالِ القصورا
أنت أطلعت للممالك دنيا ساطعاً نورها، ودنيا خطيرا
صنته من ذخائر الله كنزاً كان من قبل عنده مذخورا
مَخْفرُ الحق لاجئاً يتوقى قام فيه الروح الأمين خفيرا

يقول الشاعر تميم البرغوثي في قصيدته "مقام عراق":

وكفاه على الجزاء دليلا ثاني اثنين إذ هما في الغار
نغم الغار بالنبي طروبا والصدى عازف على الأوتار
نغم الغار مرحبا بالهدى المح بلحن التكبير والاكبار
مرحبا بالحياة أرسلها الله لدنيا تورطت في العثار
كم حدنا حراء حين ترى الروح أمينا يأتيك بالأنوار
فحراء وثور صار سواء بهما أشفع لامة الأحجار
عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار
تخذوا صمتنا عليهم دليلا فغدونا لهم وقود النار

يا هلالْ
يا ابتسامةَ ليلٍ عليلٍ، يُجَامِلُ أمثالَنا الزائرينْ
يا أنينْ
يا جنينْ

يا حزينْ
يا مؤانسْ
بليلٍ طويلِ الهمومِ بطئ النجومِ كثير الوَسَاوِسْ
ويا أيها الشاهد الأبديّْ
يا حبيب النبيّْ
ويا من أضأت الطريقَ لجبريلَ
تُمسِكُه من يَدَيْهِ لغارِ حِراءٍ
وقلتَ لَهُ:
إنَّهُ هاهُنا فَتَفَضَّلْ
ويا من تَنَقَّبْتَ حَتَّى هَرَبْتَ وهَرَّبْتَهُ
وَسُيوفُ قريشٍ بأغمادِها تَتَمَلْمَلْ
ويا من هَدَيْتَ الحَمَامَةَ أن تَضَعَ العُشَّ في باب مخبئِهِ
دونَ أيِّ مكانٍ سواهُ على رُقْعَةِ الصَحَراءْ

هوامش الفصل الثالث

[1] جوته والعالم العربي-كاتارينا مومزن- ت. عدنان عباس علي- عالم المعرفة ع: 194- ص 177المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت ط1: فبراير/شباط.1995.

[2] دكتور هشام الحمامي: متى وكيف أحب "جوته" النبي الكريم "صلى الله عليه وسلم"؟ ـ مجلة المجتمع ـ 3ـ11ـ2013.

[3] وذلك لترشيح الدكتور ضياء نافع لترجمة "سلام" رغم أنه قام بترجمتها أيضًا، ولثناء الشاعر عبد المحسن يوسف على "سلام" الذي يرى أنه يملك قاموسًا لغويًا ثريًا وإحساس لاختيار المفردة والعبارة الملائمة لما يترجمه من شعر.

[4] الكسندر بوشكين: الغجر وأعمال أخرى ص 72- 74. ترجمة رفعت سلام.القاهرة2010.

[5] سورة القدر: (4).

[6] دكتور محمود الحمزة: دور الترجمة والاستعراب في التفاعل الثقافي بين العرب والروس ـ رابطة أدباء الشام.

[7] الندوي: دور محمد إقبال في توجيه الأدب والشعرـ رابطة أدباء الشام.

[8] محمد إقبال: "أسرار خودي" ص 45.

[9] زاهد منير عامر: علاقة العشق بالتهذيب عند محمد إقبال مجلة دراسات العالم الإسلامي، 5- 1& 2 (فبراير) 2012، ص 10 – 1.

[10] الأسرار والرموز/ "كليات إقبال" (الفارسية)، ص22، ترجمة: دكتور يرسم عبد الحميد إبراهيم،" ديوان الأسرار والرموز" القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005، ص 57 .

[11] شمس الدين ألطاف حسين حالي، صاحب المنظومة أو "الملحمة الإسلامية" الذي ولد عام 1837 وتوفي عام 1914م. وقد ترك آثارًا أدبية متعددة، شعرية ونثرية، وكتب في الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع، كما كتب في نقد الشعر، وفي النظرية الشعرية .الوعى الإسلامي العدد رقم: (519) 2008ـ11-27.

[12] بدر شاكر السياب (25 ديسمبر 1926 - 24 ديسمبر 1964)، شاعر عراقي يعد واحدًا من الشعراء المشهورين في الوطن العربي في القرن العشرين، كما يعتبر أحد مؤسسي الشعر الحر في الأدب العربي.

[13] يوسف العظم: شاعر ومفكر أردني، ويلقب بشاعر الأقصى، درس في الأزهر الشريف، له تسعة دواوين شعرية، منها: " في رحاب الأقصى"، و"عرائس الضياء"، و"قناديل في عتمة الضحى"، و"لو أسلمت المعلقات"، و"قبل الرحيل".

[14] عبد المجيد فرغلي محمد النخيلي: شاعر مصري، ولد في صعيد مصر وعمل عميدًا لنادى أدب ثقافة صدفا بأسيوط. وله العديد من الدواوين المطبوعة والمودعة بدار الكتب المصرية.

[15] ينابيع السبيعي: شاعرة سعودية لها ديوانان شعبيان وآخر فصيح بعنوان "لجام القوافي" تم طباعته بنادي الأحساء الأدبي كأول ديوان يطبعه النادي لشاعرة بالأحساء.

[16]كعب بن مالك الأنصاري السلمي، شاعر الإسلام أسلم قديما وشهد العقبة ولم يشهد بدرًا، وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم بعد تخلفهم عن غزوة تبوك. وتوفي سنة 50 هجرية.

[17] محمود حسن إسماعيل: شاعر مصري معاصر تخرج في كلية دار العلوم، نال جائزة الدولة في الشعر، وله دواوين كثيرة منها: "لابد" و"تائهون".

[18] عمر أبو ريشة: شاعر سوري، من كبار شعراء وأدباء العصر الحديث، وله مكانة مرموقة في ديوان الشعر العربي.

[19] بشير بن سليم يَمُّوت: ولد في بيروت على أيام العثمانيين له مقالات أدبية واجتماعية وسياسية نشرت ومؤلفات وتحقيقات عن "شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام"، "ديوان ذي الرمة"، "ديوان عمر بن أبي ربيعة"، "بشار ابن برد"، "ديوان أمية بن أبي الصلت"، "ديوان جميل بثينة".

[20] دكتور عبد المعطي الدالاتي، صفحة نجاوى، صيد الفوائد.

[21] محمود غنيم: شاعر مصري، له دواوين: "صرخة في واد"، "في ظلال الثورة"، نال جائزة الدولة التشجيعية.

[22] الشاعر المجاهد محمد محمود الزبيري، شاعر اليمن، من مؤلفاته:ديوان ثورة الشعر، الإسلام دين وثورة، بحوث ومقالات سياسية وأدبية، الخدعة الكبرى في السياسة العربية .

[23]محمود بن محمد السيد الدغيم باحث أكاديمي في مركز الدراسات الإسلامية في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن. حصل على شهادة الماجستير والدكتوراه من جامعة سالفورد في مانشستر البريطانية.

[24] عباس الجنابي شاعر واعلامي عراقي. مقيم في المملكة المتحدة نشرت له قناة المستقلة قصائد شعرية عديدة في ديوانها عن الرسول محمد الذي كان بعنوان "لماذا نحبه".

[25] أنمار محمد حسين محاسنة: شاعر ومهندس أردني معاصر.

[26] بديع محمد رؤوف المعلم، شاعر سوري، دواوينه الشعرية: تحت ظلال الوحي.

[27] يوسف بن عبيد بن محيميد بن إبراهيم: شاعر سوري، له دواوين: الفجر الجديد، قبس من حراء.

[28] محمد ضياء الدين جميل الصابوني: الملقب بـ"شاعر طيبة" لكثرة قصائده في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والشوق إلى المدينة المنورة، ولد في مدينة حلب، منح الجائزة الأولى للمديح النبوي في طرابلس - ليبيا.

[29] يوسف بن إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن محمد ناصر الدين النبهاني: شاعر وأديب، وفقيه وقاضٍ، من عرب البادية بفلسطين، تلقى تعليمه بالأزهر الشريف.

[30] ندى السيد يوسف الرفاعي: أديبة وشاعرة ومترجمة كويتية، تلقب بشاعرة الحرمين، لها العديد من الدواوين: "زهرة المصطفي"، "قصائد من الكويت"، "صلواتي"، "لآلِئْ وأسفار".

[31] إبراهيم عبدالله إبراهيم العلي، شاعر فلسطيني، صفحة الشاعر شبكة الألوكة. جبل النور: صيف 2009م)

[32] انظر: شِعريَّة المكـان المقـدَّس، دراسات في الشعر السعودي، للدكتور حافظ المغربي، و "صورة المكان الفنية في شعر أحمد السقاف"، بدر نايف الرشيدي،، ص82،رسالة ماجستير 2012، جامعة الشرق الأوسط.

[33] حسن عبدالله القرشي شاعر مجدد في الجزيرة العربية ولد في مكة المكرمة، وتلقى علومه الأولية بالكتاتيب فحفظ القرآن الكريم، ثم درس في مدرسة الفلاح، والمعهد العلمي السعودي في مكة المكرمة، ثم حصل على شهادة ليسانس الآداب، قسم التاريخ، مع مرتبة الشرف من كلية الآداب بجامعة الرياض.

[34] ناصر بن مسفر القرشي الزهراني داعية سعودي، ومؤسس مشروع السلام عليك أيها النبي. اشتهر عنه غزارة الكتابة في الشعر العربي وفي عدد من الموضوعات المعرفية المتنوعة.

[35] محمد إسماعيل جوهرجي ولد في مكة المكرمة له سبعة دواوين شعرية: أحلام الصبا، النظم الظامئ، عطر وموسيقى، اليقين، أبخرة الرماد، نبض الضفائر، شرخ الضمير.

[36] الدكتور صالح سعيد الزهراني، ولد في الباحة، أستاذ مشارك بقسم البلاغة والنقد، دواوينه الشعرية: تراتيل حارس الكلأ المباح، فصول من سيرة الرماد، ستذكرون ما أقول لكم.

[37] الشاعر علي أبو العلا، ولد في مكة، له ثلاثة دواوين شعرية: بكاء الزهر، سطور على اليم، سطور فوق السحاب .ومن نثره كتاب: من الزوايا والتاريخ.

[38] الشاعر إبراهيم بن داود عبد القادر فطاني: شاعر ومدرس سعودي، ولد وتوفي بمكة، له ديوان "قصائد" الذي يضم ثلاث مطولات ذات اتجاه إسلامي، تاريخي، وعظي، ومخطوطات من الشعر لم تطبع بعد.

[39]عبد الرحمن بن صالح بن حسين عشماوي الغامدي، شاعر سعودي اشتهر بشعره الإسلامي، والقصيدة من ديوانه عناقيد الضياء، وللشاعر دواوين كثيرة، مثل: إلى أمتي، صراع مع النفس، بائعة الريحان، مأساة التاريخ، نقوش على واجهة القرن الخامس عشر، إلى حواء، عندما يعزف الرصاص، شموخ في زمن الانكسار، يا أمة الإسلام، مشاهد من يوم القيامة، ورقة من مذكرات مدمن تائب، من القدس إلى سراييفو، عندما تشرق الشمس، يا ساكنة القلب.

[40] إبراهيم محمد أمين إبراهيم فودة شاعر وأديب سعودي معاصر، له دواوين عديدة، منها: ديوان مطلع الفجر، ديوان مجالات وأعماق، ديوان صور وتجاريب، ديوان حياة وقلب.

[41] رافع علي الشهري: صحافي وكاتب وشاعر، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمي.

[42] أحمد بن محمد العربي العياشي مُرب، وعالم، وخطيب، وأديب وشاعر، وأحد طلائع رواد النهضة الأدبية والعلمية في تهامة الحجاز والمملكة العربية السعودية. ولد وتعلم في المدينة المنورة، ثم انتقل إلى مكة والتحق بمدرسة الفلاح المكيّة، ثم سافر إلى مصر، حيث التحق بالأزهر الشريف، وكان من ضمن أول بعثة تعليمية جامعية إلى مصر في العهد السعودي، تخرج في كلية دار العلوم العليا، وكان من أوائل الحاصلين على شهادة جامعية في تاريخ المملكة العربية السعودية.

[43] صالح بن علي العمري، المدير التنفيذي لمجلس ذوق الأدبي بالدمام.

[44] تميم مريد البرغوثي شاعر فلسطيني، شاعر فلسطيني، من مواليد القاهرة وأستاذ للعلوم السياسية، حاصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة بوسطن. اشتُهر في العالم العربي بقصائده التي تتناول قضايا الأمة، وكان أول ظهور جماهيري له في برنامج أمير الشعراء على تلفزيون أبو ظبي

[45] أحمد بخيت: شاعر مصري، له العديد من الدواوين، وحصد الكثير من الجوائز في مسابقات عربية ومصرية.

[46] عبدالإله زمراوي، شاعر سوداني، يكتبُ من المهجر (كندا والولايات المتحدة)،، قانوني وقاض سابق ومترجم، صدرت له ثلاث دواوين.

[47] محمد علي الرباوي، شاعر مغربي، يعمل أستاذًا مساعدًا بكلية الآداب بجامعة محمد الأول بوجدة، له العديد من الدواوين.

[48] فؤاد حداد، شاعر مصري من أصل لبناني، دواوينه: كلمة مصر، من نور الخيال وصنع الاجيال في تاريخ القاهرة، استشهاد جمال عبدالناصر، الحضرة الزكية، الشاطر حسن، الحمل الفلسطيني، أشعار فؤاد حداد ويضم خمسة دواوين. والنص المذكور من ديوان "الحضرة الزكية" (الحضرة الثالثة عشرة) آن الأوان.

[49] ثروت الخرباوي تنظيم المدارس ـ العربية، الخميس 26 جمادي الثاني 1436هـ - 16 أبريل 2015م.

[50] الدكتور سليمان بشير، مقدمة في التاريخ الاخر – نحو قراءة جديدة للرواية الاسلامية، ط1، منشورات الجمل، بيروت، 2012.

[51] صورة مكة في شعر حسن القرشي، سبق التعريف به.

الفصل الرابع

حراء بين التقدير والتقديس

سيظل لغار حراء المكانة السامية في صدر وقلب وعقل كل مسلم؛ إذ إليه صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم متحنثًا الليالي ذوات العدد، وفيه لاقى رسول السماء وأمين الوحي عليهما السلام، وعنه تلقى التكليف بالرسالة الخاتمة، وفي الليلة المباركة سمع أول آيات التنزيل، وهبط منه نورًا يزف النور والبشرى إلى أهل الأرض من الثقلين، ولهذا تهفو النفوس مشتاقة لتلمس مواطئ قدم الحبيب صلى الله عليه وسلم على صخوره وأرضه وتربته، لعلها تظفر بنفحة علوية من ثرى لامسها، وترنو العيون إلى السماء التي تظلل بسحابها وصفائها موقع الغار متحسسة خطى جبريل في رحلته العلوية وكأنها تستعيد لحظة تعرف سلفًا إنها لن تعود، ولكنها حية ومتجددة ومشرقة وعامرة في قلوبهم ووجدانهم.

ويبقى السؤال الإشكالية هل نُنعِم النظر إلى غارنا الحبيب بتقديرٍ أم بتقديس؟ وهل فيه شعيرة بقيت يحسن أو يجب فيها الاقتداء؟ وهل ورد خبرٌ أو أثر أمرنا فيه الهادي الحبيب صلى الله عليه وسلم بأن نفعل ما فعل؟

واقع الأمر أنه لم يرد عنه صلى الله عليه وسلم في حديثٍ صحيح أو ضعيف أنه حض على زيارة الغار بل لم يؤثر عن أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أن زاره أو صعده حال حياته صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء ولا عام الفتح ولا في حجة الوداع، ولم يفعلوه بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وبناءٍ عليه فلا يجوز التبرك به لأن البركة تطلب بطريق الشرع، ولم يأمر الشرع الحنيف بشئ من هذا أبدًا.

اختلفت أقوال العلماء الأجلاء في مسألة زيارة غار حراء، فمنهم من بدَّعَها على الإطلاق، ومنهم من رأى فيها ذريعةً لبدعة فأنكرها، ومع هذا فقد رأى بعض العلماء أنه طالما استقر في ذهن الزائر أن الغار ليس من شعائر الحج أو العمرة وبالتالي ليس مكانًا للتعبد أو التبرك، وأن كل ما يعني زائره ليس أكثر من الوقوف

على بعض ما عاناه الرسول صلى الله عليه وسلم، فهنا نكون قد انتقلنا إلى التقدير وهذا هو المقصود، ولاشك أن للذين لا يرون للزيارة سندًا من نص لهم ما يؤيدهم، والذين يبيحونها بشروط أيضًا لهم ما يؤيدهم.

لا شك أن الذين يذهبون لمنع الزيارة والصعود لهم من الشرع ما يؤيدهم، وذلك مثل ما جاءت به فتوى اللجنة الدائمة [1] والتي أخذت بمبدأ سد الذرائع فتقول: "الصعود إلى الغار المذكور ـــ غار حراء ـــ ليس من شعائر الحج، ولا من سنن الإسلام بل إنه بدعة، وذريعة من ذرائع الشرك بالله وعليه ينبغي أن يمنع الناس من الصعود له، ولا يوضع له درج ولا يسهل الصعود له؛ عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد "(متفق عليه). وقد مضى على بدء نزول الوحي وظهور الإسلام أكثر من أربعة عشر قرنًا، ولم نعلم أن أحدًا من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا صحابته، ولا أئمة المسلمين الذين ولوا أمر المشاعر خلال حقب التاريخ الماضية أنه فعل ذلك، والخير كل الخير في اتباعهم والسير على نهجهم؛ حسبة لله تعالى، ووفق منهاج رسوله صلى الله عليه وسلم، وسدًا لذرائع الشرك، وكذلك جاءت فتوى الإمام ابن تيمية كما في "مجموع فتاواه "[2] بأن الزيارة ليست من السنة.

أما من يبيحون زيارة وصعود غار حراء فأولئك يقرون بوجود النقول المانعة ولكنهم يدعون إلى إعمال العقل فلا يؤخذ النهي على إطلاقه دون البحث عن الحكمة من وراء المنع؛ فالجانب الذي يرى المنع سدًا للذريعة يستند على ما فعله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

(1) أنه صلى الله عليه وسلم حج واعتمر وبقي في مكة زمنًا بعد البعثة وأيامًا بعد الفتح وحجة الوداع ولم ينقل عنه في رواية صحيحة أو ضعيفة أنه زار هذا الجبل.

(2) أن أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله قد توافقت على إثبات سد ذرائع الشرك ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه [3] عن أبي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ قال: قال لي عَلِيٌّ بن أبي طَالِبٍ: ألا أَبْعَثُكَ على ما بَعَثَنِي عليه رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالاً إلا طَمَسْتَهُ ولا قَبْرًا مُشْرِفًا إلا سَوَّيْتَهُ.

دار ناشري للنشر الإلكتروني

وفي صحيح ابن حبان[4] عن أبي وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ يَقُولُ ــ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ مَكَّةَ خَرَجَ بِنَا مَعَهُ قِبَلَ هَوَازِنَ حَتَّى مَرَرْنَا عَلَى سِدْرَةِ الْكُفَّارِ سِدْرَةٌ يَعْكِفُونَ حَوْلَهَا وَيَدْعُونَهَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا السُّنَنُ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "إِنَكُمْ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ".

ومن يبيحون الزيارة يرون بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يزر الجبل أو الغار خشية منه أن تبقى سنة بعده، وقد عُرِفَ هذا من أفعاله صلى الله عليه وسلم أنه كان يترك بعض ما يحبه خشـــية أن يُفرض أو أن يبقى سُنة بعده فيشق على أمته.

وأما الاحتجاج بالحديث الثاني فمؤدى الرد عليه بأنه ربما كان الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبو العهد بوقائع الشرك فكان من إكمال الدين وإتمام الدعوة القضاء على كل ما يدعو إلى الشرك أو يُذَكِّر به. ولا شك أن هناك فارق كبير بين عصرنا وعصر الرسالة، وسد الذرائع ليس سبيلها فقط منع الزيارة والصعود.

ــ بعد أن قدم المبيحون أدلتهم العقلية، أتوا بما يؤيدها بالأدلة من النقل:

ــ أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بالسير لنرى آثار من ذهب من الأمم وذلك للاعتبار، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [5] قال القرطبي عند هذه الآية: أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذبين سافروا في الأرض فانظروا واختبروا لتعرفوا ما حل بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب، وهذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم وأهل الديار[6].

(2) إن الإنكار في زيارة مثل هذه البقاع دون قصد التعبد والتبرك لم يرد عن الصحابة رضي الله عنهم ولا أحد من العلماء من بعدهم وهذا ما ذهب إليه الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله بأنه لا ينكر على الإنسان أن يزور الغار مادام لا يقصده للتعبد كما جاء في فتواه بلقائه الشهري [7].

كما ذهب إلى هذا القول النووي رحمه الله حين قال[8]: (ويستحب أن يزور المواضع المشهورة بالفضل في مكة وهي ثمانية عشر منها: بيت المولد وبيت خديجة ومسجد دار الأرقم والغار الذي في ثور والغار الذي في حراء).

كما أن الواقع يؤيد الإباحة لا التحريم خاصةً وأن ما نراه من الرحلات التي تدشنها شركات السياحة في موسمي الشتاء والصيف وما يدفعه المسلمون اليوم من مبالغ تتجاوز الألوف لزيارة معالم كل مدينة أو دولة يقصدونها، وربما كانت هذه المعالم آثار فرعونية ويونانية وربما كنائس وأديرة، أليس أولى بهم زيارة غار كان يتعبد فيه رسولهم صلى الله عليه و سلم لكى يحفزهم هذا على التمسك بدينهم الذى جاء اليهم عذباً سهلاً بما دفعه الأولون فيه من تضحيات بالأهل والمال والوطن والولد والحياة فيدفعهم ذلك دفعاً إلى العض عليه بالنواجذ خاصةً ونحن في زمن رق فيه التمسك بالدين.

ولهذا طالب الدكتور راتب النابلسي [9] بأنه يجب أن يكون لكل منا غار، فيقول: والله الذى لا إله إلا هو مالم يكن لك غار حراء فلن تكون مؤمناً، لكن لا أطالبك أن تصعد إلى جبل (قاسيون) – جبل بسورية يُطلُ على دمشق - وأن تبحث عن مغارة، أطالبك أن تخلو بنفسك كل يوم في زاوية بيتك، وأن تفكر من أنت؟ لماذا أنت في الدنيا؟ أين كنت قبل أن تولد؟ وماذا بعد الموت؟).

فهي خلوة مع الله، انقطاع عن دنيا الناس للاتصال بالله عز وجل، خلوة وليست اعتزالاً، خلوة لالتقاء المسلم بذاته يقوِّمُها إما بتعنيفها وزجرها لتعديل مسارها، أو استحسان مسيرها فيطالبها بالمزيد، وهو ما يطالبنا به الشيخ عماد الدين أحمد الواسطي، فيقول [10]: (وليكن لنا جميعًا من الليل والنهار ساعة

نخلو فيها بربنا جل اسمه وتعالى قدسه، نجمع بين يديه في تلك الساعة همومنا ونطرح أشغال الدنيا عن قلوبنا، فنزهد فيما سوى الله ساعة من نهار، فبذلك يعرف الإنسان حاله مع ربه، فمن كان له مع ربه حال، تحركت في تلك الساعة عزائمه، وابتهجت بالمحبة والتعظيم سرائره، وطالت إلى العلا زفراته وكوامنه. وتلك الساعة أنموذج لحالة العبد في قبره حين خلوه عن ماله وولده. فمن لم يخل قلبه لله ساعة من نهار لَمَا احتوشته من الهموم الدنيوية ذواتُ الآصار، فليعلم أنه ليس له ثَمَّ رابطة علوية، ولا نصيب من المحبة ولا المحبوبية، فليبكِ على نفسه، ولا يرضى منها إلا بنصيب من قرب ربه وأُنسه. فإذا خلصت لله تلك الساعة؛ أمكن إيقاع الصلوات الخمس على نمطها من الحضور والخشية والهيبة للرب العظيم في السجود والركوع، فلا ينبغي أن نبخل على أنفسنا في اليوم والليلة من أربع وعشرين ساعة، بساعة لله الواحد القهار، نعبده فيها حق عبادته، ثم نجتهد على إيقاع الصلوات على ذلك النهج).

والذى أراه أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هجر زيارة غار حراء، إنما هجره شكلًا لا مضمونًا، فقد احتفظ صلى الله عليه وسلم بأهم ما فيه وهو التحنث والتأمل والتعبد في نفس الزمن من كل عام، أي في شهر رمضان المعظم، فاعتكافه صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر من رمضان كان هدية الرحمن لرسوله الذى كان يحب هذا العمل وداوم عليه قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم رسولًا، ولئن كان تحنثه حينذاك اقتداءً بما فعله من قبله من الحنفاء على قول من قال ذلك، فإن اعتكافه صلى الله عليه وسلم هو من قبيل إحياء السنن القديمة التي ترجع إلى ما قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام، يلفتنا إلى ذلك لفتًا شديدًا قوله تعالى:﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾[11].

والمعروف من خلال كتب الحديث[12] أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا اعتكف ضُرِبَ له خباء، وهو قبة تركية – صغيرة من لبد - على سدتها قطعة حصير تشبه الخيمة أقرب ما تكون غاراً صغيرًا، وهذا سر اختياره صلى الله عليه وسلم للخوص والحصير واللباد لما فيه من التقشف والتقلل من المتاع، بما يناسب الخلوة بالله والأنس به واستلهاماً لذكرى أيامٍ خلت أَلِفَ الغار فيها صحبة الحبيب صلى الله عليه وسلم، ومازال يذكرها الرسول في نفسه كلما جن عليه ليل شهر رمضان،

فكانت هذه الخيمة أعون له صلى الله عليه وسلم على الخلوة، والانصراف إلى الله، والانقطاع عن الشواغل الخارجية، وفي هذا تمام السكينة بمناجاة الحق سبحانه.

وليس أدل على ما أقول مثل ما أفتى به شيخ الإسلام ابن تيمية في وجه من يرغبون في الخلوة والعزلة اقتداءً بتحنث الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء فقال: (وأما الخلوات فبعضهم يحتج فيها بتحنثه صلى الله عليه وسلم في غار حراء قبل الوحي وهذا خطأ، فإن ما فعله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة إن كان قد شرعه بعد النبوة فنحن مأمورون باتباعه فيه وإلا فلا، وهو صلى الله عليه وسلم من حين نبأه الله تعالى لم يصعد بعد ذلك إلى غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون، وقد أقام صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بضعة عشرة سنة ودخل مكة في عمرة القضاء، وعام الفتح أقام بها قريباً من عشرين ليلة وأتاها في حجة الوداع وأقام بها أربع ليال، وغار حراء قريب منه ولم يقصده، وذلك أن هذا كانوا يأتونه في الجاهلية، ويقال أن عبدالمطلب هو من سن لهم إتيانه، لأنه لم تكن لهم هذه العبادات الشرعية التي جاء بها بعد النبوة صلى الله عليه وسلم كالصلاة والاعتكاف في المساجد، فهذه تغني عن إتيان حراء بخلاف ما كانوا عليه قبل نزول الوحي).

نعم صار مُعتَكف الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد بديلاً عن الغار لأن الاعتكاف صار عبادة جماعية وإن كان فيه العزلة ولذلك يقول الشيخ محمد الغزالي [13]: (إن الاعتكاف عبادة قوامها العزلة،فإن الإنسان عندما ينوى الاعتكاف يتفرغ لطاعة الله والإقبال عليه ويدع زوجته وشغله ولهوه).

وقد جعل الإسلام هذه العزلة في إطار المسجد فلم يسمح بانقطاع في غار أو في غابة، وذلك حتى لا ننهى صلة المسلم بالجماعة . .والمسجد بقعة توحى بالعبادة والتبتل وعلى العاكف أن يلم شمله، ويديم ذكر ربه، ولا يأذن لقطاع الطريق أو لصوص الأوقات أن يغلبوه على أمره.

إن المساجد قطع من هذه الأرض، مساوية لها في المعدن،ولكنها ارتفعت قدرًا عند الله، والناس برفعة الغاية التي بنيت من أجلها والعباد الذين يصطفون فوقها: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37)﴾ [14].

دار ناشري للنشر الإلكتروني

هكذا كان نبينا صلى الله عليه وسلم يأنس بالله رب الخلائق بعيدًا- حينًا ما - عن الخلائق جميعًا، لم يتخفف من عبادة وما استثقل عبادة فرضها عليه ربه عز وجل، كان رسولًا من البشر، عبدٌ لله تعالى، وصار حراء المعنى والجوهر والرمز يحل في مسجده اعتكافًا كل عام في رمضان لتتواصل أيام الله فيكون العمر كله من الله وإلى الله، فنعم العبد عبدُ الله سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

هوامش الفصل الرابع

[1] رقم 359/11.
[2] (144/26) .
[3] صحيح مسلم ج2، ص: (666).
[4] صحيح ابن حبان ج 15/ ص94.
[5] سورة الأنعام: (11).
[6] تفسير القرطبي (398/6) .
[7] اللقاء الشهرى65/3 .
[8] المجموع ج 8/ ص197
[9] برنامج فقه السيرة النبوية الدرس: 39 في 2006/6/5
[10] غذاء الألباب ج1/ص47.
[11] سورة البقرة: (125).
[12] عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلّم اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوَّلَ مِنْ رَمَضَانَ، ثُمَّ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ، فِي قُبَّةٍ تُرْكِيَّةٍ عَلَى سُدَّتِهَا حَصِيرٌ، قَالَ: فَأَخَذَ الْحَصِيرَ بِيَدِهِ فَنَحَّاهَا فِي نَاحِيَةِ الْقُبَّةِ، ثُمَّ أَطْلَعَ رَأْسَهُ فَكَلَّمَ النَّاسَ، فَدَنَوْا مِنْهُ، فَقَالَ: (إِنِّي اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الْأَوَّلَ، أَلْتَمِسُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ، ثُمَّ أُتِيتُ، فَقِيلَ لِي: إِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَعْتَكِفَ فَلْيَعْتَكِفْ)فَاعْتَكَفَ النَّاسُ مَعَهُ، قَالَ: (وَإِنِّي أُرِيتُهَا لَيْلَةَ وِتْرٍ، وَإِنِّي أَسْجُدُ صَبِيحَتَهَا فِي طِينٍ وَمَاءٍ). [رواه مسلم في صحيحه] اتِّخَاذُ الْخِبَاءِ: يُسْتَحَبُّ لِلْمُعْتَكِفِ أَنْ يَتَّخِذَ خِبَاءً؛ لِأَنَّهُ أَعْوَنُ عَلَى الْخُشُوْعِ، وَأَبْعَدُ عَنْ الرِّيَاءِ، وقال الألباني: وله أن يتخذ خيمة صغيرة في مؤخرة المسجد يعتكف فيها، لأن عائشة رضى الله عنها كانت تضرب للنبي صلى الله عليه وسلم خباء إذا اعتكف، كما في صحيح البخاري، وكان ذلك بأمره صلى الله عليه وسلم، كما في صحيح مسلم. والخباء: أحد بيوت العرب من وبر، أو صوف، ولا يكون من شعر، ويكون على عمودين أو ثلاثة. واعتكف مرة في قبة تركية (أي صغيرة) على سدتها حصير، كما رواه مسلم عن أبى سعيد الخدري.
[13] محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص170.
[14] سورة النور: (36ـ 37).

الفصل الخامس

حراء بين الواقع والمأمول

هذا الفصل لا يأتي عبثًا في الترتيب بعد الفصل المتقدم عليه: "حراء بين التقديس والتقدير"؛ فمقدمات الفصل المنصرم هي ذاتها ركائز ودعائم هذا الفصل الذي نحاول أن نبني عليه نتائج نحاول الوصول إليها، على الرغم من صعوبة المحاولة، التي تتجاذبها آراء تستند إلى دين يؤيد أصحابها وقائع على الأرض تعد من قبيل الشرك والخروج عن الملة، في تصورهم، فتؤجج في صدورهم المطالبة بمنع الصعود إلى غار حراء وسائر الأماكن الأثرية بمكة وغيرها.

على الجانب الآخر تأتي آراء تحاول مراعاة الجانب الديني مع الأخذ في الاعتبار عدة نقاط يشيرون إليها لا تخلو من معقولية وعلى ولاة الأمر تبني وجهة نظرهم وتعديلها إن احتاجت التعديل، ومن رأي أصحاب هذا الاتجاه المحافظة على الشكل العام لتلك المشاهد المكية أو المدنية على السواء التي بلغت حدًا متدنيًا، بل أكثر من التدني، من الإهمال بما لا يليق بجلال مشاهد صاحبت رحلة رسولهم صلى الله عليه وسلم الذي يوقرونه ويقيمون الدنيا ويقعدونها أمام إساءات لفظية تلحق به، في حين يسيئون هم إليه أبلغ إساءة بما يفعلونه من إهمال لا يستند إلى أي نص ديني.

كما لا يجد البعض غضاضة في تقديم الحلول التي تحافظ على المنع مع الاهتمام والعناية بتلك الأماكن حيث لا يفهم غير المسلم وجهة نظر المانعين، بل يتعجب المسلم غير العربي ويصيبه الدهش بل التناقض من ادعاء المحبة منا مع الإغراق في إهمال تلك الأماكن، وعناية المملكة الباذخة بأماكن أخرى، وتقتيرها ـــ كما يفهمون ـــ في الانفاق على المحافظة والعناية بآثار نبيهم صلى الله عليه وسلم، على الرغم من قوة الاقتصاد في بلاد الحرمين، وأدعو الله وكل مسلم معي لها بالنماء والرخاء والاستقرار!

ويأتي طرف ثالث عملي لا يجد غضاضة في تقديم وعمل كافة التسهيلات الممكنة لزوار تلك الأماكن نظير رسوم تُحصِّلُها المملكة، أو تسيير رحلات سياحية خاصة،

مع التنبيه عليهم بأنها ليست من شعائر العمرة ولا الحج ولا تتبع أي عبادة إسلامية على الإطلاق، وتكون النية شيئًا من الاسترواح، وإشباع رغبة التطلع وحب المعرفة للأماكن التي مر أو أقام فيها رسولهم صلى الله عليه وسلم، ولا يعتقدون أن مثل هذه الزيارات لمثل هذه المزارات مع ما تجره من نفع، لن يهدم أركان الدين، ولن يعيد الناس إلى الشرك أو عبادة الأوثان، خاصةً وأن الدولة حتى الآن لم تفلح في وضع يدها بقوة ضد من يصعدون إلى الغارين: حراء وثور.

أما على أرض الواقع فهناك من لا يعبأون بالفتاوى والإرشادات، فكثير من المسلمين أثناء الحج أو العمرة ينتهزون ميلان الجو نحو الغيوم ثم يتجهون لصعود جبلي ثور وحراء أو أحدهما، بل لا يمنعهم عن مقصدهم شدة الحرارة، أو أشعة الشمس اللاهبة، صغارًا كانوا أو كبار السن من النساء والرجال، عرب أم عجم، حتى بلغ عدد الحجاج المتجهين لأعلى الجبل حوالى 20 ألفًا يوميًا بحسب ما ذكره مشرف الفترة المسائية بمركز جبل النور، وخير شاهد على هذا الصعود اليومي، جرائد المملكة بل وتنقل رغبات القوم المحمومة في تتبع خطى آثار الرسالة.

ـــ سؤال وجيه:

قابل أكثر من صحفي أكثر من صاعد وهابط إلى غار حراء لاستطلاع وجهة نظرهم في إصرارهم على الصعود على الرغم من المخاطر التي يلاقونها، وتحذير العلماء بعدم مشروعية هذا الصنيع.

ـــ قبل أن أعرض الإجابات، سأستعرض مخاطر الصعود إلى الغار:

1ـ يواجه الصاعد لجبل النور هجوم شرس من قبل القردة الجائعة.

2ـ عدم وجود محطات إسعاف تقدم خدمات صحية للصاعد للجبل.

3ـ خلو الموقع من نقاط لتوزيع المياه الباردة أو العصائر.

4ـ أثبتت دراسة صادرة من معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج، أن جبل النور من أكثر الجبال في مكة المكرمة جلبًا للصواعق.

ـــ على الرغم من تلك المخاطر وبدعية الصعود، كانت هذه إجابات بعض الصاعدين:

يقول الحاج محي الدين صابر "45 عاما": (جئتُ من تركيا وحرصت على زيارة جبل النور لأن القرآن نزل في هذا المكان، أردت الزيارة فقط وأعلم أن ذلك ليس من مناسك الحج، هنا ترى كل شيء بقلبك أنه أمر لا يمكن وصفه بالكلمات).

يقول الحاج اليمني ناصر المطري "50 عاما": (جئتُ من أجل رؤية الغار حيث كان يتعبد النبي محمد ونزل الوحي عليه، وأتطلع شوقًا للصعود لهذا المكان، وقد كان النبي محمد يصعد قبل أن ترصف الطرقات وبلا مواصلات ونحن نستصعب الصعود والطريق مجهزة).
يقول الكازاخستاني قاري بيك من مدينة "شيمكيت"، والذي بلغ عامه الستين وزيادة، ومصمم على الصعود، بينما المطر يهطل فوق رأسه: (لقد أجريت عمليتي قلب لكن محبتي للنبي محمد دفعتني لزيارة المكان، وحتى لو استمر هطول الأمطار سأصعد حتى قمة الجبل، لقد سبقني أولادي الثلاثة وسألحق بهم).
تقول الحاجة الاندونيسية "سوهانا محمد" 53 عامًا: (يجب علينا زيارة جبل النور والتعرف على غار حراء، جئتُ متأخرة لأن معظم أفراد بعثتي أنهوا الزيارة في وقت مبكر، وتأدية فريضة الحج لن تكتمل دون زيارة غار حراء).
ـــ حراء .غار أصابه الإهمال:

لعل من يطالع المقالات الموجودة ببعض الصحف السعودية والعربية التي تتناول هذا الإهمال المرعب لغار حراء وما يمثله من مكانة بعيدة عن القداسة ولكنها قريبة من القلب والروح باعتباره المكان الذي تعبَّد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه تعالى، وتلقى فيه أول آيات القرآن الكريم مضمخة بعطر السماء، سيصاب بدهشة وغضب لا يفسرهما المحافظة على الدين من الشرك والوثنية.
أنقل ما كتبته الكاتبة الأردنية أروى طارق التل التي تكاد تصرخ حروفها تعبيرًا عن غيظها: (أما الجبل أما الاستراحات وأما الدرج، فيمكنك بأدنى ملاحظة أن تطلق عليه جبل المزبلة أو جبل المهزلة وتلك هي قضيتي، وليس لقضيتي علاقة ببركة المكان ولا بالتبرك ولا بالخلاف الفقهي والنفسي بين العلماء والناس، ولا بالكتب التي كُتبت في ذلك، وما رد به فلان على فلان وما الذي نطلقه على تتبع عبد الله بن عمر رضي الله عنه لكل أثر من أثار الرسول صلى الله عليه وسلم، لدرجة أنه قد قيل في مسند الإمام أحمد بتحقيق الأرناؤوط أنه كان يحب أن يقضي حتى حاجته في المكان التي قضاها رسول الله، ناهيك عن الصلاة في المكان الذي صلى فيه أو الوقوف في المكان الذي وقف به، أو التفيؤِ بظل الشجرة التي تفيأ بظلالها، فكيف بغار حراء؟ وهل نطلق على ذلك كله تبرك به عليه السلام أم أنه اقتداء أم أنه وجد المحبين العاشقين؟ قضيتي أبسط بكثير من ذلك ولا خلاف فقهي فيها

لأحد، إلا للذين يعشقون القذارة. مكان كهذا وصلت فيه القذارة مبلغها ووصل فيه الإهمال أشده. فما علاقة نظافة المكان وما علاقة نظافة جبل كريم كهذا، كان مهدًا لبسط أولى آيات القرآن عليه بالتبرك؟ ولماذا يهمل كل هذا الإهمال؟ هل من الصعوبة بمكان تشكيل لجنة للتناوب على نظافته أو لكنسه من أوساخ تتراكم عليه بحكم زيارة الناس له وصعوده؟ أو ألم يقل محمد بن عبد الله 'نظفوا أفنيتكم' أما إذا كان فناء الإسلام بهذا الاتساخ فمن هو يا ترى المسؤول عن ذلك؟ أم هل عجزت ميزانية المملكة عن هندسة درجه وإضاءته وترتيبه وتحسينه كخير ما يليق، خدمة للناس وبعض تسهيل، فأنت تتكئ في جزء منه على حجارة الطريق أما في الجزء الآخر فعلى (درابزين) أبكم يصم الأيدي المتعبة عن النهوض بالأجساد، أما اذا سألتَ عن استراحاته فليست أكثر من مكان لنعت الفقر وشحه).

سأكتفي بنقل بعض عناوين وتعليقات الصحف السعودية، خاصةً وأن أكثر من دولة تنقل هذا الإهمال بالصور والفيديو لأغراض سياسية تتقاطع مع سياسة المملكة على خلفيات مذهبية:

ـــ "سبق" رصدتهم، والزوار يستغربون تجاهل الجهات المعنية له رغم مكانته غار حراء نقطة التقاء الوحي بالرسول تديره عمالة مخالفة وتتصرف فيه [1].
ـــ «جبل ثور» شاهد على التاريخ الإسلامي، يعاني ضعف الخدمات، بدوره، أبدى المؤرخ الإسلامي الدكتور سمير برقة خلال حديثه إلى «الحياة» حزنه الشديد حيال ما يعيشه غار ثور حالياً من الإهمال، وعدم وصول يد العناية والاهتمام له من الجهات المعنية التي من بينها هيئة السياحة والآثار. وقال برقة إن المسار إلى جبل غار ثور صعب ووعر، إذ إن صعوده يستغرق الساعات دون وجود أي اهتمام من أمانة العاصمة المقدسة التي تستمر في إعطاء تراخيص البناء على مدخله، وذلك يصعب المرور منه، مطالباً بالإسراع في تنفيذ مشروع تطويري يربط غار ثور بحراء، وذلك من خلال جبل ثبير الواقع في منى، عبر مركبات «التلفريك» المعلقة، إذ يجسد المشروع قصة تروى وتشاهد على الطبيعة تربط الناس بتاريخهم. وأفاد برقة بأنه توجد توجيهات صدرت في وقت سابق، تفيد بالمحافظة على غار ثور، غار حراء، جبل الرحمة، إذ يجب أن تعمل الجهات المعنية على تفعيلها، لا سيما

وأن العاصمة المقدسة تشهد خلال الفترة الحالية كثافة أعداد المعتمرين والحجيج[2].
ـــ غار حراء وجبل ثور بين لهفة ارتياد المزارات وحالات الغش [3].
ـــ جبل النور في ظلمة الإهمال [4].

ـــ تطوير "حراء" بين الرفض والقبول:

في الوقت الذي يطالب البعض بضرورة تطوير غار حراء لما له من المكانة في قلوب عامة المسلمين، كانت هناك دعوة متطرفة تطالب ليس بإغلاقه فحسب بل بإزالته تمامًا وليس وحده بل ومعه غار ثور أيضًا، وذلك بحجة حماية الناس من الخرافات!

كما كان هناك صوت وحيد ضعيف يطالب بإحياء الأماكن التاريخية باعتبار أنها شهدت أحداثًا حاسم وأنها من مكتسبات الأمة، وأن المحافظة عليها يزود الأمة بتيار روحي، إلا أن الصوت الضعيف قوبل بقصف عنيف من قبل العلماء الرافض لهذا الطرح من أساسه.

إلا أن صوت المطالبين من الاقتصاديين وغيرهم باستثمار منطقة جبل غار حراء حال وتطويرها كان أعلى، فقد رأوا أن هذا الاستثمار يمكن أن يحقق دخلًا سنويًا يبلغ نحو سبعين مليون ريال، كما يوفر نحو مائتي فرصة عمل لأبناء مكة وحدها. والأمر يستلزم فقط إنشاء سلالم وتعبيد الطرق، وتوفير رجال أمن ومركز للهلال الأحمر ومصورين ومرشدين يقومون بمرافقة الزوار مقابل مبلغ مالي بسيط بما يؤدي إلى تحريك القطاع السياحي الذي سيحرك قطاع الخدمات من عمالة وفنادق وسيارات وخلافه، كما رأوا أن الاهتمام بالجانب السياحي لا يحقق مردودًا ماليًا فقط، بل ومردود تربوي وثقافي وإبداعي، فاستثمار غار حراء في النهاية هو مشروع حضاري أكثر منه اقتصادي.جاءت الموافقة الملكية "المقام السامي" على قيام الهيئة العليا لتطوير مكة المكرمة والمشاعر المقدسة بإجراء دراسة شاملة لغار حراء من أجل تسهيل الصعود إلى الغار في أعلى الجبل . وبدأت

الهيئة العليا في إعداد الدراسة من خلال خبراء ومختصين ومن المتوقع الرفع للمقام السامي بتفاصيل الدراسة خلال أشهر قليلة،ومن المقترحات المتوقع الرفع بها إنشاء وسائل نقل متطورة عبر العربات المعلقة (التلفريك)[5].

ولكن سرعان ما نبه عضو هيئة كبار العلماء فضيلة الشيخ العلامة صالح الفوزان إلى أن تطبيق هذه الدراسة وإدخال وسائل متطورة لزيارة الأماكن المذكورة قد تكون ذريعة للشرك والتبرك بتلك الأماكن. موضحًا بأن النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة لم يكن يذهب إلى غار حراء، ولا إلى غار ثور بعد الهجرة، وكذلك أصحابه من بعده لم يكونوا يذهبون إلى أي من تلك الأماكن في مكة بقصد التعظيم والتبرك، وإنما كان وجهتهم وذهابهم فقط إلى المشاعر المقدسة لإقامة مناسك الحج المشروعة فيها وقت الحج، وذلك قطعًا لوسائل الشرك بالله، ومنعا للزيادة في الدين وابتداع ما لم يشرعه الله.

من المؤكد أن هناك بواعث من خوف وراء تحذير العلماء من فكرة تطوير المقدسات أو الأماكن التاريخية الإسلامية في مكة المكرمة وغيرها، وذلك مما رصدته وسائل الإعلام من هذا الكم من الاعتقادات الخاطئة والبدع التي يقع فيها بعض الحجاج على جبل النور، من مثل ما يقوم به بعضهم ممن يدخلون غار حراء مهللين بالدعاء، والبكاء بداخله، والصلاة فيه لغير القبلة أو كتابة اسماء مَن لم يتمكنوا من أداء الحج، معتقدين أن ذلك سيحقق لهم الأمنية بالحج، ومَن لم يستطع الدخول بسبب شدة الزحام فإنه يقوم بالطواف حوله والتبرُّك بأشجاره أو وضع صورٍ وقصاصاتٍ من الشعر والملابس وإخفائها بداخله معتقدين أنه سيعود إليه مرة أخرى، والتقاط بعض الحجارة من أعلى الغار لاستخدامها للرجم أو للسفر بها معهم للتبرُّك، كما قام بعضهم ببيع دجاجٍ بأعلى الجبل يُقدَّم قرابين ويُذبح هناك.

ـــ بركة غار حراء والتقديس المكاني:

نلقي باللوم على الذين يتبركون بغار حراء وغيره من الأماكن التي لصقوا القداسة لها ـــ بزعمهم ـــ ولا يوجد نص واحد صحيح يدعو لذلك من قرآن كريم أو سنة مطهرة.

يقول الشيخ بن عثمان الشيخ عمر[6]: (اكتسب ـــ غار حراء ـــ بمجيئه صلى الله عليه وسلم ومجاورته شرفًا كبيًرا ومجدًا رفيعًا حتى إنهم قالوا :يستجاب

دار ناشري للنشر الإلكتروني

الدعاء فيه، وفي "المواهب اللدنية" قال المرجاني في فضائل حراء وما اختص به أبياتا منها:

تأمل حراء في جمال محياه فكم من أناس من حلى حسنه تاهو
فمما حوى من جا لعلياه زائرا يفرج عنه الهم في حال مرقاه

قال الزرقاني في شرحه ج ١ ص ٤١٥: أي من جاءه زائرا للتبرك بحلول المصطفي وجبريل فيه،كما نزل صلى الله عليه وسلم في أماكن حل بها أنبياء ليلة الإسراء، ومنها:

به خلوة الهادي الشفيع محمد وفيه له غار له كان يرقاه

ومنها:

ويقبل فيه ساعة الظهر من دعا به وينادى من دعانا أجبناه

أي يقبل في غار حراء دعاء من دعا فيه .قال الزرقاني :والمرجاني هو عبد الله بن محمد القرشي الإمام القدوة الواعظ المفسر أحد الأعلام، قتل بتونس سنة ٦٠٩ ه وسيأتي في باب التبرك بما شرب منه صلى الله عليه وسلم أن الإمام النووي رحمه الله صرح بأن مما يتبرك به دخول الغار الذي دخله صلى الله عليه وسلم، والغار الذي دخله صلى الله عليه وسلم يصدق بغار حراء وبغار ثور . وقال في "قلائد الخرائد وفرائد الفوائد" للشيخ عبد الله باقشير،ج ١ص ٢٧٦ وينبغي أن يُزار ويُتَبرك بغار حراءٍ وهو الجبل الذي أولُ نزولِ الوحي فيه).

ولم يترك الكاتب في هذا الكتاب شيء لمسه الرسول صلى الله عليه وسلم أو داسه أو زاره أو مما ينتمي له بالجسد أو بالملكية إلا و أنزل البركة عليه وأجازه بعد أن أورد الشواهد القولية والفعلية من العلماء وكتبهم ليقيم الحجة على من ينفون البركة، ولعل هذا كان مسوغًا لمن يتابعونهم من مواطنيهم أن يعتقدوا في هذا، بل يأتون المشاهد المقدسة تلك وقد شوه مشايخهم علماء الحجاز لمنعهم الصعود والبركة، فأي جهل يحمله هؤلاء، وأي مشاعر عدائية يحملونها تجاه من يمنعهم عن بدعهم تلك!

على الرغم من المقالات التي نشرت ومازالت تنشر حتى تاريخه من مفكرين وعلماء أجلاء والتي تدعو إلى إحياء الآثار الإسلامية المنثورة في مكة والمدينة وغيرها والاهتمام بها، والدوافع النبيلة وراء دعواهم تلك من وضع شواخص تحدد المواقع التي نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وغيرها من المواقع بعد اتخاذ الحيطة اللازمة لمنع أي تجاوز يعطيها صفة

التقديس أو التبرك أو الانحراف عن مقتضيات الشرع؛ وذلك لكي يقف كل من يريد على ما عاناه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في رحلته تلك، على أن يكون لتلك المواقع طرقًا فرعية معبدة بعيدة عن الطريق الرئيس، على أن تقام بها نزُل واستراحات للزائرين والسائحين، مع العناية اللازمة بتسهيل طرق الصعود إلى أماكن تواجده صلى الله عليه وسلم بغاريّ حراء وثور، وكذلك مواقعه في المدينة المنورة، ومواقع غزواته، وغيرها.

كل هذه الدوافع النبيلة والآراء التي راقت لأصحابها، رصدها وغيرها العلامة ابن باز، ورأى فيها مخاطر تمس العقيدة؛ فالعناية بالآثار على الوجه الذي ذكر يؤدي إلى الشرك بالله جل وعلا؛ لأن النفوس ضعيفة ومجبولةً على التعلق بما تظن أنه يفيدها، والشرك بالله أنواعه كثيرة غالب الناس لا يدركها، والذي يقف عند هذه الآثار سواء كانت حقيقةً أو مزعومة بلا حجة يتضح له كيف يتمسح الجهلة بترابها، وما فيها من أشجار أو أحجار، ويصلي عندها ويدعو من نسبت إليه، ظنًا منهم أن ذلك قُربة إلى الله سبحانه، ولحصول الشفاعة وكشف الكربة.

كما رد الإمام ابن باز على من دعا إلى تطوير الأماكن الأثرية في المملكة العربية السعودية لزيارتها من قبل المسلمين بصفة مستمرة لضمان الدخل بعد نفاذ البترول، وذلك تأسيًا بدولة مثل الفاتيكان من اعتمادها على السياحة الدينية وما تمثله لها من كونها أحد الدخول الرئيسية للاقتصاد الإيطالي، وأن إسرائيل قد قامت ببيع زجاجات فارغة على اليهود في أمريكا على اعتبار أن هذه الزجاجات مليئة بهواء القدس، فيقول الإمام: (أما التمثيل بما فعله اليهود والنصارى فإن الله جل وعلا أمر بالحذر من طريقهم؛ لأنه طريق ضلال وهلاك، ولا يجوز التشبه بهم في أعمالهم المخالفة لشرعنا، وهم معروفون بالضلال وإتباع الهوى والتحريف لما جاء به أنبياؤهم، فلهذا ولغيره من أعمالهم الضالة نهينا عن التشبه بهم وسلوك طريقهم. والحاصل أن المفاسد التي ستنشأ عن الاعتناء بالآثار وإحيائها محققة ولا يحصى كميتها وأنواعها وغاياتها إلا الله سبحانه، فوجب منع إحيائها وسد الذرائع إلى ذلك، ومعلوم أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أعلم الناس بدين الله، وأحب الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكملهم نصحاً لله ولعباده، ولم يحيوا هذه الآثار، ولم يعظموها، ولم يدعوا إلى إحيائها، بل لما رأى عمر رضي الله عنه بعض الناس يذهب إلى الشجرة التي بويع النبي صلى الله عليه وسلم تحتها أمر بقطعها خوفًا على الناس من الغلو فيها والشرك بها،

فشكر له المسلمون ذلك وعدوه من مناقبه رضي الله عنه. ولو كان إحياؤها أو زيارتها أمرًا مشروعًا لفعله النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، وبعد الهجرة، أو أمر بذلك أو فعله أصحابه أو أرشدوا إليه، وسبق أنهم أعلم الناس بشريعة الله وأحبهم لرسوله صلى الله عليه وسلم وأنصحهم لله ولعباده، ولم يحفظ عنه صلى الله عليه وسلم ولا عنهم أنهم زاروا غار حراء حين كانوا بمكة، أو غار ثور، ولم يفعلوا ذلك أيضاً حين عمرة القضاء ولا عام الفتح ولا في حجة الوداع، ولم يعرجوا على موضع خيمتي أم معبد ولا محل شجرة البيعة، فعلم أن زيارتها وتمهيد الطرق إليها أمر مبتدع لا أصل له في شرع الله، وهو من أعظم الوسائل إلى الشرك الأكبر، ولما كان البناء على القبور واتخاذ مساجد عليها من أعظم وسائل الشرك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، ولعن اليهود والنصارى على اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد، وأخبر عمن يفعل ذلك أنهم شرار الخلق).

لا يكتفي الدكتور محمد بن إبراهيم السعيدي [7]بالاتكاء على أقوال المانعين من أعلام الفقه الإسلامي في المملكة العربية السعودية لصعود الغارين، بل يتعامل معه من منظور فقه الواقع، أو إن شئنا القول، يتعامل لا بالمنظور النظري الذي سيودع رأيه الكتب ثم يمضي بل يتعامل بمنظور حياتي عملي يبحث عن حل تطبيقي يفيد المسلمين ويرفع عنهم الحرج، غير مجافٍ لحكم الشريعة فيما يقول، ويفند الآراء بعد استعراضها، ولا يغفل الجانب النفسي في صدر المؤمن الصاعد بحب للغارين: حراء وثور، فيقول: (لم أجد فيما رجعت إليه من فتاوى في هذه المسألة خلافًا في أنه لا يجوز اتخاذ زيارة هذين الأثرين عبادة، لأن ذلك لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح أو ضعيف، بل لم يرد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحدا من أصحابه زارهما .كما لم أجد خلافا في أنه لا يجوز التبرك بهما؛ لأن البركة إنما تطلب بطريق الشرع، ولم يرد الشرع بشيء من ذلك .ولم أجد خلافًا أيضا في أنه إذا تحقق كون زيارتهما ذريعة للابتداع والشرك فيمنع من زيارتهما إجراء لقاعدة سد الذريعة، والشرك والبدعة والقول على الله تعالى بغير علم من أعظم الأمور التي ينبغي سد الذرائع الموصلة إليها .ووجدت أن الخلاف في الحقيقة منحصر في أمر هو: هل زيارة الغارين ذريعة للبدعة أم ليست ذريعة لها؟ فمن يرى الجواز لم يلحظ في صعود المسلمين لرؤية الغار ذريعة إلى البدع، بل رأى فيها تذكر سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاعتبار به، وربما حصل من وراء ذلك رقة للقلب تنبعث عن تتبع آثار

المحبوب ومن رأى المنع من زيارتها لحظ أنها ذريعة للابتداع واعتقاد سنيتها، أو أنها جزء من المناسك).

يرى الدكتور السعيدي أن تمييز مقاصد الناس على كثرتهم أمر متعذر، فهل نغلب جانب الإنكار لكون الغالب هو قصد القربة والبركة والتعبد، أم نغلب جانب ترك الناس وما هم عليه اقتداء بمن سلف من العصور الماضية وعدم محاسبة الناس على نياتهم؟ وكلتا الوجهتين في تقديره لها ما يبررها، فتغليب جانب الإنكار سدًا للذريعة لنا فيه أسوة، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك في حادثتين شهيرتين : أولاهما: أنه صلى الله عليه وسلم حج واعتمر وبقي في مكة زمنًا بعد البعثة وأيامًا بعد الفتح وحجة الوداع، ولم ينقل عنه في رواية صحيحة أو ضعيفة أنه زار هذين الجبلين .وقد يجاب عن ذلك بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يزرهما خشية منه أن تبقى سنة بعده، وقد عرف هذا من أفعاله صلى الله عليه وسلم أنه كان يترك بعض ما يحبه خشية أن يفرض أو أن يبقى سنة بعده فيشق على أمته.

أما ثانيهما: أن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله قد توافقت على إثبات سد ذرائع الشرك.

يعود الدكتور السعيدي لمناقشة الأمر بالموائمة بين الشرع والواقع على الأرض، فيقول: (أما كون الصعود إلى الجبلين ذريعة للابتداع والتبرك بما لم يشرع كونه محلًا للبركة، فهذا فيما يبدو لي من الأمور التي أثبت التاريخ والواقع تحققها، وإثبات ذلك أمر لا يعسر .فأما من جهة التاريخ، فإنه لم يوجد أثر من الآثار الدينية في جميع أنحاء العالم الإسلامي إلا ووقع في تمكين الناس منه من البدع والخرافات ما لا يخفي على ذي عينين، بل إن من الآثار التي وقع الناس في الابتداع فيها آثار مزعومة ليس لها أصل معروف ككثير من المقامات المنتشرة في ديار المسلمين .أما الواقع: فإن هذين الجبلين لم يعودا ذريعة للابتداع، بل إن الابتداع أصبح أمرًا واقعًا لديهما، فلو سألت الصاعدين اليوم من الحجيج والمعتمرين إلى هذا الجبل عن الغرض من صعودهم لتبين لك أن السواد الأعظم منهم يعتقدون أن للصلاة والدعاء من الفضل ورجاء الإجابة عند الغارين ما ليس لهما عند سواهما من الأماكن، حتى إنك لترى الشيوخ الطاعنين والعجائز الهرمات يتكلفون للصعود إليهما ما لا يتكلفون للعبادات المشروعة .لكن

المنع من الصعود إليهما ليس مجديًا في درء هذه المفسدة، بل أزعم أن تجارب المنع أو التضييق على الصاعدين أثمرت مفاسد كثيرة، منها:

(1) نقمة كثير من الناس على المنهج السلفي الذي فيما يتوهمون هو السبب في الحيلولة بينهم وبين الوقوف على آثار نبيهم صلى الله عليه وسلم، لأنه منهج لا يركز كما ينبغي على حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان السلفيون محبين للنبي لأحبوا آثاره شأن صحابة رسول الله الذين كانوا يتسابقون على شعره وأظافره ونخامته .وللأسف لا تجد هذه الأسئلة والشبه التي تتوارد على المسلمين عند المنع أو التضييق جوابًا قويًا بقدر ما تجد هذه الشبه دعمًا من جهات علمية ذات مواقف سيئة من المنهج السلفي.

(2) سقوط عدد من الزائرين جراء المشقة التي يعانونها عند صعودهم عبر الطريق عير المهيأة، والتي أوصت اللجنة الدائمة بعدم تغييرها، ولاشك أن درء هذا الخطر عن الناس من أعظم المصالح التي ينبغي جلبها حتى لو خالفناهم في حكم الصعود إلى هذين الغارين.

(3) استغلال كثير من الجهلة الوضع المهمل لدى هذين الغارين في التسويق لمزيد من البدع، أو استغلال الزائرين ماديا بشتى صنوف الاستغلال الممكنة .إذا فالمفاسد التي تحدث من الصعود إلى هذين الغارين لا يمكن أن يكون المنع أو الحكم بالتحريم وسيلة لدرئها، وبما أن المطلوب هو درء المفسدة لا غير فإن بإمكاننا أن نجد وسيلة نحقق بها درء المفسدة، ولا يترتب عليها هي أيضا مفاسد كما هو حاصل مع المنع والتحريم . بل يمكننا أن نجد وسيلة تتحقق منها مصالح عظيمة، إضافة إلى ما ينتج عنها من إلغاء المفاسد.هذه الوسيلة هي تنظيم الصعود إلى هذين الغارين، والعناية بالصاعدين قبل صعودهم وبعده توعويًا وجسديًا وذلك بإنشاء نقاط للصعود يتم ترتيب الناس وتوعيتهم بمختلف لغاتهم وتنبيههم إلى مكانة هذين الجبلين الحقيقية، وأنها لا تعدو أن تكون مكانة تاريخية، ولا يجوز اختصاصها بشيء من العبادة، كما يتم من خلال هذه النقاط مراقبة تصرفات الزائرين، وإيقاف من أراد ممارسة أي نوع من البدع بطريقة لائقة بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.وبذلك نكون قد أمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ودرأنا المفسدة، وحققنا عددا من المصالح، منها:

(1) التوعية إلى حقيقة المنهج السلفي، وحقيقة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولاشك أن ما يحصل لدى المسلم من الرقة عند مشاهدة آثار النبي الكريم يمكن استغلالها في إقباله على النصح بالالتزام بسنة الرسول التي تنهى عن الزيادة في الدين والقول على الله بغير علم. وهذا هو خلاصة منهج السلف الذي ننتسب إليه.

(2) الرد العملي على ما يقال عن السلفية أنها دعوة مناهضة لمحبة الرسول واتباع آثاره، كما أنها دعوة تحجر على حرية الناس في اختيار ما يشاهدون.

(3) القضاء بإذن الله على ما ينتج عن إهمال هذين الجبلين من حوادث سقوط واستغلال تساهم في تشويه صورة الوطن وأهله.

يتقدم الدكتور السعيدي بخطة مقترحة لتنظيم ارتياد جبلي حراء وثور مما لا بأس به شرعًا شريطة أن يكون لقصد الرؤية وحسب دون التعبد أو ابتغاء البركة فيما لم يرد الشرع بتخصيصه بالبركة، باعتبار أن هذا الارتياد أولى من المنع لكونه أجلب للمصلحة وأبعد عن المفسدة:

ـــ أولًا: إنتاج فلم سينمائي تسجيلي مدته ربع ساعة على أعلى مستويات الإخراج التسجيلي، وتوفر له أفضل إمكانات الإنتاج، ولا مانع أن يقام من أجله مسابقة للسينما التسجيلية للوصول إلى أفضل مستوى ممكن من حيث الإنتاج والإخراج ووفرة المعلومات والقدرة على التأثير في المشاهد. ويتضمن الفلم المقترح ما يلي:

1ـــ الحدث التاريخي الذي جعل لهذين الجبلين كل هذه المكانة التاريخية.
2- اقتصار مكانة الجبلين على جانبها التاريخي، وأنه ليس لهما مكان في العبادات والاعتقاد.
3- أن من عظمة الإسلام أن لا يعبد الله تعالى إلا بما شرع، ولا يتقرب إليه إلا بما شرع، وليس مما شرعه الله تعالى التقرب إليه عند هذين الأثرين.

وقد ثبت بالتجربة ما للإنتاج السينمائي المتميز من القدرة على التأثير على القلوب والعقول مما يجعلنا نشعر بتقصير كبير حين لا نستفيد من هذه التقنية، لاسيما وأن

من السعوديين من حصدوا جوائز دولية في مجال السينما التسجيلية. ويطبع الفلم على ست نسخ يصاحب كل نسخة تعليق صوتي بإحدى اللغات الحية التي يتداولها المسلمون كما يصاحبها تعليق كتابي بلغة أخرى، وبذلك يكون الفلم مترجما إلى اثني عشر لغة مكتوبة ومسموعة.

ـــ ثانيًا: ينشأ لدى كل من الجبلين نقطة للصعود والعودة تشتمل كل نقطة على عدد من المنشآت، منها:

1- ست قاعات لمشاهدة الفلم التسجيلي بنسخه الست، تستوعب كل قاعة عشرين مشاهدًا.
2- قاعة للتوجيه والإرشاد.
3- صالتان للانتظار.
4- ممر لتحديد عدد من يسمح لهم بالصعود.
5- محل لبيع المأكولات الخفيفة والماء والمرطبات.
6- غرفة عيادة طبية يشغلها طبيب وممرض وتحت سيطرتها سيارة إسعاف للنقل العاجل.

ـــ ثالثًا: طباعة مطويات دعوية توزع على المرتادين.
ـــ رابعًا: طباعة الفلم التسجيلي مضافا إليه محاضرة بلغة الفلم.

ـــ خامسًا: يراعى في المطويات والمحاضرات أن تكون بقلم وبصوت أحد علماء العالم الإسلامي المشهود لهم بانتهاج المنهج السلفي القويم، وذلك كي يعلم المرتادون أن هذا المنهج بعيد عن الإقليمية كما يروج له أعداؤه.

ـــ سادسًا: تشغل القاعة المعدة للتوجيه والإرشاد بأحد الدعاة المتميزين لإرشاد الناس إلى ما يحتاجون الإرشاد إليه، والإجابة عن أسئلتهم التاريخية والدينية.
ـــ سابعًا: يشترط في الدعاة الذين يحضرون إلى هذين الأثرين أن يجتازوا دورة علمية قصيرة في أصول الإرشاد والتوجيه.
ـــ ثامنًا: مع إبقاء الجبلين على حالهما دون عبث تحت أي مسمى كان، يعاد تحسين الدرج القديم، وينشأ نقاط للاستراحة أثناء الطريق الجبلي.

والواقع يؤكد أن الدكتور السعيدي لم يكن وحده المبادر إلى تقديم المقترحات الجادة والمخلصة لتنظيم زيارة غاري حراء وثور، فقد سبقه اللواء محمد سعيد الحارثي المدير الأسبق لشرطة العاصمة المقدسة، حين أسهم ببعض الأفكار التي قد تحتاج للدراسة والتطوير للاستفادة من الآثار الإسلامية التي يصل إليها المسلم وغيره بحيث يمكن أن تسهم في توفير فرص عمل للشباب وإشاعة الوعي الديني لدى المسلمين ومحاربة الشركيات والبدع والخرافات، وبدأ الرجل بغاري حراء وجبل ثور، وطالب بإنشاء صاعدة "تلفريك" ومسرح عند سفح جبل كل منهما بحيث يتسع المسرح لأعداد كبيرة من الناس ويحتوي المسرح على عدة أجنحة لكل جناح لغته الخاصة كالإنجليزية والأردية والاندونيسية وغيرها من لغات الحجاج بحيث تتم استضافة الحاج بها قبل صعوده بالصاعدة ليشاهد فيلمًا يعد إعدادًا جيدًا من أكثر من جهة وتحت إشراف وزارة الدعوة والإرشاد عن الأثر وحياة الرسول فيه وغير ذلك مما يراد إيضاحه من مفاهيم صحيحة تؤكد على أن هذا الأثر يقدر ولا يقدس ثم بعد خروج الحاج من المسرح تتم الجولة بالصعود إلى أعلى الجبل بركوب الصاعدة ثم العودة بعد أن يكون قد شاهد الغار واستمتع برؤيته، ويقول [8]: (وأنا واثق أن هذا المشروع لن تتحمل الدولة أي تكاليف حيث سيكون القطاع الخاص هو الممول لهذا المشروع على ان تتولى أمانة العاصمة المقدسة وضع التصاميم وتحديد المساحات أسفل تلك المواقع التي قد تحتاج إلى نزع ملكيات للمسرح ومواقف للسيارات إضافة إلى المراكز الخدمية كالمطاعم والمقاهي والبقالات واعتقد ان مشروعا مثل هذا ان تحقق فإن العائد منه مجز ماديا وثقافيا وسيكون قبلة لكل زائر لمكة سواء كان مواطنًا أو حاجًا طوال العام بل إنني أتخيل انه سيأتي اليوم الذي تتم توسعة المشروع أضعافًا مضاعفة بسبب الإقبال عليه ويمكن تعميم الفكرة في كل المواقع الاثرية والآمال معقودة على الرئيس العام لهيئة السياحة سمو الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز).

ولو شئنا لقلنا أن الأفكار المقدمة ـــ التي ذكرت وما لم أذكر ـــ كثيرة ومتشابهة، وبينها سنوات ولم يتم التنفيذ، ولو شئنا الدقة لقلنا ولن تنفذ؛ فالمعارضة الشديدة من هيئة كبار العلماء تجاه تلك المقترحات تجعل السلطة التنفيذية تتردد، فأحيانًا تتشجع وتقدم على إعطاء الأمر بالتخطيط، ولكن يقف الأمر عند التخطيط ولا يتحرك للتنفيذ.

وقد عكس هذا الصراع الخفي الظاهر معًا، العنوان الذي تصدر جريدة الرياض [9][نحتاج إلى تصحيح المفاهيم وبناء شراكة "الثقة والتعاون" الآثار الإسلامية، هاجس الخوف من «البدع» يعطل مشروع أمة]، وقد نقل كاتب المقال اللقاء الذي جمع بين سمو رئيس هيئة السياحة والآثار الأمير سلطان بن سلمان بالمملكة السعودية وبين بعض العلماء والمهتمين بالآثار الإسلامية وتطويرها داخل المملكة، وجاء كلام رئيس الهيئة يحمل في ثناياه أجوبة خفية على الأسئلة والشكوك التي تدور على الألسنة والصدور ممن ينادون ويصرخون بوجوب التطوير ويشكون في حدوثه في آن، وذلك لسطوة المعارضين لذلك التطوير، فيقول: (الآثار الوطنية اليوم محمية وليس لأي إنسان كائنا من كان أن يتعرض لها بالهدم أو التخريب أو التجريح، ونحترم غيرة الناس ونسترشد بالعلماء، إننا في هيئة السياحة حريصون عند بدء التطوير على أخذ آراء جميع الأطراف المهتمة بهذا الجانب وخصوصًا أولئك الذين كانوا يعارضون التطوير، بأن عملنا في الهيئة تعاوني وتضامني وكل خطة وضعت لتطوير قطاع الآثار والمتاحف قد دعونا لها الكثير من الناس، وإني قد تحدثت شخصيًا مع بعض مديري الجامعات وأشخاص آخرين وطلبت منهم معرفة المعارضين لتطوير الآثار في السعودية حتى ندعوهم ونجلس معهم، نحن لم ننغلق على أنفسنا ورأي الجميع هدفنا والآثار ليست ملكاً لشخص بعينه بل هي للجميع ويجب أن يتشارك الجميع في المحافظة عليه).

تلقف الكاتب خالد حمد السليمان بصحيفة عكاظ[10] تصريحات الأمير سلطان بن سلمان رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار بأن الآثار محمية بإرادة وطنية ولن يسمح بتخريبها أو تجريحها، ووجه له سؤالًا جعله عنوانًا لمقاله: هل زرت غار حراء يا سمو الأمير . وقد وصف السليمان هذه التصريحات بأنه كلام جميل ومسؤول، ويضيف موجهًا خطابه للأمير سلطان، فيقول: (لكنني آمل من سموه أن يزور أو يطلع على أوضاع غار حراء لأنه لو فعل فسيصدمه حجم الإهمال والتخريب والعبث والتشويه الذي أصاب هذا الأثر التاريخي! فقد حول بعض الزوار والوافدين جدرانه إلى مرسم لاستعراض مهارات التلوين والكتابة والزخرفة، ولو كان هناك من يعتني بالغار لما وجد هؤلاء أي فرصة لاستعراض مهارات وعضلات عبثهم! وإذا كان غار حراء يتعرض لمثل هذا العبث فكيف بآثار تاريخية أقل شأنًا في مواقع ومناطق أخرى).

ثم ينهي مقاله بالإشارة إلى العلة الإهمال من الأقوال التي يتشدق بها أصحاب الأصوات المقاومة للتطوير بدعوى حمايتها من التبديع وممارسة الطقوس الخرافية، فيقول: (أما حماية الآثار الإسلامية من التجريح بالممارسات الخرافية والبدعية فهو أمر لا يقل أهمية عن حمايتها من التخريب والعبث، فالآثار صلة وصل حضارية بالماضي لا جسر عبور للجهل والتخلف!).

وعندي من المقترحات التي أستطيع أن أقدمها في هذا الشأن والتي تأتي متوافقة مع من يعارض التطوير ومن يطالب به، وفي هذا الأمر سعة للأخذ والرد وصولًا إلى حل ترضي جميع الأطراف، ويأتي متوافقًا مع الشريعة السمحة الغراء، ويحافظ على آثارنا الإسلامية وأهمها "غار حراء" مهبط الوحي، بحيث لا تعكس صورته الحالية احتفاء المملكة واهتمامها بما مكنها الله تعالى على حراء وغيره، فيما قد يكون اتهامًا بازدرائها، وهذا ما لفت الانتباه إليه بشدة وبألم الأستاذ الدكتور أحمد بن صالح الطامي وكيل جامعة القصيم للشؤون التعليمية ورئيس نادي القصيم الأدبي، وواحد ممن حضروا لقاء الأمير رئيس هيئة تنشيط السياحة، فيقول: (إن واقعنا في المملكة يؤكد أننا متهمون بازدراء الآثار التاريخية وإهمالها، وأن الكثير من زوار المملكة، سواء من جاء للحج أو العمرة، أو من جاء لغرض آخر، يسألون أول ما يسألون عن المواقع الأثرية والمتاحف التي تحتضن تاريخنا ومقتنياتنا الأثرية، ثم يُصدم هؤلاء الزائرون بفقرنا في هذا المجال رغم ما تحتضنه أرضنا من آثار غنية، وقد آن الأوان للالتفات لآثارنا ورد الاعتبار لها وخصوصًا آثار عصر النبوة في مكة المكرمة والمدينة المنورة اللتين تحتضنان كنوزا هائلة من الآثار الإسلامية التي يتطلع كل مسلم إلى الاطلاع عليها واستشعار إشراقة ديننا الإسلامي وتاريخه وحضارته).

وفي إشارة واضحة للرد على من يعارضون تطوير الآثار الإسلامية، يرد الطامي بحسم وعلم مفندًا تلك المخاوف والشكوك، فيقول: (أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بأن نسير في الأرض وننظر في آثار الأمم السابقة للاعتبار، يقول تعالى في سورة آل عمران:(قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)، ويقول تعالى في سورة الروم:(أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها)، ويقول في سورة النمل:(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة

المجرمين)، فالمسلم مأمور بالنظر في آثار الأمم السابقة للاعتبار والاستفادة.لا يمكن تعطيل هذا الأمر الإلهي، بسبب التخوف من تحول الآثار إلى أماكن لممارسات مخالفة للدين، وقال إن التخوف من تحول هذه الآثار إلى أماكن لممارسات مخالفة للعقيدة الإسلامية هو أمر يبدو لي مبالغ فيه، ويمكن منع حدوث أي سلوك مخالف للدين بإخضاع هذه المواقع لرقابة أمنية صارمة كما هو معمول به في جميع المواقع الأثرية في العالم.إن التوعية وخاصة التوعية الإسلامية سيكون لها أثر بالغ في صرف الجهلة عن أي سلوكيات منافية للعقيدة، مشيراً إلى أننا لا يمكن أن نضيع تاريخنا وآثارنا وتراثنا خشية من ممارسات يقوم بها بعض الأميين، ونتجاهل ملايين الواعين من المواطنين والمسلمين والزائرين الذين لا يريدون من هذه الآثار سوى المتعة المعرفية واستشعار واستحضار التاريخ، وتقدير الإرث الحضاري لبلادنا عبر أطوار التاريخ).

وأرى أننا إذا صرنا في هذا الجدل الطويل، فلن نتقدم خطوة واحدة، إن لم تتقدم الدولة بعد مشاورة جميع الأطراف والوصول إلى رأي واجب التنفيذ يتوافق مع الشريعة السمحة الغراء، فسيصبح "غار حراء" ضائعًا، في تلك الهوة السحيقة بين واقعه المأزوم ومأموله الموهوم لسنوات قد تطول وتطول.

هوامش الفصل الخامس

[1] صحيفة سبق الإلكترونية في 15مارس 2015.
[2] الحياة السعودية، مكة المكرمة، سلطان الحجيلي، 5 يونيو 2015.
[3] صحيفة عكاظ، إبراهيم خضير مكة المكرمة، 20 أكتوبر 2011.
[4] صحيفة مكة المكرمة، فهد الحربي في 29 مايو 2016.
[5] صحيفة المدينة، 2011/09/19.
[6] عثمان الشيخ عمر، إقناع المؤمنين بتبركِ الصالحين، راجعه وصححه عبد الناصر علي حسين، الطبعة الخامسة، ص (90 ــ91)، مقديشيو، الصومال، 1429 هـ.
[7] محمد بن إبراهيم السعيدي: زيارة جبلي النور وثور، مؤسسة الإسلام اليوم، الأحد 01 شوال 1430 الموافق 20 سبتمبر 2009 .
[8] مقال: آثارنا المهملة، جريدة الرياض، 2012/10/18.
[9] جريدة الرياض، 2016/8/5.
[10] عكاظ، 2016/8/5.

الفصل السادس

حراء، بين الصوفية والشيعة

دأب المتأخرون من الذين يتابعون التصوف أو يهاجمونه على معاملته ككل لا يتجزأ كأنه وليد لحظة واحدة، فيحاكمونه باللحظة الآنية القائم عليها، مستلبين منه تطوره التاريخي عبر قرون، طرأ عليه فيها ما طرأ من دخائل وأصول ليست فيه، ومنهم من نسبه للإسلام في نشأته، وأن القرآن الكريم والسنة الصحيحة فيهما من الإشارات الدالة على تنمية الشعور الفطري بالتصوف بين كثير من المسلمين، ويرى البعض أن التصوف حركة اجتماعية جاءت كرد فعل طبيعي في الحضارة الإسلامية على حياة البذخ والترف التي بدأت بعد الفتنة منذ الحكم الأموي، وكان التصوف كنهج ذوقي رد فعل طبيعي على المناهج العقلية التي اتبعها المتكلمون والفلاسفة والفقهاء.

تأتي محاولة إثبات نشأة التصوف نشأة إسلامية صرفة، دفاعًا عنه تجاه محاولة مضادة من كثير من الباحثين الأجانب الذين يهدفون إلى تجريد العقلية الإسلامية بل تجريد الدين الإسلامي نفسه من كل الصفات النبيلة أو الجوانب الإبداعية، ولهذا فقد نسبوا التصوف إلى أصول غير إسلامية من الفرس أو الهند أو من الرهبنة المسيحية، غير أن هناك من كبار المستشرقين، مثل: نيكلسون، وماسينيون الذي بحث مصطلحات الصوفية وأرجعها إلى مصادرها الأولى: القرآن، والعلوم الإسلامية كالحديث والفقه وغيرهما[1].

تختلف الأقوال بين العلماء في تحديد التاريخ الذي نشأت فيه "الشيعية" أو "التشيع" أو "الشيعة" كفرقة أو مذهب، ولقد حاول بعض مؤرخي الشيعة قديمًا، [2] وتابعه بعض المعاصرين من مفكري الشيعة [3] إثبات أن الشيعة ظهرت عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وكانت لإحدى ثلاث فرق انقسمت عنهم الأمة [4]، وهذه مجازفة علمية تلفيقية لا تستند إلى واقع تاريخي، والتلفيق

سمة من سمات مؤرخي الشيعة،؛ فقد سبق لهم أن لفقوا من شجرات النسب الخيالية ليصلوا رجال الإسلام العظام بتاريخ الساسانيين بأي شكل [5].

يرى ابن خلدون [6] ومن وافقه على قوله [7] أن مبدأ التشيع كان عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وحادثة السقيفة، حين رأى جماعة من المسلمين أن أهل بيت النبي هم أولى الناس بخلافته، وأولى أهل البيت العباس عم النبي، وعلي أولى من العباس. فالاتفاق بين علماء السنة والجماعة على أن ظهور الشيعة وانتشارها جاء عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، بيد أن الاختلاف بينهم كان في تحديد نشأتها.

يرجع هذا الاختلاف إلى تعدد وكثرة الوقائع والأحداث التاريخية التي اتصلت بالمذهب والفكر الشيعي، لذلك تعلق كل باحث أو مؤرخ بحادثة أو واقعة حدثت في حياة المسلمين وانطلق منها في تحديد نشأة التشيع وابتدائه.
وقد أخطأ هؤلاء في هذه المسألة، لسببين رئيسيين: ــ الأول: أنهم نظروا إلى التشيع المنحرف على أنه فرقة دينية إسلامية، ومن ثم حاولوا ربطه بحادثة من الحوادث التي وقعت بين المسلمين واختلفوا فيها على أنها كانت وليدة تلك الحادثة أو الواقعة.
ــ الثاني: ما يقع فيه بعض الباحثين من التقليد لمن سبقهم دون بحث موضوعي، ونظرة فاحصة ناقدة لأفكار وعقائد هذا المذهب المنحرف[8].

التصوف وعلاقته بالتشيع، الاختلاف والتشابه

ليس بالجديد ولا الغريب أن نثبت ما للتصوف من علائق ووشائج قديمة بالتشيع؛ إذ ليس مِن قبيل المصادفات أن تَنشأ الحركةُ الصوفية المتطوِّرة في البصرة، وهي بيئةٌ شِبه فارسية، والواقع أنَّ الدارسَ لا بدَّ أن يتوقَّف عند هذا العدد الهائِل مِن الصوفية التي أصولهم إيران، والذين ترِد ترجماتهم في كتُب التصوُّفِ العربية، وأنْ يستوقفَه أيضًا أنَّ هؤلاء جميعًا كانوا مِن أصحاب جوامع الكَلِم، وأنَّ بداية التعمُّق الصوفي والإغراق في الرَّمز، أو ما عُرِف باسمِ الشطح على يدِ أبي يَزيد البسطامي، وهو مِن أصلٍ فارسي[9].

غير أنه يجب أن نفرق بين التصوف في منابعه الأولى والتصوف الذي انحرف فاتصل بالتشيع وغيره؛ فهذا العلمُ ـــ علم التصوف ـــ من العلومِ الشرعيَّة الحادثة في المِلَّة، وأصلُه أنَّ طريقَ هؤلاء القوم لَم تَزَل عند سلفِ الأمَّة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، طريقة الحقِّ والهداية، وأصلُها العكوف على العبادةِ والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زُخرف الدنيا وزينتها، والزُّهد فيما يُقبلُ عليه الجمهور من لذَّةٍ ومال وجاهٍ، والانفراد عن الخَلْقِ في الخَلوة للعبادة، وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسلف، فلمَّا فشَا الإقبالُ على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجَنَح الناسُ إلى مخالطة الدنيا، اخْتُصَّ المُقبلون على العبادة باسم الصوفيَّة والمتصوِّفة [10].

لهذا يجب ألا نسحب تلك العلاقة بين الصوفيَّة والشيعة على كل تاريخ التصوف الذي مر بمرحلتين في النشأة: أولاها تلك المرحلة التي استغرقت القرنين الأولين وغلب فيها الزهد والخوف الشديد من الله تعالى، أما المرحلة الثانية فتبدأ مع القرنين الثالث والرابع الهجريين حين تكلم المتصوفة عن السلوك والمقامات والأحوال والفناء والحلول والاتحاد، وما عُرفَ بـ "علم الباطن/علم الحقيقة"، أو ما يسمى بمرحلة "الشطح"، ولقد حاول الغزالي والقشيري استرداد التصوف من تلك الحمأة بترسيخ وتثبيت دعائم التصوف السني في القرن الخامس الهجري، ولكن قوَّض ما فعلاه ظهور تيار جديد "تيار التصوف الفلسفي" والذي أدخل فيه صوفية القرنين الخامس والسادس الميلاديين مصطلحات فلسفية استمدوها من مصادر عديدة متأثرة ومحملة بالمذاهب والفلسفات الأجنبية.

عند هذه النقطة من التاريخ قامت الصلة بين التصوف والتشيع وتوطدت، الأمر الذي لم يَفُت ابن خلدون أن يرصده ويتحدث عنه، فقال:

(ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملؤوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب "المقامات" له وغيره وتبعهم ابن عربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم، وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الأئمة مذهبًا لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب،

ومعناه: رأس العارفين، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد من مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان، وقد اشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب "الإشارات" في فصول التصوف منه، وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الأئمة عندهم)[11].

ثم وضع أبو سعيد محمد أحمد الميهي الصوفي الإيراني 430هـ أول هيكل تنظيمي للطرق الصوفية بجعله متسلسلا عن طريق الوراثة، ويمثل القرن السادس الهجري البداية الفعلية للطرق الصوفية وانتشارها حيث انتقلت من إيران إلى المشرق الإسلامي، فظهرت الطريقة القادرية المنسوبة لعبدالقادر الجيلاني 561هـ. كما ظهرت الطريقة الرفاعية المنسوبة لأبي العباس الرفاعي 540هـ، وفي القرن السابع الهجري دخل التصوف الأندلس وأصبح ابن عربي أحد رؤوس الصوفية 638هـ.

إن الخطأ الجلي في تسويق فكر الشيعة والصوفية على أنهما فكرين متطابقين تمام الانطباق، وفي هذا افتراء على المنهج العلمي، ينافي الحاصل في الواقع الذي يؤكد أن بينهما مناطق تشابه، ومناطق افتراق، وسأذكر بعض ما يختلفون فيه، وعلى الأقل الغلاة من الجانبين: أن الصوفية يؤمنون بكتاب الله تعالى بكامله، أما الغلاة من الشيعة فيزعمون تحريفه، ولقد أثبتُ في كتابي سياحة الوجدان في رحاب القرآن أن معظم القوم ينكرون ذلك التحريف وهذا من باب الأمانة العلمية، ولا ينكر أحد مدى محبة الصوفية للرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته، فيما يبحر الشيعة بقارب الإيذاء في بحار الشتم واللعن لآله الكرام رضي الله عنهم، ويوقر الصوفية أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويترضوَن عليهم، ويقولون بأن أفضل الأمة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليًا رضوان الله عليهم، أما الشيعة فيبغضون الصحابة جميعًا بل يكفرونهم ما عدا أربعة، وأخيرًا يؤمن الصوفية بالسنة المطهرة وكتبها، بينما الشيعة ينكرونها.

قد يظن البعض أن قوة العلاقة بين التشيع والتصوف لا تسمح بوجود خروقات ونزاع عقدي بينهما، فمع تسرب الشيعة إلى الطرق الصوفية تحت راية حب آل البيت ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان التصوف هو البوابة الملكية لعبورهم إلى ضفة أهل السنة والجماعة والتشغيب على معتقداتهم، وهو ما فعله التصوف في المقابل حين اخترق التشيع في عقر داره عن طريق "العرفان"

الذي يعتبر أحد المراتب العليا من السلوك ـ بزعم الصوفية ـ وليس كل صوفي بعارف.

يرفض بعض علماء الشيعة "العرفانية" باعتبارها "فلسفة" متشكلة من كلمتين: "فل" يعني: "محب"، و"سفة" يعني: "عرفان"، لهذا الفلسفة تعنى "محب العرفان"، و العرفان يعنى: الشيء الذي بواسطته تعرف الله و تعرف كنه وذات رب العالمين. وهم يحذرون من العرفاء وانحرافاتهم، كما أن الصوفية في وجه من الوجوه أكبر أعداء الشيعة، عن البزنطي عن الرضا، قال: قال رجل من أصحابنا للصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: قد ظهر في هذا الزمان قومٌ يُقال لهم: الصوفية، فما تقول فيهم؟ قال: إنهم أعداؤنا! فمن مال إليهم فهو منهم ويُحشر معهم! وسيكون أقوام يدّعون حبنا ويميلون إليهم ويتشبّهون بهم ويلقّبون أنفسهم بلقبهم ويؤوّلون أقوالهم! ألا فمن مال إليهم فليس منا وأنا منه براء! ومن أنكرهم وردّ عليهم كان كمن جاهد الكافر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله[12].

كما ورد عن السلطان الرضا، أنه قال: "من ذُكر عنده الصوفية، ولم ينكرهم بلسانه وقلبه فليس منا! ومن أنكرهم كان كمن جاهد الكفار بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله[13].

لقد كان العرفان ماثلًا في باطن التصوف على مدى التاريخ، لكن بدأ نبذ الصوفية من أواخر العصر الصفوي، على الرغم من أنّ الملوك الصفويين أنفسهم كانوا من المتصوفة، وقد أشهر الشاه إسماعيل الصفوي ـ مؤسس السلالة الصفوية ـ السيف باسم التصوف، لكنّ بعض ممارساتهم، وخاصة ما صدر من شيوخ قبائل القزلباش، أدّى إلى نبذ التصوف، وقد قارن ذلك شيوع التفسير الفقهي للدين وحالة من السطحية تخالف بطبيعتها التصوّف؛ فساهم ذلك كثيراً في تشويه صورة التصوف نفسه، وأطلق بعض أهل السلوك في هذه الظروف اسم العرفان على التصوف وصاروا يدافعون عنه، لكي لا يصنّفوا على المتصوّفة المنبوذين. لو عدنا للتشيع الحقيقي وتناولنا بحث الولاية، لرأينا أنّ التشيع هو الولاية بمعناها العرفاني؛ إذ يعتقد الشيعة الحقيقيون باستمرار الحقيقة المعنوية للنبوة. ولو اعتبرنا الإذعان بالولاية حقيقة التشيع، أمكننا إذاً اعتبار التشيع مرادفاً للتصوّف؛

إذ انفرد المتصوفة في الاعتقاد بعدم انقطاع حالات النبي الروحية وعدم موت حقيقة الإسلام الروحية بوفاة الرسول واستمرارها في الإمام علي والأئمة من ولده، والأوصياء ـ أي من نالوا مراتب الكمال ـ من بعدهم، ولم يطرح الفقهاء ولا المتكلمون بحث الولاية بهذا الشكل، بل انفرد العرفاء به[14].

سخط الشيعة على المتصوفة لقولهم بالولاية وبالقطب الغوث مما يعطل علم الإمامة عندهم فضلًا عن أن تجمع المريدين حول مشايخ الصوفية حرم الشيعة من رصيد بشري هائل كان من الممكن استمالته إلى التشيع وتجميعه حول الإمام الشيعي[15]، إمام الوقت في كل وقت، وفي أي مكان من العالم الإسلامي، خاصةً بعد نجاح الثورة الإيرانية على يد إمامهم الخميني في إيران، ومحاولة تصديرها إلى المناطق السنية من العالم الإسلامي واستثمار نجاحها سياسيًا في نشر أفكار المذهب الشيعي.

من أكثر أوجه التشابه بين الشيعة والصوفية ما يشيعونه من عقائد خاصة بالغلاة منهم، والتي لا يقرهم عليها بقية المذاهب الإسلامية، من مثل: ما يشيعه الصوفية من أن الله خلق نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم من نور اتكاءً على حديث باطل سندًا ومتنًا، ولا يتخلف الشيعة عن ركب الادعاء هذا حين يضفون الخَلق النوراني على أئمتهم. ولقد اتفق الطرفان الشيعة والمتصوفة على الزعم بأن للدين باطنًا وظاهرًا، في محاولة للاستعلاء بالعلم على العلماء من أهل الظاهر، باعتبارهم هم أهل الباطن والباطن هو المراد على الحقيقة، ولا يعلمه إلا الأئمة والأولياء بينما علم الظاهر هو المتبادر من النصوص ويفهمه العامة وغيرهم! وحجتهم في هذا، أن منهج النقل معارض للمنهج الذوقي الذي يأتي منه العلم مباشرة إلى القلب دون حاجة إلى رواية، وفي ذلك ما يقوله الصوفية للفقهاء: (أخذتم علومكم من ميت عن ميت، وأخذنا علومنا من الحي الذي لا يموت)، وهو ما يعبر عنه ابن الفارض بقوله في التائية الكبرى:

فثم وراء النقل علمٌ يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

أما المشترك الأكبر بينهما فيأتي في تقديسهم للأئمة والأولياء؛ فرفع الشيعة مرتبة أئمتهم فوق مرتبة الأنبياء عليهم السلام أو مثلها. فادعوا لأئمتهم العصمة من الزلل، فلا تجوز عليهم الكبائر ولا الصغائر، لا عمدًا ولا سهوًا، من طفولتهم إلى موتهم، كما يعتقدون فيهم الإحاطة بكل ما فيه مصلحة المسلمين [16]، وانتهج

صنيعهم الصوفية فأنزلوا صفات من صفات الخالق عز وجل على أوليائهم وأقطابهم وأبدالهم من التصرف في الكون، وتدبير شؤونه ونحو هذا.

يلي تقديس الأولياء والأئمة، تقديس الموتى والقبور، والاستغاثة بهم؛ فتقديس القبور وزيارة المشاهد ركن من أركان المعتقد الشيعي، وهم أول من بنى المشاهد على القبور، وجعلوه شعارهم [17]، وأدركهم الصوفية فجعلوا أهم شعائرهم زيارة القبور، وبناء الأضرحة، والطواف بها، والتبرك بأحجارها والاستغاثة بأصحابها كما أسلفنا.

المشترك الأكبر والأقوى والأظهر هو اجتماع الصوفية والشيعة معًا ليس فقط في تقديس أوليائهم وأئمتهم، ولكن في جعل وإعداد الحدث والتاريخ في خدمتهم ولصالحهم بحسب رؤيتهم وإن نحروا المنهجية التاريخية والعلمية أيضًا على قربان التقرب إليهم، ولو زيفوا الوقائع.

إن من يطالع القصائد الحارة في مراثي النبي صلى الله عليه وسلم من كافة المسلمين على اختلاف عصورهم ومشاربهم، سيتكشف له أن قصائد الشيعة غالبًا ما يكون مفتتحها مدح أو رثاء الرسول بينما غايتها الكامنة هي مديح أو رثاء آل البيت والمعصومين من أئمتهم، يشهد بهذا الدكتور محمود على مكي [18] حيث يقول: (على أن ما نلاحظه على شعر السيد الحميري، وغيره من شعراء الشيعة، أن تناولهم لجوانب من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن مقصودًا لذاته، بل هو موظَّف لخدمة عقائدهم في آل البيت، فهو مجرد منطلق لهم لكي يبسطوا قضيتهم وحججهم لأحقية أئمة آل البيت في الخلافة).

ذلك في الوقت الذي يتجرد فيه أهل السنة من هذا النَّزق؛ فمبتدأ رثائهم ومدحهم وخاتمته هو خالص محبتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وإن بدت قصائدهم للوهلة الأولى أقل لوعة وحرقة واشتياقًا لأنها تقوم على العقل أو ما يسمى الرشدنة، بينما يفتقد الصوفية هذا الرشد فتبدو قصائدهم أكثر حرارة وموجدة لأن محبتهم دعائمها العاطفة المحمومة غير الرشيدة التي تستمد سخونتها من الأحاديث الضعيفة والموضوعات والقصص الموضوعة المدسوسة على سيرة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، ومع هذا فلا يستطيع منصف إلا أن يشهد بأن المتصوفة خالفوا الشيعة من حيث كون مدحهم للرسول صلى الله عليه وسلم ومراثيهم فيه إنما غايته حب الرسول ذاته دون أن يخلطوا به حبهم لمشايخهم

وأقطابهم وأبدالهم، وهي نظرة تتفق مع أهل السنة حينًا ثم لا تلبث أن تفارقها حين تتبنى مفهوم أزلية الوجود المحمدي وأن هذا الوجود أول شيء خلقه الله وأن كل موجود يستمد منه، فهو مبدأ الوجود والحياة وأن نوره تجسم في صورة آدم وصور الأنبياء من بعده. وهو يتجسم بعد الرسول في صور الأولياء من أقطاب الصوفية الذين يصلون منه إلى مرحلة الذوبان بما يسمى بالفناء الكلي في الذات العلية، لتجد أنهم ما كادوا يلامسون أهل السنة حتى يميلوا كل الميل تجاه الشيعة فيتجاوز حبهم لمشايخهم وأقطابهم حبهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا عندهم أصل الأصول للقربى والوصول فيسبحوا بعيدًا عن مرفأ النهج النبوي القويم وإن ظنوا المثول.

وكان وراء هذه البيئة الصوفية والبيئة الشيعية السالفة بيئة أهل السنة، لكنها لم تبنِ هذا الإجلال على أفكار المتصوفة والشيعة وما ذهبا إليه من قِدَّم النور المحمدي أو من قِدَّم الوجود المحمدي ولم تبنه أيضًا على أنه صورة الذات الإلهية وكل وجود مستعارٌ منه، وإنما بنته على قدسيته وأنه مَثَلٌ أعلى في الحياتين الدينية والخُلُقية، ومن أجل ذلك تعلقت بلألائه قلوب أهل السنة، ولهجوا بمديحه والثناء عليه بقصائد رنانة أكثروا فيها من الاستغاثة به. وكانوا إذا حجُّوا أو أدَّوا فريضة الحج زاروا قبره الطاهر في ذهابهم أو في إيابهم خاشعين متبتلين[19].

سيبدو نهج الصوفية والشيعة المشار إليه أكثر وأجلى عندما نتعرض لعلاقتهم بغار حراء الذي لا يجلونه كمكان شهد اللحظة التاريخية حين عانقت الأرض السماء بتسلم رسول الأرض صلى الله عليه وسلم مهام تكليفه بالدعوة إلى الله من رسول السماء جبريل عليه السلام، وإنما للحظة خلقوها أو اختلقوها تتجدد سنويًا في حضور أوليائهم مما لا يستند إلى دليل، ولا يقول به عاقل، ويكون موعد ومكان هذه اللحظة هو غار حراء، ذلك الغار الذي سلبوا منه تاريخيته الحقيقية الهامة والمعترف بها من الكافة إلى لحظة موهومة معدومة لا يعلمها إلا هم وغامت وغابت عن الكافة!

وسيتأكد اتفاق المشرب والمسلك والمنهج بين الشيعة والصوفية في حبهم وتوقيرهم ـــ إلى حد المغالاة ـــ الإمام علي بن أبي طالب وأولاده، ومشايعتهم له

حتى زيفوا الحقائق التاريخية دون أن تجفل لهم عين؛ فقد احتل ابن عم النبي وصهره في عقائد أهل السنة والجماعة المكان الأول في الحياة الروحية للمسلمين، فقد رفعه أهل السنة بلا استثناء، رفعوه "روحيًا" على مقام كل من أبي بكر وعمر ولكن وضعوه فقهيًا في النسق، رابع خلفاء محمد صلى الله عليه وسلم ــ أما الصوفية وهم في مجموعهم أهل سنة وجماعة، فكان الإمام علي رأس سندهم، وقمة سلاسلهم وإليه نهاية الطريق ووضعوا على لسانه آثارًا ونسبوا إليه العلم اللدني، وإلى علي يتشوف التصوف السني.

أما الشيعة فقد رأوا في علي ابن أبي طالب الإمام الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأثبتوا له الوصاية، وقداسة خاصة تأرجحت بين كونه معصومًا ووصيًا ووليًا وإمامًا ومهديًا ونبيًا وإلهًا، كما صوروه وبيده كرامات لا تقل عن المعجزات، وعددوها، وتكلموا عن بدء وجوده على الأرض حتى صار "محمد" هو النور المحمدي الأول، و "علي" ظلاله أو انعكاسه.

هذا عن "علي" في حياته بحسب تصور الشيعة بعامة، أما عن مدفنه بالنجف قريبًا من كربلاء فعند الشيعة الإمامية المعتدلة أن سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قد أنبأ أن هذا المكان سيكون قبر علي وعليه مشهد عظيم يفوز به سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ويشفعون لغيرهم! فكان القبر هو "وادي السلام" وهو جزء من جنة الله الباقية وإليه تحشد أرواح الشيعة، ويلتمسون من "علي" الشفاعة، ومن "قبره" الشفاء في الدنيا، فينادونه: (يا صاحب العصا والميسم، يا قسيم الجنة والنار، يا وارث النبيين".

ومن العجيب أن الشيعة قبل أن يخطوا باب المشهد العلوي يتجهون نحو يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، يصيحون: (أتأذن يا رسول الله أن أدخل على "علي" ابن عمك، وزوج ابنتك)، ولكنهم حين يتخطون الباب الخارجي لمشهد علي ويقفون أما قبره يرددون: (السلام على الذات العليا، السلام على ذات الله القائمة بالسنن، السلام على المن والسلوى) [20].

وزيارة الشيعة لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد بجلاء صحة ما ذهبتُ إليه أن رسول الله صلى عليه وسلم بالنسبة للشيعة وسيلة ليس إلا، وإنما

الغاية فهو ابن عمه علي، وهو ما يثبت أن هذا نهج مركوز فيهم تبنوه عقيدة وشريعة، وأظهرت قصائدهم مكنون قلوبهم حين يفتتحونها بمدح أو رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الوسيلة، بينما غايتهم ومقصدهم هي مديح أو رثاء آل البيت والمعصومين من أئمتهم وعلى رأسهم علي بن أبي طالب الذي حاولوا تلفيق وقائع التاريخ ليكون له مع الرسول صلى الله عليه وسلم في كل أوقاته ورحلاته صحبة ومشاركة، كما سنرى حين نتكلم عن الشيعة وغار حراء.

الصوفية وغار حراء

لا يهتم المتصوفة بأمر مشهد من المشاهد الإسلامية إلا إذا كان سيصب مباشرة وصراحة في خدمة مسلكهم، أو يكون دليلًا على صحة منهجهم، ولهذا فلم يمثل غار حراء لهم سوى دليلًا على صدق معتقدهم في الخلوة التي تفننوا فيها بشكل ملحوظ، خاصة وأن "الخَلْوةُ" من أهم الطقوس التي يمارسونها عبر تاريخه على تعدد طرقهم، واختلاف مشاربهم، ولسنا هنا في تحديد المصطلح، أو مناقشته، كما لا يمثل لهم "غار حراء" سوى مكان أو قاعة مؤتمرات له مواعيد أسبوعية كل ليلة جمعة، أو موعد يومي في الثلث الأخير من الليل، أو اجتماع سنوي، ليلة من كل عام، وهذا هو المؤتمر الأكبر.

ـــ أولًا: غار حراء، رمز الخلوة:

يستدل الصوفية على صحيح مسلكهم في الخلوة بالحديث الذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "أولُ ما بُدِئَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حِراءَ ؛ فيتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، ويتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء" [21] فاعتبروه هو الأصل في إثبات صحة انتهاجهم للخلوة.

لأجل هذا تقول الصوفية: من نال مقامًا فدام عليه بأدبه ترقى إلى ما هو أعلى منه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أولًا في التحنث ودام عليه بأدبه، إلى أن ترقى من مقام إلى مقام، حتى وصل إلى مقام النبوة، ثم أخذ في الترقي في مقامات

النبوة حتى وصل به المقام إلى قاب قوسين أو أدنى. فالوارثون له بتلك النسبة؛ من دام منهم على التأدب في المقام الذي أُقيم فيه ترقى في المقامات حيث شاء الله، عدا مقام النبوة التي لا مشاركة للغير فيها بعد النبي صلى الله عليه وسلم)[22].

وقال القسطلاني في شرحه للحديث المذكور: (وفيه تنبيه على فضل العزلة لأنها تريح القلب من أشغال الدنيا، وتفرغه لله تعالى، فتنفجر منه ينابيع الحكمة. والخلوة أن يخلو عن غيره، بل وعن نفسه بربه، وعند ذلك يصير خَليقًا بأن يكون قالبه ممرًا لواردات علوم الغيب، وقلبه مقرًا لها)[23].

يحاول ابن عربي اضفاء الشرعية الصوفية بمظاهرها وبواطنها على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم في تحنثه بالغار فيما لم يخطر ببال النبي صلى الله عليه ذاته من كنه تلك العلاقة بينه وبين الله تعالى التي تقوم على الغيرة والعبور والوحشة، وكلها مصطلحات صوفية بامتياز، لا نكاد نعثر علة مفرداتها في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول [24]: (ولما بلغ أربعين سنة جاءه جبريل عليه السلام بغار حراء، أيامًا متوالية، حتى قالت قريش إن محمدًا يعشق ربه، ما تخلى صلى الله عليه وسلم في غار حراء عن سائر الورى إلا لعلمه بأن الحبيب غيور، لا يسكن قلبًا فيه للغير عبور، والوحشة من الخلق دأب المستأنسين بالحق، والانفراد في البراري والقفار، علامة كل والهٍ بالحبيب مشغوف لا يقر له قرار).

سار شعر المتصوفة في رمزية، يتفاوت فيها الشعراء، منها ما يظهر للمطلع عند إمعان النظر فيها، ومنها ما لا يظهر إلا للراسخين في العلم، وقليل هم، وعلى هذا النهج كان ذكرهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومدحه، فلا تتضح معاني المديح إلا بصعوبة، ويلفها الغموض، ويحجبها الرمز، وتجنح في معظمها إلى الغيبيات، مثل قول ابن عربي[25]:

دثّروني زمّلوني قول من ،،، خصّه الرّحمن بالعلم الحسن
حين جلّى الرّوح بالأفق له ،، ، وهو في غار حراء قد سجن
نفســــــــــه فيه لأمر جـــــــــــاءه،،، في غيابات الفؤاد المستكن

لتجلّ قام في خاطـــــــــــــــــــــــره،،،صورة مجموعة من كلّ فـــن
كلّما أحضـــــره في خلدي،،، حنّ قلبي لتجلّيـــــــــــــــــــــــــــــــه وأنّ

فلذا يقلقني سهده، ولذا أزهد في دندن دن، والملاحظ أن قصيدة ابن عربي هذه في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم استغرقت الحديث عن لحظة البعثة، ونزول الوحي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأول مرة، ووصف ما جرى له من وراء ذلك، وهذا هو الجانب الذي اهتم به المتصوفة، جانب الوحي، وعالم الغيب، واتصال العالم المحسوس به، وهم الذين قامت طريقتهم على إيجاد هذه العلاقة وإقامتها بين العالمين.وقد حفلت القصيدة بالرموز الصوفية التي يحار فيها المتلقي مثل (سينية صادية، دندن دن) وهي تعبير عن الأسرار الإلهية التي حرص الصوفية على إخفائها عن غيرهم وعن المبتدئين منهم[26].

حدد الصوفية مدة للخلوة في مبدأ أمرهم وهي الخلوة الأربعينية واعتمدوا في تحديدها على أصل مواعدة موسى عليه السلام بما ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) [27]، وخلوة النبي صلى الله عليه وسلم شهرًا بغار حراء، كما استقوا مدة الخلوة من حديث ضعيف الإسناد ورد في حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهاني، رواه مكحول قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أخلص لله تعالى العبادة أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه" ـ وقد وضعوا للخلوة شروطًا تزيد عن العشرين من لم يستوفها وقع في فتن و بلايا.

غير أن أقلّ المدّة المعتبرة في الخلوة عند الصوفية ثلاثة أيّام بلياليها، وما دون الأربعين كلّه يُعدّ قليلًا، والمدّة المتوسّطة أربعون يومًا وهي الخلوة الموسويّة، ولا حدّ لأكثرها، فكلّ ما زاد على الأربعين فهو كثير إلى آخر العمر، ولهذا فمنهم من لم يخرج من بيته إلا في الجمع فقط، و هناك صوفي كان يخلّي ولده على الخلوة أربعين يومًا فلا يفتح عليه، فإذا تمت الأربعون زالت الحجب، وانصبت إليه العلوم والمعارف انصباب، فالعبد بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده، ويستنبط من معدن نفسه جواهر العلوم، فيظنّ الصوفية بأن الله يفتح عليهم جواهر العلوم والمعارف، ويكشف لهم الغرائب والعجائب تعويضًا عما تركوا لأجله[28].

ومن يطالع كتب الصوفية كالطبقات للشعراني، ونفحات الأنس للجامي وغيرهما سيأخذه الدهش والعجب من المدد الغرائبية في انقطاع الصوفية في خلواتهم، ومنها: أن شمس الدين التبريزي كان يمكث في خلوته ثلاثة شهور لا يخرج منها أصلًا، ولا يسمح لأحد بالدخول، ومكث آخر تسعة شهور في خلوته منقطعًا عن الخلق، وهناك آخر يمكث في خلوته ستة شهور من كل عام، لا يطعم شيئًا ولا يشرب، والصوفي الهندي علاء الدين الكليري لم يخرج من خلوته سنتين، ومنهم من مكث في الخلوة اثنين وثلاثين شهرًا، أما الصوفي محمد الحنفي فقد اعتزل الناس وجلس في خلوة تحت الأرض سبع سنين! ومع الزيادة في ماراثون الخلوات زاد ابن عثمان الحيري وهو من قدامى المتصوفة فاختلى عشرين سنة لم يرَ بعيدًا عن الناس، وبعد العشرين جاءه الأمر بمخالطتهم فخرج إليهم، لكن أبي عبد الله الصبيحي فقد بز الحيري؛ فلم يخرج طوال ثلاثين سنة من بيت من تحت الأرض، أما أكمّل العارفين ـــ في اعتقادهم ـ حسين أبي علي فيعود إليه الفضل في القفز بمدة الخلوة من أربعين يومًا إلى أربعين سنة، وهي عدد السنوات التي قضاها الرجل في خلوة مسدود بابها ليس لها غير طاقة يدخل منها الهواء!

أهذه هي الخلوة التي تأسوا فها بالرسول صلى الله عليه وسلم. أين الشهر الذي قضاه صلى الله عليه وسلم ولم يزد عليه، فلما زادوا عليه. ومن أي دين أو قدوة استلهموا واستقوا عاداتهم لأنها لا تصح أن تكون عبادة، لأنها لم تثبت عنه صلى الله عليه وسلم ولا أمر بها. الرسول صلى الله عليه وسلم في خلوته وقبل بعثته كان يتزود لخلوته، وكانوا يرسلون إليه بالزاد حتى زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها، بينما أشياخ الصوفية ينقطعون ولا يتزودون طوال أيام وشهور وسنوات خلواتهم، أَهُمْ أعظم عند الله تعالى من محمد بن عبد الله.

ينكر شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني أن يكون ما هم عليها من أحوال ربانية أو كرامات إلهية كما يظنون، بل هي أحوال شيطانية: (وهذه الخلوات قد يقصد أصحابها الأماكن التي ليس فيها أذان ولا إقامة ولا مسجد يصلي فيه الصلوات الخمس، مهجورة إما مساجد وإما غير مساجد، مثل الكهوف والغيران التي في الجبال، ومثل المقابر لاسيما قبر من يحسن به الظن ومثل المواضع التي يقال أن بها أثر نبي أو رجل صالح، ولهذا يحصل لهم في هذه المواضع أحوال شيطانية يظنون أنها كرامات رحمانية)[29].

ولذا فلم يكن غريبًا أن يمكث الأمير المجاهد عبد القادر الجزائري في غار حراء عامًا كاملًا، يقول إيريك جيوفروا [30]: (إن الأمير كان أقرب إلى نهج الرسول صلى الله عليه وسلم، والدليل دخوله في خلوة بغار حراء مدة عام كامل، حيث لم يعرف له أثر حتى ظن الجميع أنه توفي، لكن الحقيقة أن الأمير سَخَّرَ ذاته وعقله لعبادة الخالق سبحانه وتعالى) [31]، ومن قبله صنع هذا الفاسي وساكن مصر الإمام السيد البدوي، حين عكف على العبادة فخرج إلى غار حراء فأخذ يتعبد فيه وحده زمنًا ليس بالقصير ثم خرج إلى العراق ثم عاد إلى مكة بعد عامٍ واحد ثم خرج إلى مصر.

والعزلة عن الشر واجبة على كل حال، وأمَّا تعليم الطَّالبين وهداية المُريدين؛ فإنَّه عبادة العَالِم، وإن من تفضيل بعض العلماء إيثَارُه للتَّنَفُّل بالصلاة والصوم، عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأن ذلك بَذْرٌ يكثُر ريعُهُ، ويمتد زمان نفعه، وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين:

أحدهما: حبُّ البطالة؛ لأن الانقطاع عنده أسهل، والثاني: حب المدحة، وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير، ونهيهم عن الشر، ولقد دخل المتزهدون في طرق لم يسلكها الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه، من إظهار التخشع الزائد عن الحد، والتَّنَوّق ــ أي المبالغة ــ في تخشين الملبس، وأشياء صار العوام يستحسنونها، وصارت كالمعاش يجتنون من أرباحها، تقبيل اليد، وتوفير التوقير، وحراسة الناموس، وأكثرهم في خَلْوتِه على غير حالته في جَلْوته [32].

ــ ابن سبعين في غار حراء:

ابن سبعين هو أشهر صوفي وفيلسوف ارتبط اسمه بغار حراء على الإطلاق، وليس ذلك لطول مكوثه فيه ولكن لكلمة قالها وتم تأويلها على وجه ربما لم يقصده الرجل ولكنها شاعت وانتشرت وصارت دليلًا عليه، وابن سبعين هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الأشبيلي المرسي. أحد الفلاسفة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود.، ودرس العربية والآداب في الأندلس وبرع في العلوم العقلية

والفلسفية حتى أجاب عن أسئلة الإمبراطور فردريك الثاني الفلسفية التي كانت تعجز العلماء والباحثين الفلاسفة قبل ابن سبعين.

وأما الكلمة التي قالها: (لقد حجر ابن آمنة واسعًا حيث قال: لا نبي بعدي) ثم ادعوا عليه بأنه كان يجاور بغار حراء يرتجي أن يأتيه وحي كما أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بناء على ما اعتقده من استمرار النبوة وأنها مكتسبة، وقد نسبوا إلى كل من حكيم الإشراق السهروردي المقتول، وابن سبعين القول بأن النبوة لا تنقطع. وأنه لا يمكن لذلك الوصول إلى رتبتها، وقد هاجمهما ابن تيمية، فقال عن من ينتهج نهجهما بادئًا بالسهروردي: (فالواحد من هؤلاء - يقصد من متفلسفة الصوفية - يطلب أن يصير نبيًا، كما كان السهروردي المقتول يطلب أن يصير نبيًا، وكان قد جمع بين النظر والتأله، فليس لهم في النبوة كلام محصّل. وكان قد جمع بين النظر والتألّه، وسلك نحواً من مسلك الباطنية، وجمع بين فلسفة الفرس واليونان، وعظّم أمر الأنوار، وقرّب دين المجوس الأول، وهي نسخة الباطنية الإسماعيلية، وكان له يد في السحر والسيمياء، فقتله المسلمون على الزندقة بحلب في زمن صلاح الدين).

ثم ثنى بابن سبعين، فقال: (وكذلك ابن سبعين الذي جاء من المغرب إلى مكة، وكان يطلب أن يصير نبيًا، وتردد على غار حراء الذي نزل فيه الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ابتداء، وحكى أنه كان يقول: "لقد رددت ابن آمنة، حيث قال: (لا نبي بعدي)". وكان بارعًا في الفلسفة وتصوف المتفلسفة، وما يتعلق بذلك) [33].

والواقع أن ما فهمه ابن تيمية عن السهروردي وابن سبعين غير دقيق، ولم يكن السهروردي ليذهب إلى حد إنكار أن محمدًا هو خاتم الأنبياء[34].

وفي رأينا أن السهروردي وابن سبعين لم يذهبا إلى أبعد من القول بأن روحانية النبي تسري إلى الكُمَّل من الأفراد، فتظهر في القطب كما تظهر في المحقق، وهما يتميزان بقدرة خاصة على الاستمرار من النبي ثم إفاضة ما يتلقيانه على العالم، والعالم محتاج إليهما بهذا المعنى، وهذا هو معنى الوراثة المشار إليه في الخبر:

"العلماء ورثة الأنبياء"، وليس في ذلك ما يتضمن القول بظهور أنبياء جدد، أو القول بأن القطب أو المحقق أعلى درجة من النبي، بل على العكس من ذلك يتضمن قولهما أنهما أدنى درجة من النبي، فهما مجرد واسطة بينه وبين العالم [35].

وقد افتروا عليه بهذه المقولة، وهذا كتاب "أنوار النبوة" دليل على كذب هذه الدعوى، وكمال أدبه مع النبي صلى الله عليه وسلم، فما هي إلا دسائس، فكان الله للشيخ ما أصبره على الأذى [36].

ويرون أنه كان ينكر النبوة، ويعتبر أنها شيء كسبي، وفي هذا الكلام ما فيه من التجني على ابن سبعين الذي كان يعظم النبوة ويؤمن بالنبي، فيقول المقري في نفح الطيب: (وقال بعضهم عند إيراده جملة من رسائله ـــ يقصد رسائل ابن سبعين ـــ إنها تشتمل على ما يشهد له بتعظيم النبوة وإيثار الورع.

يأخذ ابن سبعين على الفلاسفة إذن أنهم يضطرون إلى القول بفروق لا محل لها ولا محصَّل وراءها، ويجرهم ذلك إلى وقوع في صفات السلوب حينما يريدون تحديد صفات الله، ويأخذ على الفقهاء أنهم يتعلقون بالظاهر، بالأعمال الخارجية، ولا يهتمون بخلاص الباطن، خلاص النفس، ولا يدركون سر التجرد، أي الفقر؛ ويتعلقون بأحاديث إمَّا مكذوبة أو محرفة أو منقولة على غير وجهها. ولا يعنيهم التمثل بالنبي، بل التعلق بما شاع من أقواله؛ ويحرصون على التمسك بما في الكتب، لا بما في ضمائر الكتاب؛ ويتشبثون بالمدرسة، أي بالآراء المجردة، لا بالحقيقة الحية العينية لصاحب الآراء، أي المدرس. وهذه دعوة من ابن سبعين إلى التعلق بالنبي بوصفه النموذج العيني الأعلى الحيّ لا بعنعنات الفقهاء والمحدثين. إن ابن سبعين ينظر إلى النبي على أنه نور، استنادًا إلى قول النبي: "اللهم اجعل لي نورًا في قلبي، ". والنبي لما توفي طلب الرفيق الأعلى عند موته، وهو محلُّ الأنوار، وروح النبي هناك، فهو نورٌ، ومع أنوار. ولهذا يكرس ابن سبعين رسالة خاصة في "أنوار النبي"، لأن للنبي أنوارًا تختلف باختلاف متعلقاتها ومضافاتها، ومن حيث الأقل والأكثر، والأشد والأضعف، وعدةُ أنواره التي يعدِّدها ابن سبعين ثلاثة وثلاثون، وهكذا يستمر ابن سبعين في تعداد أنوار النبي، ويختمها بقوله: "إن النبيَّ هو النور المحض" [37].

يرى ابن سبعين أن النفس النبوية أرفع وأعلى نسبة من جميع النفوس، وهو لا يقر الفلاسفة الذين قالوا أن النبي إنما يستمد وحيه بواسطة العقل الفعال، فيكون في ذلك سعادته، ويرى أن هؤلاء الفلاسفة قد غلطوا في حق النبوة وقالوا ما ليس بصحيح [38].

أمَّا عن حقيقة موقف ابن سبعين من قضايا اتهم بسببها كالنبوة والعلاقة بين الشريعة والحقيقة، وقد تبين لنا أنه كان معظماً للنبوة، جاعلا لها مكانة في منهج تصوفه، فلم تخل رسالة واحدة من ذكر أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، والبدء والختام بالصلاة عليه، علاوة على إفراد رسالة خاصة في أنوار النبي عليه السلام، ذكر فيها ثلاثة وثلاثين نورًا، معترفًا في رسائل أخرى بأنه خاتم النبيين والمرسلين[39].

منذ تعرفتُ على ابن سبعين بملكاته الفكرية والعقلية الفذة والشك يخامرني أن يصدر منه هذا القول تجاه النبي صلى الله عليه وسلم، وعندي أسباب وأدلة غير تلك التي أوردتها من مقولات لغيري تنسفها نسفًا:

أولًا: آراء معظم المتخصصين المعاصرين ممَّن تعرضوا لشخصية الفيلسوف ابن سبعين كانت إيجابية، ومنهم على سبيل المثال الدكتور يوسف زيدان الذي ينعت ابن سبعين بالفيلسوف الصوفي العظيم، فيقول عنه[40]: (هو صاحب المعالجة الفلسفيَّة العميقة لقضايا الفكر الصوفي ذي النـزعة الإنسانية عاليةِ المستوى، وصاحب الرسالة البديعة المعروفة بعنوان «الكلامُ على المسائل الصِّقليَّة» وهى التي أجاب فيها عن الأسئلة الفلسفيَّة التي أرسلها فريدريك الثاني إمبراطور صِقليَّة لعلماء المسلمين في المشرق والمغرب، وسخر فيها من الإمبراطور وأسئلته الفلسفية التقليدية، البائسة، ولو كان المقام يسمح هنا، لذكرتُ القصة الطريفة لهذه "الأسئلة" والأسلوب البديع الذى رَدَّ به ابن سبعين عليها).

ثانيًا: اتفاق العلماء على أن ابن سبعين ما زال يحتاج دراسات كافية ومتخصصة ولائقة به، توازي ما بآرائه من حصافة، وفي أفكاره من عمق ودقة، ويؤكدون تنوع مؤلفاته التي تملأ الأرض طولًا وعرضًا، ومنها الذي لم يكتشف بعد، ونتها الذي لم

يزل مخطوطًا لم تمسه شمس النشر، هذا بالإضافة لغموض لغته وتعقيدها وتشعب مدلولاتها، وهذا ما يؤكد أن كل كتبه التي اكتشفها المستشرقون في زمن متأخر عن زمن من انتقدوه جعلت حكمهم عليه يشوبه القصور، وغلب عليه التسرع في إصدار النتائج والأحكام عليه، دون الإحاطة الكاملة الشاملة بفهم الرجل الذي حكم عليه ابن تيمية بأنه: (كان بارعًا في الفلسفة وتصوف المتفلسفة، وما يتعلق بذلك) [41].

ثالثًا: ليس من المعقول أن يغيب عن نظر وفكر ابن سبعين الآية (124) من سورة الأنعام من كتاب الله تعالى الذي يؤمن به، وهو الذي اطلع على كتب الديانات السابقة، وفيها قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آَيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

هل يجهل ابن سبعين معنى قوله تعالى: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ فيأخذ جانب المعترضين منهم على الله، وعجبهم بأنفسهم، وتكبرهم على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجرهم على فضل الله وإحسانه؟ وفي هذه الآية، دليل على كمال حكمة الله تعالى، لأنه، وإن كان تعالى رحيمًا، واسع الجود، كثير الإحسان، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله[42].

وهل سيسمح لنفسه بأن ينازع رسوله صلى الله عليه وسلم الذي يؤمن به ويتبعه النبوة أو ينكرها عليه، وهو يعلم أنه مصطفي من عند الله تعالى. ألم يطالع ابن سبعين على وفور علمه الحديث، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، عن شداد أبي عمار، عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله اصطفي من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفي من بني إسماعيل بني كنانة واصطفي من بني كنانة قريشاً واصطفي من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم" انفرد بإخراجه مسلم، من حديث الأوزاعي وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام به نحوه، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه».

رابعًا: لمن شاء أن يقرأ حزب ابن سبعين [43] والذي يبدأه بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم (بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله. بسم الله. أفتتح به وبه أعتصم وعليه أتوكل الله الله الله حسبي الله)، ويختتم الحزب بقوله: (واجعلني بك هادياً مهدياً مصطفي ووليًا. بالذات الكاملة والرحمة الواسعة المرسلة الجامع لجميع أسرار توحيد الأحدية. القائم بأوصاف العبودية المخصوص بالوحدانية المطلقة. المخبر عن الغيوب اليقينية المحققة خلاصة عبادك ومظهر مرادك. محمد الوحيد الحامد بجميع المحامد داعي الجميع بكلمة التوحيد من الكثرة إلى الواحد. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وأهل بيته وتابعيهم معالم منازلاته وعوالم تنزلاته. وسلم تسليمًا كثيرًا والحمد لله رب العالمين). وبضمه إلى كتاب "أنوار النبي" يتضح المعنى بجلاء.

خامسًا: أن كل المصادر تؤكد أنه ينتمي إلى أسرة نبيلة غنية، فليس به حاجة من محاولة إثبات وجود بشهرة مدعاة، كما أثبتت تلك المصادر نبوغه وتفرغه للعلم من صغره حتى أتقن علوم عصره تمامًا، كما تثبت قوة حجته، وإفحام المخالفين له، حتى ادعوا عليه مقولته تلك والتي يؤكد خصومه أنها كانت سببًا في ارتحاله، فيما تؤكد على الجانب الآخر المصادر الموثوقة أنه خرج إلى مكة قاصدًا الحج حتى أنه أقام بمصر إقامة قصيرة لأن هدفه ليس الهروب إليها أو أن تكون مأمنه كما يزعمون، وقد أشاعت بعض النقول أن مقولته المدعاة في حق النبي صلى الله عليه وسلم كانت من أسباب توجهه إلى غار حراء، ومنهم من جعل محل إطلاقها مكة نفسها بعد أن عزف عن المكوث بالغار، كما أثبتوا أن مدة إقامته بمكة كانت غير طويلة، في حين أن إقامته بمكة كانت لسنوات.

لقد انتقدنا الصوفية في مسالكهم ـــ فيما سبق ـــ التي ارتأينا فيها خروج عن النهج الإسلامي القويم، فيما امتدحنا الصوفية المعتدلة، وقد يظن البعض أن هذا منهجنا في محاربة كل صوفي، وإنما هو منهجنا في محاربة كل مبتدع سواء كان من المتصوفة أو غيرهم، ومن التزامنا بالمنهج العلمي الأكاديمي أن نعطي كل ذي حق حقه، وإن شاب بعض الأحكام عوار في حق عالم أو مفكر دفعناها عنه طالما أن الأدلة العلمية من نقلية وعقلية تؤكد هذا دون لي عنقها، أو اخفاء بعضها، وهي

ما تثبت بحق أن ابن سبعين خرج بسبب اضطهاد الفقهاء له، وبسبب سياسي، وليس بسبب ما زعموه في حقه من إنكار للنبوة، أو أنه نطق مقولة الكفر في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تؤكد بعض المصادر أنه توجه بعد انتهاء مكوثه في غار حراء بالسفر إلى المدينة المنورة [44] لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم تمامًا مثلما فعل الأمير عبد القادر الجزائري، فيما بعد، حين غادر غار حراء إلى المدينة واتخذ خلوة في الحرم الشريف بمحل لصيق بجدار المسجد [45].

أن كل ما أردت الوصول إليه من عرض هذا الأمر وتفصيله، هو فك عرى الصلة بين واقعة قول ابن سبعين المزعومة وبين جواره في الغار، لأن من أطلقوها لم يتحسبوا لهذا الارتباط، من قرار صورة سيئة أو سلبية عن غار حراء في ذهن المتلقي المسلم أو غيره، وإطلاق أسر هذه اللحظة من هذه الإشكالية المزعومة بردها إلى وقائعها التاريخية/الزمنية التراتبية، على فرض أنه قال قولته تلك، فيجب أن نردها إلى زمن قَبلي ومغاير للحظة وجوده بغار حراء، وذلك في سبيل أن يبقى للغار نوره وروائه في نفس وعقل المسلم الذي ينظر إلى الغار بعين المهابة والشوق والتقدير لا التقديس له باعتباره المكان الأول الذي تلقى فيه رسوله مفاتيح رسالة الإسلام، وأول آيات البعث الحضاري للإنسان بعامة، مع أول لقاء تاريخي يجمع بين السماء والأرض، ليتغير بعدها الزمن والجغرافية والتاريخ والبشر إلى ما شاء الله تعالى، مع أول خطوات محمد صلى الله عليه وسلم وهو يغادر دنيا العزلة التي اختارها ليدخل مأمورًا دنيا الناس بالبشارة والنذارة.

ثانيًا: حراء، مكان اجتماع ديوان التصريف:

لم يكتفِ المتصوفة بأن يتخذوا من انقطاع الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء الليالي ذوات العدد، رمزًا لاتخاذهم وانتهاجهم مسلك الخلوة الذي حددوا مدته وشروطه، حتى ابتدعوا ديوان تصريف الأكوان وهو ديوان للأقطاب والأوتاد والأبدال ليدير شئون الكون من خلال قراراته، ويروي الشعراني[46] عن عبد الله التستري، أنه قال: (ما من ولي لله صحت ولايته إلا ويحضر إلي غار حراء بمكة المكرمة في كل ليلة جمعة لا يتأخر عن ذلك)، وذلك للنظر في أمور الكون، وتصريف أحواله نيابة عن الله عز وجل.

ينقل أحداث هذا الديوان وهيئته وكيفيته اثنان، أستاذ وتلميذ، فامَّا التلميذ فهو أحمد بن مبارك السلجماسي المغربي الذي نقل هذا الكلام إملاءً من شيخه وأستاذه عبد العزيز مسعود الدباغ، والتلميذ من حيث الحيثيات أكثر علمًا من أستاذه؛ إذ هو الفقيه، الأصولي، الإمام، العلاّمة، الحافظ، المتبحر، الجهبذ، المحرر، المدقّق أبو العباس أحمد بن مبارك ـ وبه عُرف ـ ابن محمد بن عمر السجلماسي اللَّمَطي؛ بفتحتين نسبة إلى لَـمَط، رهط من سجلماسة؛ الفاسي الدار والقرار، يتصل نسبه بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو أيضا البكري الصديقي.بل إنه العلامة الأوحد الحافظ المحقق المشارك في جميع الفنون، بحسب ما جاء في مخطوطة "سؤال وجواب" الموجودة بقسم المخطوطات بمكتبة الملك عبد العزيز بجامعة الرياض، كما أنه من أعلام المذهب المالكي، ويتبوأ مكانة رفيعة بين علمائها، ويعتزون به أيما اعتزاز. من تصانيفه: إنارة الافهام بسماع ما قيل في دلالة العام، شرح المحلى على جمع الجوامع، رد التشديد في مسألة التقليد وكشف اللبس عن المسائل الخمس، الذهب الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

وقد أورد أحمد اللمطي واقعة ديوان التصريف في كتابه الأخير "الذهب الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز" وهو عبد العزيز بن مسعود المعروف بالدباغ، (1095 الموافقة ١٦٧٩ م ـــ 1132 ه الموافقة ١٧٢٠ م)، صوفي، من أهل فاس بالمغرب، كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولأتباعه مبالغة في الثناء عليه ونسبة الخوارق

إليه [47]. والدباغ نسبة إلى الدباغيون وهم أشراف أدريسيون، من سلالة علي وفاطمة الزهراء، رضي الله عنهما.

يصفه أتباعه بأنه العارف بالله، الولي الكامل، الشيخ الشريف القطب الغوث، أحد الأئمة الأولياء ومشاهير الأصفياء، قطب من أقطاب الصوفية، صاحب الإشارات العلية والعبارات السنية والحقائق القدسية، والأنوار المحمدية والأسرار الربانية، منشئ معالم الطريقة، ذي النسبتين الطاهرتين الجسمية والروحية، والسلالتين الطيبتين الشاهدية والغيبية، المحمدي العلوي الحسني، قطب السالكين، وحامل لواء العارفين. ويتباهون بأنه يخوض في العلوم التي تعجز عنها العقول مع أنه كان أميًا، لم يحفظ القرآن ولم يُرَى في مجالس علم، وقد جاءه كل هذا العلم حين التقى الخضر عليه السلام، ولقنه وردًا داوم عليه حتى جاءه الفتح!

خصص له أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي الكتاب المشار إليه آنفًا، وهو من الكتب الشهيرة في أدب المناقب في العالم العربي والإسلامي، كما يزعم أتباعه، وبدأه بالحمد الذي فتح لأوليائه طريق الوسائل، وأجرى على أيديهم الكريمة أنواع الفضائل، فمن اقتدى بهم انتصر واهتدى، ومن حاد عن طريقهم انتكس وتردى. وهو بهذا يضع الرؤيا المنطلق لترجمته للشيخ، والتي استهلها بذكر أصل أجداده و أبيه و والدته، ثم التنبؤات التي سبقته، وإشارات إلى المكانة العظيمة التي ستكون له في عالم الولاية والكشف، فذكر حكايات وأحاديث خاصة نقلها عن الشيخ، منها طريقه في الكشف الرباني وتفسيراته لما التبس على مريديه من أحاديث نبوية وآثار بعض مشايخ التصوف، ناهيك عن "عرفانه اللدني" في مواضيع البرزخ والبعث و الجنة والنار، وغيرها من أمور العقيدة، أيضًا كما يزعمون.

والسؤال: كيف قبل العلامة السلجماسي ما قاله أستاذه الدباغ حتى أفرد له كتابه هذا دون معارضة أو تفنيد لرأيه، مع كونه يجيد هذا الفن تمامًا؟

أعطى العلامة المحقق الشيخ أحمد بن المبارك اللمطي شيخ علماء عصره، كما دونوا في كتبهم، الفرصة لأتباع التصوف بأن يتباهوا بأنه كان تلميذًا للقطب الكبير

سيدهم عبد العزيز الدباغ الحسني وأنه نقل عنه من المواهب والأسرار ما أثبت بعضه في كتاب "الإبريز". ثم يضيفون: (وهكذا لا تجد عالما كبيرًا ومحققًا شهيرًا إلا دخل في طريق القوم والتمس البركة من أهلها ونال الحظوة بسبب الانتساب إليها، وهذا أمر معلوم يدركه من قرأ تراجم العلماء وتتبع سيرهم واستقصى أخبارهم، ومن لم يعرف أو لم يعتد به فهو جاهل متعنت لا اعتداد به ولا عبرة بما يقول).

يعجب صادق سليم صادق من مسلك ابن المبارك، فيقول[48]: (سَلَّم أحمد بن المبارك لشيخه الأمي الجاهل: عبد العزيز الدباغ، وفيما يظهر من ترجمة أحمد بن المبارك، ومسائله لشيخه، أنه كان من العلماء ـــ وهذا ما أشرتُ إليه ـــ ومع هذا فهو يقول معددًا مسموعاته عن شيخه الدباغ: (، وكذا سمعتُ منه من المعرفة بالله تعالى، وعَلِيِّ صفاته، وعظيم أسمائه، ما لا يُكيَّف ولا يُطاق، ولا يدرك إلا بعطية الملك الخلاق، وكذا سمعت منه من المعرفة بأنبياء الله تعالى، ورسله الكرام عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، ما تحسه به كأنه كان مع كل نبي في زمانه، ومن أهل عصره، وأوانه، وكذا سمعت منه المعرفة بالملائكة الكرام، واختلاف أجناسهم، ومراتبهم العظام، ما كنت أحسب أن البشر لا يبلغون إلى علم ذلك، ولا يتخطون إلى ما هنالك، وكذا سمعت منه من المعرفة بالكتب السماوية، والشرائع النبوية السالفة الأعصار، المتقادمة الليل والنهار، ما تقطع وتجزم إذا عرفته، بأنه سيد العارفين، وإمام أولياء أهل زمانه أجمعين. وكذا سمعت منه من المعرفة باليوم الآخر، وجميع ما فيه من: حشر، ونشر، وصراط، وميزان، ونعيم باهر؛ ما تعرف إذا سمعته أنه يتكلم عن شهود وعيان، ويخبر عن تحقيق وعرفان؛ فأيقنتُ حينئذٍ بولايته العظمى، وانتسبتُ لجنابه الأحمى،)، وقال أيضًا: (، فكل من سمعه يتعجب منه، ويقول: ما سمعنا مثل هذه المعارف، ويزدهم تعجبًا، كون صاحبها رضي الله عنه، أميًا، لم يتعاطَ العلم، ومن الذين أعرضوا عنه في الظاهر غاية الإعراض،).

وأحسب أن هذا النص، ليس في حاجة إلى تحليل؛ فإن المعرفة باليوم الآخر وجميع ما فيه إن لم يكن من أنواع الغيوب فليس هناك غيب أصلًا؛ إذ العلم بشيء بذلك

مقيد بما ورد في الكتاب والسنة. ونحن نعلم أن الدباغ لم يستفد من هذا العلم المزعوم منهما لأمور:
1ـــ أن تلميذه الراوي صرح بأنه يتحدث عن شهود وعيان.
2ـــ أن تفصيل جميع ما في الآخرة لم يأتِ في الكتاب والسنة، بل جاء فيهما ـــ غالبًا ـــ إجمال تلك الأمور حسب ما يقتضيه الترغيب والترهيب.
3ـــ أن الدباغ أمي لم يقرأ الكتاب والسنة كما صرح ابن المبارك نفسه [49].

في ضوء ما أسلفنا بيانه، وما أجاب عنه ابن مبارك وأبانه، بيقينه بولاية الدباغ العظمى، وانتسابه لجنابه الأحمى، على الرغم من تمكَّن ابن مبارك السلجماسي من ناصية جلّ العلوم، حتي أخذ يُقارع العلماء، ويرد على أكابرهم، سواء المتقدم منهم أو المتأخر، وكاد لا يحصل منه إذعان لواحد منهم، بل ويصرح لنفسه بالاجتهاد المطلق، وبالفعل فقد كانت له عارضة في المقابلة بين أقوال العلماء، والبحث معهم، والإجابة عنهم بمقتضى الصناعة والآلات، مع تفرده بأشياء يصل إليها بفهمه وبحثه.وحظي عدد كبير من التلامذة المعاصرين له بالنهل من معين علمه، والاقتباس من ثمرة اجتهاده[50].

في ضوء ما تقدم نستطيع الأن أن نتلقى ما كتبه ابن مبارك عن الديوان كما تلقاه من فم شيخه الذي فُتِنَ به حيًا وميتًا؛ إذ دُفِنَ بجواره.

يقول أحمد بن مبارك السلجماسي: سمعتُ الشيخ رضي الله عنه، يعني عبد العزيز الدباغ يقول:
(الديوان يكون بغار حراء الذي كان يتحنف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة، فيجلس الغوث خارج الغار ومكة خلف كتفه الأيمن والمدينة أمام ركبته اليسرى وأربعة أقطاب عن يمينه وهم مالكية على مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه وثلاثة أقطاب عن يساره واحد من كل مذهب ومن المذاهب الأخرى، والوكيل أمامه ويسمى قاضي الديوان وهو في هذا الوقت مالكي أيضًا من بني خالد القاطنين بناحية البصرى واسمه سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي، ومع الوكيل يتكلم الغوث ولذلك يسمى وكيلًا لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان. والتصرف للأقطاب السبعة على أمر الغوث، وكل واحد من الأقطاب

السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته، والصفوف الستة من وراء الوكيل وتكون دائرتها من القطب الرابع الذي على اليسار من الأقطاب الثلاثة، فالأقطاب السبعة هم أطراف الدائرة وهذا هو الصف الأول وخالطه الثاني على صفته وعلى دائرته وهكذا الثالث إلى أن يكون السادس آخرها. ويحضره النساء وعددهن قليل وصفوفهن ثلاثة وذلك في جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار فوق دائرة الصف الأول فسحة هناك بين الغوث والأقطاب الثلاثة، ويحضره بعض الكُمَّلِ من الأموات ويكونون في الصفوف مع الأحياء ويتميزون بثلاثة أمور أحدها: أن زيهم لا يتبدل بخلاف زي الحي وهيئته فمرة يحلق شعره ومرة يحدد ثوبه وهكذا. وأما الموتى فلا تتبدل حالتهم فإذا رأيت في الديوان رجلًا على زي لا يتبدل فاعلم أنه من الموتى كأن تراه محلوق الشعر ولا ينبت له شعر فاعلم أنه على تلك الحالة مات، وإن رأيت الشعر على رأسه على حاله لا يزيد ولا ينقص ولا يحلق فاعلم أنه ميت وأنه مات على تلك الحالة، ثانيها: أنه لا تقع معهم المشاورة في أمور عالم الأموات. ومن آداب زائر القبور إذا أراد أن يدعو لصاحب القبر ويتوسل إلى الله تعالى بولي من أوليائه في إجابة دعوته أن يتوسل إليه تعالى بولي ميت فإنه أنجع للمقصود وأقرب لإجابة دعوته. ثالثها: أن ذات الميت لا ظل لها فإذا وقف الميت بينك وبين الشمس فإنك لا ترى له ظلًا وسره أنه يحضر بذات روحه لا بذاته الفانية الترابية وذات الروح خفيفة لا ثقيلة وشفافة لا كثيفة. وكم مرة أذهب إلى الديوان أو إلى مجمع من ملجأ الأولياء وقد طلعت الشمس فإذا رأوني من بعيد استقبلوني فأراهم بعين رأسي متميزين هذا بظله وهذا لا ظل له. قال رضي الله عنه: والأموات الحاضرون في الديوان ينزلون إليه من البرزخ يطيرون طيرًا بطيران الروح فإذا قربوا من موضع الديوان بنحو مسافة نزلوا إلى الأرض ومشوا على أرجلهم إلى أن يصلوا إلى الديوان تأدبًا مع الأحياء وخوفًا منهم. قال وكذا رجال الغيب إذا زار بعضهم بعضًا فإنه يجيء بسير روحه فإذا قرب من موضعه تأدب ومشى مشي ذاته الثقيلة تأدبًا وخوفًا. وتحضره الملائكة وهم من وراء الصفوف ويحضر أيضًا الجن الكمل وهم الروحانيون وهم من وراء الجميع وهم لا يبلغون صفًا كاملًا قال رضي الله عنه وفائدة حضور الملائكة والجن أن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها فيستعينون بالملائكة وبالجن في الأمور التي لا تطيق ذواتهم الوصول إليها)[51].

ـــ حضور النبي صلى الله عليه وسلم الديوان:

يقول الدباغ لابن مبارك: (وفي بعض الأحيان يحضره النبي صلى الله عليه وسلم فإذا حضر عليه السلام جلس في موضع الغوث وجلس الغوث في موضع الوكيل للصف، وإذا جاء النبي صلى الله عليه وسلم جاءت معه الأنوار التي لا تطاق دائمًا وهي أنوار محرقة مفزعة قاتله لحينها، وهي أنوار المهابة والجلالة والعظمة حتى إننا لو فرضنا أربعين رجلًا بلغوا في الشجاعة مبلغًا لا مزيد عليه ثم فوجئوا بهذه الأنوار فإنهم يصعقون لحينهم إلا أن الله تعالى يرزق أولياءه القوة على تلقيها ومع ذلك فإنه قليل منهم هو الذي يضبط الأمور والتي صدرت في ساعة حضوره صلى الله عليه وسلم. قال وكلامه صلى الله عليه وسلم مع الغوث قال وكذلك الغوث إذا غاب صلى الله عليه وسلم تكون له أنوار الخارقة حتى لا يستطيع أهل الديوان أن يقربوا منه بل يجلسون منه على بعد فالأمر الذي ينزل من عند الله تعالى لا تطيقه ذات إلا ذات النبي صلى الله عليه وسلم وإذا خرج من عنده صلى الله عليه وسلم فلا تطيقه ذات إلا ذات الغوث ومن ذات الغوث يتفرق على الأقطاب السبعة ومن الأقطاب السبعة تفرق على أهل الديوان)[52].

ـــ وقت انعقاد الديوان:

يستكمل السلجماسي ما ينقله عن شيخه الدباغ، فيقول: (وأما ساعة الديوان فأنها هي الساعة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم وإنها هي ساعة الاستجابة من ثلث الليل الأخير التي وردت بها الأحاديث).

ـــ حضور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم جلسات الديوان:

يقول السلجماسي: (وسألته ـــ أي شيخه الدباغ ـــ رضي الله عنه: هل يحضر الديوان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وغيرهما من الرسل على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام؟ فقال رضي الله عنه: يحضرونه في ليلة واحدة في العام، قلت: فما هي؟ قال: في ليلة القدر فيحضره في تلك الليلة الأنبياء والمرسلون ويحضره الملأ الأعلى من الملائكة المقربين وغيرهم، ويحضره سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ويحضر معه أزواجه الطاهرات، وأكابر صحابته الأكرمين رضي الله عنه أجمعين).

ـــ حضور الملائكة للديوان:

يقول السلجماسي: وسمعته رضي الله عنه يقول: (إن الديوان أولًا كان معمورًا بالملائكة ولَّـما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم جعل الديوان يَعْمُر بأولياء هذه الأمة، فظهر أن أولئك الملائكة كانوا نائبين عن أولياء هذه الأمة المشرفة حيث رأينا الولي إذا خرج إلى الدنيا وفتح الله عليه وصار من أهل الديوان فإنه يجيء إلى موضع مخصوص في الصف الأول أو غيره فيجلس فيه و يصعد الملك الذي في ذلك الوضع وهكذا كانت بداية عمارة الديوان حتى كمل ولله الحمد، كلما ظهر ولي صعد ملك، وأمَّا الملائكة الذين هم باقون فيه يكونون في الصفوف الستة، كما سبق، فهم ملائكة ذات النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا حفاظًا لها في الدنيا ولما كان نور ذاته صلى الله عليه وسلم مُفرقًا في أهل الديوان بقيت ملائكة الذات الشريفة مع ذلك النور الشريف. وإذا حضر النبي صلى الله عليه وسلم في الديوان وجاءت معه الأنوار التي لا تطاق بادرت الملائكة الذين مع أهل الديوان ودخلوا في نوره صلى الله عليه وسلم فما دام النبي صلى الله عليه وسلم في الديوان لا يظهر منهم ملك فإذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم رجع الملائكة إلى مراكزهم[53]. وإذا حضر سيد الوجود صلى الله عليه وسلم مع غيبة الغوث فإنه يحضر معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وأمهما فاطمة الزهراء تارة كلهم وتارة بعضهم رضي الله عنهم أجمعين، وتجلس مولاتنا فاطمة مع جماعة النسوة اللاتي يحضرن الديوان في جهة اليسار، بل تكون مولاتنا فاطمة أمامهن رضي الله عنها وعنهن قال رضي الله عنه، وسمعتها رضي الله عنه تصلي على أبيها صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي وهي تقول: "اللهم صل على من روحه محراب الأرواح والملائكة والكون اللهم صل على من هو إمام الأنبياء والمرسلين اللهم صل على من هو إمام أهل الجنة عباد الله المؤمنين". وكانت تصلي عليه صلى الله عليه وسلم لكن لا بهذا اللفظ وإنما أنا استخرجت معناه.

ـــ السريانية لغة أهل الديوان:

ويقول أحمد بن مبارك: سمعته رضي الله عنه، يقول: (إن لغة أهل الديوان رضي الله عنهم هي السريانية لاختصارها وجمعها المعاني الكثيرة ولأن الديوان يحضر الأرواح والملائكة والسريانية هي لغتهم ولا يتكلمون العربية إلا إذا حضر النبي صلى الله عليه وسلم أدبًا).

ـــ أرواح الأولياء تحضر الديوان:

يقول السلجماسي: وسمعته رضي الله عنه، يقول: (إن الصغير من الأولياء يحضر بذاته، وأما الكبير فلا تحجير عليه ـــ يشير رضي الله عنه إلى أن الصغير إذا حضر غاب عن محله وداره فلا يوجد في بلدته أصلًا لأنه يذهب إليه بذاته ـــ، وأما الكبير فإنه يُدبَّر وعلى رأسه فيحضر ولا يغيب عن داره لأن الكبير يقدر على التطور على ما شاء من الصور لكمال روحه تدبر له إن شاء ثلاثمائة وست وستون ذاتًا، بل سمعت الشيخ رضي الله عنه مرة وأنا معه خارج باب الحبشة، أحد أبواب فاس حرسها الله، يقول: (إيش هو): الديوان والأولياء الذين يقيمونه كلهم في صدري وسمعته مرة يقول إنما يقام الديوان في صدري).

ـــ كيف تدار أمور الديوان في غياب الغوث:

يقول السلجماسي: وسمعته رضي الله عنه، يقول: (قد يغيب الغوث عن الديوان فلا يحضر فيحصل بين أولياء الله تعالى من أهل الديوان ما يوجب اختلافهم، فيقع منهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضًا، فإن غالبَهُم اختار أمرًا وخالف الأقل في ذلك فإن الأقل يحصل فيهم التصرف السابق فيموتون جميعًا. وقد اختلفوا ذات يوم في أمر فقال طائفة منهم قليلة: "إن يكن لكم ذلك الأمر فلتمت"، فقالت الطائفة الكثيرة: "فموتوا إن شئتم"، فماتت الطائفة القليلة. قال رضي الله عنه: فإن تكافأ الفريقان إن حصل التصرف فيهم معًا؟ فقلت: "فإنهم أهل بصيرة وكشف فلمَّ يحصل بينهم النزاع وهم يشاهدون مراد الله تعالى ببصيرتهم؟ فقال رضي الله عنه: إذا كان الأقل هو المخالف فإن الله يحجبهم عن المراد حتى ينفذ ما فيهم، وإذا تكافأ الفريقان فإن مراد الحق سبحانه يخفي على الجميع لأن قلوب الأولياء الأوفياء مظاهر الأقدار، وقد اختلفت وتكافأت، فقلت: "فما سبب غيبة الغوث رضي الله عنه عن الديوان؟" فقال رضي الله عنه: سببه أحد أمرين إما غيبته في مشاهدة الحق سبحانه فلهذا لا يحضر في الديوان، وإما كونه في بداية توليته كما إذا كان بقرب موت الغوث الذي قبله، فإنه قد لا يحضر في بداية الأمر حتى تتأنس ذاته شيئًا فشيئًا. قال رضي الله عنه: وقد يحضر سيد الوجود صلى الله عليه وسلم في غيبة الغوث فيحصل لأهل الديوان من الخوف والجزع من حيث

إنهم يجهلون العاقبة في حضوره صلى الله عليه وسلم ما يخرجهم عن جناسهم حتى إنه لو طال ذلك أيامًا لانهدم العوالم.

لقد اخترع الدباغ وظيفة لغار حراء لم ترد على خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم حال حياته، وجمع الأحياء مع الأموات، وقدم مذهب مالك على المذاهب كلها، وأشاع أحمد بن مبارك هذا الهراء حتى أصبح كثير من أهل التصوف يصدقون هذا الكون المخفي عنا، بل يتعجبون من تكذيبنا له باتهامنا بالغفلة والعمى والزيغ عن طريق النور، والحقائق الجلية لهم بظنهم.

أن كل كتابة جرى بها قلمٌ لصوفيّ وكل عبارة نطق بها وسُمِعَتْ عنه، مما أراد به نقل خبرته الروحية إلى الآخرين، هو من قبيل الشعر الذي يخرج من مجال المعقولات مهما تكن له من قيمة تعبيرية في مجال الفن الأدبي؛ وإن أعجب العجب في هذا الصدد هو أن الأدوات نفسها التي ندرك بها المدركات العقلية هي الأدوات التي يعدها المتصوفة مؤدية إلى الضلال؛ فإذا كانت المشاهدات العلمية وسيلتها الحواس، فالحواس عند الصوفي لا ترى إلا الظاهر دون الباطن، والحق إنما يكون ـــ عندهم ـــ فيها هو باطن مستور، ولا يكون أبدًا فيما تراه الأبصار مما يظهر لها على أسطح الأشياء؛ وإن كانت المعرفة العلمية قائمة على تحليل الموضوع المراد معرفته إلى عناصره الأولية التي منها يتألف، فالتحليل عند الصوفي يفسد علينا حقيقة الشيء، لأن حقيقته هي في جملته مجتمعةً في مركَّب واحد، لا في أجزائه وهي فرادى.

والخلاصة هي أنه بينما "العلم" يقف دائمًا عند حدود ما يظهر لنا من الكون يزعم المتصوفة أن العالم الحق هو ما يكمن وراء الظواهر، فهم بذلك يعيشون في عالم غير عالمنا الذي نعيش فيه، ومن ثم يبطل بيننا تبادل المعرفة على النحو الذي نألفه في العلوم وفي الحياة العملية على حد سواء؛ وإن هذا العالم المستور عنا والمكشوف للصوفي، يبهره بهرًا قد يُشيع فيه رجفةَ الخوف، وكثيرًا ما يراه الصوفي وكأنه يرى نورًا ساطعًا يستعصي على الرؤية الكاملة، ويخيل إليه أن الحقيقة الباهرة تلك تروغ منه وتختفي كلما ظن أنه قد أوشك على شهود كامل، فتراه عندئذ ينحو باللائمة على ما يزال باقيًا عنده من غلالات الأباطيل التي تخلقها في الإنسان حواسه؛ وإننا إذ نُشَّبه رؤية المتصوف هذه برؤية الشاعر والفنان والعاشق الولهان بموضوع حبه، فإنما نضيف القول بأن هؤلاء الأشباه جميعًا لا

يتلقون من هذا العالم المحجوب إلا لمعات خافتة يرونها ثم يعودون إلى حياة الحس المألوف.

وأمَّا المتصوف فيغمس روحه في ذلك الضوء غمسًا، فلا عجب أن نجد المتصوفة على عقيدة راسخة بأن ما يعرفونه عن "الحق" بمثل تلك الرؤية المباشرة المستغرقة فيما تراه، لا يجوز أن يقاس إليها أي معرفة أخرى، فكل معرفة أخرى ــ ومنها المعرفة العلمية ذاتها ــ إن هي إلا جهالة عمياء إذا قورنت بالحقيقة التي تشرق على المتصوفة في لحظات وجدهم. تلك الرؤية الكاشفة عما حجبته الأستار عن سائر الناس، هي إذن أولى خصائص التصوف، وهي خصيصة تكفي وحدها لنُدخِلَ التصوف في "عالم اللامعقول" [54].

يقول المستشرق الألماني فريتز ماير: (إن العقلانية والدين قد اقترنا إلى حد جعل المسلمين يتباهون بأن دينهم هو الأكثر عقلانية بين كل الأديان). وأعتقد أن الرجل لم يطالع ما نقله ابن مبارك السلجماسي عن أستاذه الدباغ، ولو قرأ لكان له رأي آخر ليس في الإسلام بالطبع ولكن في بعض أتباعه الذين كادوا أن يتفوقوا على مبدعي أفلام الخيال العلمي، لتجاوزهم المعقول، ومحاولة الزج بالإسلام إلى مناطق تفوق اللامعقول، فكانوا أشد خطرًا عليه من أعدائه.

الشيعة وغار حراء

بالغ الشيعة ــ كما ذكرت آنفًا ــ في موالاة علي وأولاده، وحبهم ومدحهم مبالغة جاوزوا فيها الحدود، وأسسوا عليها ديانتهم ومذهبهم، حتى صار مذهبًا مستقلًا ودينًا منفصلًا عن الدين الذي جاء به محمد الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه واخترعوا روايات كاذبة، واختلقوا أحاديث موضوعة وقالوا: "لا دين إلا لموالي علي وأولاده"[55]. كما أن الجمهرة الغالبة من الصوفية يرون في عليًا أنه زعيمهم، وأنه أول المتصوفين في الإسلام، وشأن الصوفية في ذلك شأن جميع الفرق الإسلامية من أهل علم الكلام، فإن هذه الفرق تزعم الانتماء إليه على الرغم من الخلافات العميقة بينها.

أما المتصوفة فينسبون إليه علم الباطن، ويخصونه بأنه تلقى أسرار التأويل عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكأنهم يقابلون بين التنزيل، أي القرآن، وبين التأويل مقابلتهم بين الظاهر والباطن، تلك المقابلة التي سنجدها أشد ما يكون وضوحًا وغلوًا عند طائفة الإسماعيلية، وفي الفرق التي تفرعت عنها فيما بعد.

أيًا ما كان الأمر، فجل المتصوفة في البلاد الإسلامية يجمعون على أنهم يقتبسون طريقتهم من الإمام علي كرم الله وجهه، وقد صرح بذلك الشبلي والجنيد وسري السقطي، وأبي يزيد البسطامي، وأبو محفوظ الكوفي، كما ينسبون إليه خرقة التصوف التي تعد شعارًا لهم، على الرغم من أنهم قد أخذوا مضمون تصوفهم من مصادر أخرى، فيما يبدو، كذلك نراهم يحددون أحوال التصوف، وطبقات الصوفية لما يقررونه من أنهم أخذوا عنه الحكمة [56].

ومن مغالاة الشيعة في الإمام علي بن أبي طالب أنهم لفقوا وقائع التاريخ ليكون له مع الرسول صلى الله عليه وسلم في كل أوقاته ورحلاته صحبة ومشاركة؛ فهو الذي كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى الطائف وليس زيد بن حارثة رضي الله عنه، كما أثبتوا أنه كان رفيقه في غار ثور، على الرغم من التعارض بين أن يكون في فراش الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة خروجه مهاجرًا من مكة، وبين مرافقته في التو واللحظة، ولكن العقلية الشيعية تستوعب هذا وأكثر بل تبرره وتمرره، ولو عُرِض هذا في فيلم سينمائي لكان سقطة درامية تخالف منطق السرد والأحداث بكل المقاييس الفنية بل والعقلية، وإذا أفلحت افتراءاتهم في أن يكون اسم النبي صلى الله عليه وسلم كان مكتوبًا ومقرونًا مع اسم علي في رحلة المعراج، فكيف يغيب من مشهد غار حراء والمنطقية هنا متوافرة!

يرى الشيعة أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ أخذ عليًا لم يفارقه يومًا، وقد دلت الروايات ـــ ونظرًا إلى اهتمامه الكبير به ـــ على أنّ رسول اللّه كان يأخذ عليًّا معه إلى غار حراء وحينما هبط ملك الوحي على النبي لأوّل مرّة وكرّمه بالرسالة كان علي بجانبه في ذلك الغار، وكان ذلك اليوم من نفس ذلك الشهر الذي كان الرسول يذهب فيه إلى جبل حراء للعبادة. وقد قال الإمام علي حول ذلك في الخطبة القاصعة: "ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم،ـ فقلت: يا رسول اللّه ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلاّ أنّك لست بنبي ولكنّك لوزير وأنّك لعلى خير"[57].

قد يكون هذا الكلام مرتبطًا بعبادة الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في حراء في فترة ما بعد البعثة غير انّ الروايات السابقة وأنّ عبادته في حراء كانت قبل البعثة غالبًا، تدلّ جميعها على أنّ هذا الكلام يتعلق بفترة ما قبل البعثة. وعلى أية حال

فإنّ روح علي الطاهرة وتوجه واهتمام الرسول الدائم أوجبا أن يرى ويسمع بقلب يقظ وبصر ثاقب وأُذن صاغية أشياء وأصواتًا من غير المقدور رؤيتها وسماعها للناس العاديين وهو لَمَّـا يزل يعيش فترة الطفولة. وكتب ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة: (قد ورد في كتب الصحاح انّه حينما أكرم اللّه محمّد بالرسالة وهبط عليه جبرئيل لأوّل مرّة كان علي معه)[58].

يعدِّد ابن أبي الحديد[59] أسباب اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عمه علي لأن يجاوره في حراء، وهي: طهارة نفس علي، ونقاوة روحه التي كان يتحلّ بها، وكذلك التربية المستمرّة التي كان يحظى بها في حجر الرسول اصلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى اتصاف علي منذ نعومة أظفاره ـ ببصيرة نفّاذة وقلب مستنير، وأُذن سميعة واعية تمكنه من أن يرى أشياءً ويسمع أمواجاً تخفي على الناس العاديين ويتعذّر عليهم سماعها ورؤيتها. وهو ما يؤكده قول علي عن نفسه: (أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة).

بل أن عليًا كان يرى الضوء ويسمع الصوت مع الرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل تكليفه كما يصرح بذلك الإمام جعفر الصادق! وهو ما يجعله قسيم النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وما اختصه الله تعالى به قبل الرسالة وكاد أن يكون شريكه في النبوة، كما في الحديث الذي خاطب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عليًا: "لولا أنّي خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوّة، فإن لا تكن نبيًّا فإنّك وصيّ نبيّ ووارثه، بل أنت سيّد الاوصياء وإمام الأتقياء" [60].

وهناك القرامطة من غلاة الشيعة من رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الأول الذي أمر فيه بنصب علي بن أبي طالب بغدير خم فصارت الرسالة في ذلك اليوم إلى عليّ، واعتلوا في ذلك بخبر تأوّلوه وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كنت مولاه فعلي مولاه"، وأن هذا القول منه يعني خروجه من الرسالة والنبوة، وتسليمه ذلك لعلي بن أبي طالب بأمر الله عز وجل وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك صار مأمومًا لعلي بن أبي طالب، محجوجًا به [61] بل رأت أحد فرق الشيعة التي تدعى الخطابية أن رسل الله حججه على خلقه لا يزال فيهم رسولان، واحد ناطق والآخر صامت: فالناطق هو

محمد، والصامت علي بن أبي طالب، فهم في الأرض اليوم طاعتهم مفترضة على جميع الخلق يعلمون ما كان وما هو كائن [62].

وليس هناك فارق كبير بين غلاة الشيعة أو معتدليهم، لأن جذور المغالاة أو أسبابها كامنة أصلًا في تلك النصوص التي تغالي في افتعال وقائع ليس لها مردود تاريخي على الأرض أكثر من وجودها في أذهان من يطلقونها فقط ويريدون منا أن نلغي عقولنا ونسلم بها، أو تزييف وقائع تاريخية في الزج بشخص معين ليكون موجود فيها، مثل ما يقول جعفر المرتضى العاملي [63]: (وفي خطبته "عليه السلام" المسماة بالقاصعة يقول عن رسول الله "صلى الله عليه وآله": "وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرقه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه. وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل."إلى أن قال: "ولقد كنت أتبعه اتِّباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري".

ونقول:لاحظ ما يلي:لماذا في غار حراء.:وقد ذكر "عليه السلام" أنه كان مع النبي "صلى الله عليه وآله" حين يكون في حراء فيراه ولا يراه غيره، لم يكن "عليه السلام" مجرد متفرج على رسول الله "صلى الله عليه وآله"، بل كان يشاركه في تعبده وتخشعه. والذي نراه: أن تعبده "صلى الله عليه وآله" هو وعلي "عليه السلام" بحراء لم يكن عفويًا، بل كان له سبب هام جدًا، وهو أن الأصنام قد وضعت حول الكعبة وفيها وعليها، فلم يكن يتعبد عندها أو فيها كراهة أن يتخيل أحد أنه إنما يسجد للأصنام، أو يخضع لها، أو أنه يُكِنُّ لها في نفسه شيئًا من الاحترام الذي يزعمونه. ويلاحظ: أن بني هاشم وعلى رأسهم عبد المطلب وأبو طالب لا يُذْكَرُون في جملة المترددين على الكعبة، أو في جملة الذين يجلسون عندها، أو في جملة من كان يعظم تلك الأصنام، ربما لأنهم كانوا أيضًا على دين الحنيفية، ويريدون أن ينأوا بأنفسهم عن أن يتوهم في حقهم أي تقديس لتلك الأصنام).

وغير مرتضى العاملي كثير ممن ساروا على نفس النهج من إقحام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في واقعة غار حراء، كالنص التالي:

كان الرسول الأعظم ص قبل البعثة وفي شهر رمضان من كل سنة في غار حراء منشغل بعبادة الله ومناجاته، وفي غير شهر رمضان كان يذهب إليه في كل شهر عدة مرات أيضًا، وحسب الروايات، كان النبي الأكرم ص يصاحب عليًا (ع) معه إلى ذلك الموضع الرفيع، كما يشير إلى ذلك الإمام علي (ع) في كلامه الشريف: "ولقد كان ص يحاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري"[64].

ومن هذا القبيل ما نراه مبثوثًا في الكتب من إسناد كل فضل وكل علم إلى علي بن أبي طالب إما مباشرة وإما بواسطة تلميذه [65]، فليس هناك من علم إلا وأصله عليّ بن أبي طالب، كأن العقول كلها أجدبت وأصيبت بالعقم إلا علي بن أبي طالب وذريته، وعلي رضي الله عنه من ذلك براء [66].

وعلى قدر ما اطلعتُ عليه في الكتب التي تناولت مناقب الإمام عليّ وخصائصه، لم أقع على أو إلى ما يشير إلى مرافقته للنبي صلى الله عليه وسلم في صعوده للغار أو الاختلاء فيه، خاصة وأن الأقوال قد تفرقت في تحديد سنه وقت إسلامه إلى سبعة أقوال تبدأ من سن سبع سنين حتى ست عشرة سنة، والأغلب ولادته قبل البعثة بعشر سنين، وأنه أول من أسلم من الصبيان، وهي سن لا تسمح له بالمرافقة.

لقد كان عليّ ـ ابن العشر سنوات ـــ أقوى وأشجع وأثبت من الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو الرجل الذي بلغ الأربعين من عمره ـــ بزعم الشيعة ـــ فحينما هبط ملك الوحي على النبي لأوّل مرّة وكرّمه بالرسالة كان علي بجانبه في ذلك الغار! فلم يرجع كما رجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى زوجه يرجف فؤاده، قائلًا: زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع! أهذا كلام ينطلق من عقلاء يخاطبون به عقلاء، ألهذا الحد بلغ بالشيعة الافتتان بعلي حتى لم يراعوا الأدب مع المقام النبوي، ليثبتوا افتراءات ومزاعم لم تسكن إلا خرائب عقولهم، وخوارم مروءاتهم، وضحالة أفكارهم.

لماذا لم يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من علي أن يحكي لخديجة رضي الله عنهما ما شاهده وسمعه وشمه إذا كان معه. ولماذا لم يصاحب السيدة خديجة وزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ورقة ابن نوفل. فأين كان علي.

كان علي رضي الله عنه وأرضاه في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن الرسول في حراء ذلك الغار البعيد يتحنث، ولم يكن الإمام الكريم في حاجة لمثل هذه

الترهات، والتخريجات الواهية التي لن تزيد من محبته ومقامه في قلوب كل المسلمين إلى يوم الدين.

هوامش الفصل السادس:

[1] انظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه، دكتور أبو العلا عفيفي. مدخل إلى التصوف الإسلامي، مقدمة في الفلسفة الإسلامية، دكتور محمود حمدي زقزوق، دار الفكر العربي، القاهرة، شيخ الاستشراق شهاب الدين السهروردي "حكمة الإشراق والفينومينولوجيا" دكتور حسن حنفي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1974.

[2] المؤرخ الشيعي الحسن بن موسى النوبختي، أحد أعلام الشيعة في القرن الثالث الهجري.

[3] الدكتور كامل مصطفي الشيبي، في كتابه: "الصلة بين التصوف والتشيع". أحمد الوائلي في كتابه: "هوية التشيع". محمد الحسين آل كاشف الغطاء في كتابه: "أصل الشيعة وأصولها".

[4] النوبختي، فرق الشيعة، ص 2.

[5] فلاديمير ويج بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الخامسة، ص97، دار المعارف، القاهرة 1983.

[6] تاريخ ابن خلدون (3/140).

[7] وافقه من المعاصرين أحمد أمين في كتابه: "فجر الإسلام" ص421، والدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه: "تاريخ الإسلام" (1/340)، والمستشرق جولد تسهير في كتابه: "العقيدة والشريعة في الإسلام" ص 174.

[8] فلاح بن إسماعيل بن أحمد، "العلاقة بين التشيع والتصوف"، ص47 ــ 48، رسالة دكتوراه مقدمة إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة 1411هـ.

[9] أنظر: "التصوُّف عند الفرس"، إبراهيم الدسوقي شتا، دار المعارف: القاهرة، دت. (ص: 23).

[10]المقدمة، عبدالرحمن بن خلدون، مكتبة لبنان، بيروت، 1992، ص 517.

دار ناشري للنشر الإلكتروني

[11] المقدمة، ابن خلدون، ص 473.
[12] مستدرك الوسائل ج12 ص322 عن حديقة الشيعة للمولى الأردبيلي.
[13] مستدرك الوسائل ج12 ص323 .
[14] دكتور شهرام بازوكي، "الدين والتصوف والعرفان، العلاقة والارتباط"، نصوص معاصرة، مركز البحوث المعاصرة في بيروت.
[15] دكتور محمد بركات البيلي، الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، ص46.
[16] انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (1/21). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (7/12). عقائد الإمامية ص 51. الحكومة الإسلامية للخميني ص 91.
[17] رسائل إخوان الصفا: 119/4.
[18] دكتور محمود علي مكي، المدائح النبوية . الطبعة الأولى، ص 73 الشركة المصرية العالمية للنشر.
[19] دكتور شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده. الطبعة الثالثة، ص231، دار المعارف مصر.
[20] انظر "شجرة محمد" للدكتور علي سامي النشار، ومحمد شاكر، سلسلة الفكر الإنساني السكندري، 1971.
[21] رواه البخاري في صحيحه باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
[22] "بهجة النفوس" شرح مختصر البخاري للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي المتوفي 699هـ ج1/ص10 ــ 11.
[23] "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري " ج1/ص62 للقسطلاني المتوفي سنة 923هـ .
[24]مولد شريف، ينسب لابن عربي.
[25] الفتوحات المكية، (46/3).
[26] دكتور محمود سالم محمد، المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي، طبعة أولى، ص 158، دار الفكر، دمشق، 1417.
[27]الأعراف:142.
[28] السهروردي، "عوارف المعارف"، ص 209، دار الكتاب العربي، بيروت.
[29] فتاوى شيخ الإسلام 406/10.

[30] إيريك يونس جوفروا، أستاذ محاضر في جامعة "مارك بلوخ" بفرنسا، ألف العديد من الكتب التي تهتم بالتصوف لكونه من أبرز المتخصصين والمختصين بالتصوف.

[31]على هامش الملتقى الدولي "الأمير رجل لكل الأزمنة"، الفجر يوم 28 – 02 – 2012، وانظر: تاريخ الجزائر الثقافي الجزء السابع للدكتور أبو القاسم سعد الله.

[32] ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص 30،31،47، مكتبة الإيمان، المنصورة.

[33] أبو المعالي الشافعي السلامي، "غاية الأماني في الرد على النبهاني"، ج1، ص440، القاهرة 1325هـ.

[34]انظر: مقدمة هياكل النور للسهروردي. أما ابن سبعين فيصرح في "بد العارف" بأن النبوة رتبة ممنوعة ولا طمع فيها بوجه من الوجوه، وإن كان في طبع الإنسان أو في طبع جنسه، أن توجد له النبوة، فالأنبياء بشر.

[35] دكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، "ابن سبعين وحكيم الإشراق"، الفصل العاشر من الكتاب التذكاري: "شيخ الإشراق: شهاب الدين السهروردي، في الذكرى المئوية الثامنة لوفاته"، ص296، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1975.

[36] انظر: كتاب "أنوار النبي صلى الله عليه وسلم، أسرارها وأنواعها" تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الذي كتب مقدمة ضافية في تفنيد الحجج والتشنيعات على ابن سبعين، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2007.

[37]"مجموعة رسائل ابن سبعين"، تحقيق وتقديم دكتور عبد الرحمن بدوي، ص 11 ــ 12.

[38] ابن سبعين، بد العارف، ص 320.

[39] رسائل ابن سبعين، دراسة تحليلية وفنية، رسالة ماجستير إعداد عبد الظاهر أحمد عبد الناصر، كلية الآداب، جامعة المنيا بمصر 1982.

[40] الأفق الأندلسي (٧/٧)، البدائعُ الأندلسية ــ المصري اليوم ٤ /٥ /٢٠١١.

[41] انظر: دكتور إبراهيم مدكور، في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، ج1، ص55، دار المعارف، القاهرة 1983. والدكتور أبو العلا التفتازاني، ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ط 1، ص9، دار الكتاب اللبناني 1973.

[42] انظر: تفسير السعدي، ص262.

[43]حزب ابن سبعين. مخطوط بدار الكتب الوطنية بالقاهرة، رقمه 1634.

[44] نفح الطيب، ج2، ص400.

[45] محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ج2، ص100.
[46] الطبقات الكبرى 67/1.
[47] انظر: معجم الشيوخ 100/2، الأعلام 28/4، معجم المؤلفين 262/5 ــ 263.
[48] صادق سليم صادق، المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، عرضًا ونقدًا، ص 183 ــ 185، مكتبة الرشيد، الرياض، 1994.
[49] محمد أحمد لوج، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة، ص61، ج1، دار ابن القيم ودار ابن عفان، القاهرة، 2002.
[50] نشر المثاني (40/4)، التقاط الدرر، للقادري (393/2-394)، طبقات الحضيكي (120/1)، سلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني (203/2)، شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف (352)، إتحاف أعلام الناس لابن زيدان (291/1)، هدية العارفين (174/1)، معجم المؤلفين (56/2)، الأعلام للزركلي (202/1).
[51] الإبريز ص163،164.
[52] الإبريز ص164.
[53] الإبريز ص174.
[54] دكتور زكي نجيب محمود، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، ص 378 ــ 379، ط3، دار الشروق، القاهرة، 1981.
[55] إحسان إلهي ظهير، الشيعة وآل البيت.
[56] دكتور محمود قاسم، دراسات في الفلسفة الإسلامية، الطبعة الثانية، ص 100، دار المعارف، مصر 1967.
[57] شرح نهج البلاغة: 208/13
[58] مهدي البيشوائي، "سيرة الأئمة عليهم السَّلام، عرض وتحليل للحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية للأئمة المعصومين عليهم السَّلام"، ترجمة حسين الواسطي، ص32، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام طبعته مطبعة اعتماد ـ قم، 1423 هـ.
[59] نهج البلاغة: الخطبة القاصعة الرقم 187.
[60] ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة 310/13.
[61] صلاح أبو السعود، الشيعة، النشأة السياسية والعقيدة الدينية منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم" ص125، مكتبة النافذة، القاهرة،2004. [63]

جعفر المرتضى العاملي، الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام، ج1، ص113 ــ 114، المكتبة العقائدية.
[62] دكتور محمد أبو زهرة، الإمام جعفر الصادق، ص476، دائرة معارف الشعب، القاهرة 1959.
[63]جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة الإمام علي (عليه السلام)- ج 1، ص81، المكتبة العقائدية.
[64]محمد محمدي الأشتهاردي، منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام.
[65] أحمد أمين، فجر الإسلام، ص436، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
[66] المصدر السابق ص 437.

الفصل السابع

غار حراء في الكتب السابقة

لا يستطيع فصل أن يلم بكل البشارات التي أعلنت عن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم: زمن ظهوره، وصفاته وخصاله صلى الله عليه وسلم، وحوارييه وصفاتهم، وأزواجه أمهات المؤمنين، والأحداث التي ستكون حوله، والبيئة المحيطة به، تلك البشارات التي حوتها الكتب الكثيرة كالتوراة والإنجيل والزبور والزبر وكتب الهندوس وغيرهم، هذا إذا توقف جهدنا على ذكر نصوصها دون تفصيل من شرح أو تعليق أو تفسير، أو نذكر جملة الاعتراضات عليها من الذين يرون أنها لا تنبئ عن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم بل عن يسوع بزعمهم، ودون ذكر كافة التفنيدات لتلك الآراء من قديم وحديث للكتاب المسلمين أو لمفكرين أسلموا وأدلوا بدلوهم في تلك المسائل التي تستتبع إيراد النصوص الأصلية للبشارات في لغاتها، والاختلاف بين ترجماتها للوقوف على التزييف والتحريف وخاصة في الترجمات العربية للأسف، غير أن هذا ليس من صميم دراستنا.

ولهذا كان من الأجدى أن ينصب تناولنا للبشارات بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء في العهدين القديم والجديد أو في كتب الهندوس بأمرين منهما فقط، هما: "جبال فاران"، ولقاء جبريل بالرسول عليهما السلام في غار حراء، وهما مرتبطان أشد الارتباط بموضوع كتابنا عن غار حراء حتى لا تتشتت بنا السبل.

ـــ أولًا: غار حراء في العهدين القديم والجديد:

لم تذكر التوراة أو الإنجيل "غار حراء" نصًا، وإنما ذكرت جبال مكة "فاران"، تلك الجبال التي تحتضن ذلك الغار، وأطلق عليها جبل النور للدلالة عليه وأصبح صعوده دلالة على أنه وسيلة للوصول إلى الغار حيث النور:

أ ـــ جبال فاران وفيه "غار حراء":

جبال فاران: هي جبال مكة. وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة[1]، فإن ادعوا أنها غير مكة، فإن ذلك من تحريفهم الكلم عن مواضعه، خاصة وأن في التوراة أن إسماعيل سكن في برية فاران، جاء في التوراة: (وكان الله

مع الغلام فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران. وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر)[2].

وجبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه، ومنه كان نزول أول الوحي على النبي، وحوله من الجبال جبال كثيرة حتى قد قيل إن بمكة اثني عشر ألف جبل، وذلك المكان يسمى "فاران" إلى هذا اليوم وفيه كان ابتداء نزول القرآن.

والبرية التي بين مكة وطور سينا تسمى "برية فاران"، ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه بعد المسيح عليه السلام نزل كتاب في شيء من تلك الأرض، ولا بعث نبي، فعلم أنه ليس بالمراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد صلى الله عليه وسلم، وهو سبحانه ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني، لأنه في مقام الخبر عنها، فقدم الأسبق فالأسبق، فذكر إنزال التوراة، ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهداه.

وهذه الأماكن الثلاث أقسم الله بها في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [3]، فأقسم بالتين والزيتون: وهو الأرض المقدسة الذي ينبت فيها ذلك، ومنها بعث المسيح عليه السلام وأنزل عليه فيها الإنجيل، وأقسم بطور سينين: وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام، وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة، وأقسم بالبلد الأمين: وهي مكة، وهو البلد الذي أسكن إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل وأمه، وهو الذي جعله الله حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم خلقًا وأمرًا قدرًا وشرعًا، فإن إبراهيم عليه السلام حرمه ودعا لأهله فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[4]، واختلاف ترتيب القرآن للأماكن الثلاثة عن ترتيبها في التوراة، يرجع إلى أن القرآن أقسم بها تعظيمًا لشأنها، وذلك تعظيم لقدرته سبحانه، وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها على وجه التدريج، درجة بعد درجة، فختمها بأعلى الدرجات، فأقسم أولًا بالتين والزيتون، ثم بطور سينا، ثم بمكة، لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن، ثم التوراة، ثم الإنجيل، وكذلك الأنبياء، فأقسم بها على وجه التدريج[5].

والمعلوم أن "فاران" اسم عبراني لجبال مكة شرفها الله له ذكر في أَعلام النبوة قال وأَلفه الأُولى ليست همزة، كما جاء في معجمي "لسان العرب" و"تاج

العروس"، بل إنه الاسم الذي عليه الإجماع من العلماء فيمن تحدثوا عن أسماء مكة، وأن المقصود به مكة، والكلمة يهودية المصدر ومذكورة في كتابي التوراة والإنجيل. كما ذكر ياقوت الحموي [6] أن فاران بعد الألف راء وآخره نون كلمة عبرانية معربة وهي من أسماء مكة ذكرها في التوراة قيل هو اسم لجبال مكة.

ولقد ورد في سفر التثنية[7]: "وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته، فقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم".

فمجيء الرب من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام؛ لأن ساعير اسم لجبال فلسطين، واسم لقرية من قرى الناصرة، وأما استعلانه من جبل فاران فهو إنزاله القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن فاران هي مكة المكرمة، والدليل على ذلك ما ورد في حق إسماعيل عليه السلام في سفر التكوين (21)، وكان الله مع الغلام فكبر، وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر[8].وفي الصحف المنسوبة للإثني عشر نبيًا: أن الله سيتجلى من القبلة وتظهر كلمة القدس من جبال فاران ظهورًا أبديًا ويحمد الله على ذلك في السموات والأرض وكلمة أحمد تملأ الأرض[9].

وجاءت البشارة واضحة بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومكة المكرمة التي أشارت لها النص بـ "فاران": "الله جاء مِن تيمان، والقُدُّوس من جبل فاران، سلاه، جلاله غطى السموات، والأرضُ امتلأت مِن تسبيحه، وكان لَمَعانٌ كالنُّور، له مِن يده شُعاع، وهناك استِتارُ قدرته، قدامه ذهَب الوبأ، وعند رجلَيهِ خرجَت الحمى"[10].

أما من توهم أن فاران الواردة في هذه البشارة هي التي بقرب جبل سيناء، فليس ظنه صحيحًا، لأن فاران تلك هي برية فاران كما أفادت عنها التوراة. وهنا ذكر جبلاً. ودعيت تلك فاران بسبب أنها ظليلة من الأشجار. ولفظة فاران عبرية تحتمل الوجهين، فإذا ذكرت البرية لزم أنها ظليلة، وإن ذكر الجبل ينبغي أن يفهم بأنه جبل ذو غار، وفي هذه البشارة ذكر جبل فعلم أنه جبل فاران الذي فيه المغارة.

كما أن لفظة فاران مشتقه من فاري بالعبرية وعربيتها: المتجمل. أي المتجمل بوجود بيت الله. وهذه الجبال قد تجملت ببيت الله.

ومعنى جاء الرب: أي ظهر دينه ودعي إلى توحيده. كما أن لفظة "رب" هنا تقع على موسى وعيسى ومحمد وهي مستعملة بهذا الإطلاق في اللغة السريانية والعربية فتقول العرب رب البيت بمعنى صاحب البيت ويقول السريان لمن أرادوا تفخيمه "مار" ومار بالسريانية هو الرب.

وقد أورد المهتدي الإسكندراني هذه البشارة باللغة العبرية ثم ترجمها إلى اللغة العربية ونص ترجمته هكذا: (جاء الله من سيناء وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران، وظهر من ربوات قدسه عن يمينه نور وعن شماله نار، إليه تجتمع الأمم، وعليه تجتمع الشعوب) وقال: (إن علماء بني إسرائيل الشارحين للتوراة شرحوا ذلك وفسروه بأن النار هي سيف محمد القاهر، والنور هي شريعته الهادية صلى الله عليه وسلم[11].

من المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتكف قبيل نـزول الوحي في غار حراء، حيث يتأمل ويَتحنّث فيه، وكان أول نـزول الوحي عليه في هذا الغار. فإذا لم يكن فاران مكة، فأيّ مكان يكون إذن؟ وأيّ مكان شعّ نوراً مثل الدين الإسلامي الذي ظهر منه، وانتشر شرقاً وغرباً؟ ولـمّا لم يكن هناك في العالم بأسره مكان آخر، فيه كل هذه المواصفات غير مكة، فإن فاران الوارد في التوراة لا يعني سوى مكة، فإن الآية رقم 2 من الباب 33 من كتاب التثنية، والآية رقم 20 من الباب 21 من كتاب التكوين، وهي: [وسكن برّية فاران] تشير إلى الموضع الذي سكن فيه سيدنا إسماعيل عليه السلام. وهذا دليل واضح وقاطع على أن فاران هو مكة، وليس بمقدور أحد أن يثبت العكس، والاعتراضات التي أثيرت في هذا الموضوع اعتراضات سطحية وغير علمية. ثم إن ختام الآية التي تشير إلى أصحابه، وإلى كونه مكلفاً بالجهاد لا يدع مجالاً لأي شك أو شبهة في أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم هو المقصود، وهو المعنيّ[12].

وسأقتصر على جزء من النبوءة التي وردت في سفر إشعياء: اَلإِصْحَاحُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ:
[13وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلاَدِ الْعَرَبِ: فِي الْوَعْرِ فِي بِلاَدِ الْعَرَبِ تَبِيتِينَ يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ].
وفيها تحديد لمكان الوحي ووصفه، بأن بدء الوحي في بلاد العرب في الوعر في "غار حراء". والأحداث التاريخية تؤكد على أنه لم يكن هناك وحي من جهة بلاد العرب سوى الوحي وبدء رسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وقد وردت كلمة "الوحي" بدلالة اللفظ المستخدم لدى المسلمين العرب في القرآن: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[13]. ونستنتج من النص ما يلي :
ـــ حددت هذه النبوءة من بلاد العرب مكان بدء الوحي على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بكل دقة لفظًا ومكانًا.
ـــ وصف طبيعة بلاد العرب الجبلية بالوعورة "في الوعر"، والوعر هو الجبل كما جاء في القاموس المحيط، وإن أرض الحجاز وسلاسل جبالها هي الموصوفة بالوعر، ولفظ: [وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلاَدِ الْعَرَبِ: فِي الْوَعْرِ] دليل دامغ لموقع الحدث وخصائصه الطبيعية[14].

ب ـ لقاء جبريل بالرسول عليهما السلام في غار حراء:

يستفز بعض المسلمين، ممن يدعون التجديد في أيامنا وقبلها، ذكر صفة الرسول صلى الله عليه وسلم بـأنه "أمي" ويحاولون اللف عليها والدوران حولها بمدلولات لغوية، وأنساق لفظية للخروج بها من فحواها ومبناها لمفاهيمهم التي لا تستقيم جملة وتفصيلًا مع الكلمة في معناها الذي أرادها الله تعالى وصفًا لنبيه صلى الله عليه وسلم.
كما لا يتفهمون وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بـ "الأمي" بأنه الذي يتلو على الأميين آيات الله أي وحيه، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب أي يلقنهم إياه، كما كانت الرسل تلقن الأمم الكتاب بالكتابة، ويعلمهم الحكمة التي علمتها الرسل السابقون أممهم، في كل هذه الأوصاف تحد بمعجزة الأمية في هذا الرسول صلى الله عليه وسلم فهو مع كونه أميًا قد أتى أمته بجميع الفوائد التي أتى بها الرسل غير الأميين أممهم لا ينقص عنهم شيئًا، فتمخضت الأمية للكون معجزة حصل من صاحبها أفضل مما حصل من الرسل الكاتبين مثل موسى. وفي وصف الأمي

بالتلاوة، وتعليم الكتاب والحكمة، وتزكية النفوس، ضرب من محسن الطباق، لأن المتعارف عليه أن هذه مضادة للأمية[15].

فالأمر الذي لاشك فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وُلِّدَ أميًا، وظل على ذلك إلى أن بُعِّث وهو أمي، وهذا كمال في حقه صلى الله عليه وسلم ومعجزة من معجزاته الشريفة، قال الله تعالى :﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [16].

بل أن القرآن الكريم يشير إلى أن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم مذكورة أيضًا في أهل الكتاب: التوراة والإنجيل، قال تعالى:﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [17].
وإنكار أمية الرسول صلى الله عليه وسلم تحدث خللًا فيما جاءت به البشارات، ولقد سأل أحد نصارى الغرب الراحل أحمد ديدات متعجبًا من إيمانه ـــ أي ديدات ـــ وكذلك المسلمين برجل لا يستطيع القراءة ولا الكتابة.

فأجابه ديدات: (تعليقًا على كون الرجل أمي: فهذا تحقيق لنبوءة مذكورة في كتابك! في سفر أشعياء الاصحاح 29، العدد 12: [أَوْ يُدْفَعُ الْكِتَابُ لِمَنْ لاَ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَيُقَالُ لَهُ: «اقْرَأْ هَذَا» فَيَقُولُ: «لاَ أَعْرِفُ الْكِتَابَةَ»]. والآن إذا نظرت لتاريخ الإنسان الديني في الكتاب المقدس، فلن تجد في أي موضع أن رسول من الله حينما أعطاه الله الرسالة، قال: "إني أمي"، و لكن إذا قرأت أي سيرة تخص محمدًا سواء كتبها مسلمون أو غير مسلمون، ستجد أن أول آية نزلت عليه في غار حراء، عندما أتى إليه الملاك و أمره بلغته الأم قائلاً: ﴿اقْرَأْ﴾، قال محمد: "ما أنا بقارئ"، فأمره الملاك مرة أخرى: ﴿اقْرَأْ﴾، فأجاب مرة أخرى: "ما أنا بقارئ"، وللمرة الثالثة أجبره الملاك قائلًا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. والآن قد تفهم الرسالة وأن المطلوب منه أن يردد أو يُرتل، لأن اقرأ بالعربية تعني ردد أو رتل أو كرر، لذا فقد كرر الكلمات

كما أعطيت له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. إن كون الرجل أمي لهو برهان دامغ على أن القرآن الكريم هو كلام الله).

قال "باول شفارتزيناو"[18] عن القرآن الكريم: (هو الصورة الأصلية الأولى لتعاليم الكتاب المقدس)، ويقول: (إن القرآن هو التكملة الحقيقية لأقوال عيسى المسيح).

وهذه ترجمة لنص نبوءة إشعياء ـــ المذكور سابقًا ـــ الذي ورد في نسخة الملك جيمس للكتاب المقدس المعتمدة عند النصارى وهي أوثق النسخ للتوراة والإنجيل عندهم. وفي النسخة المسماة (Bible Good News) ورد ما ترجمته كالآتي: "إذا تعطيه إلى شخص لا يستطيع القراءة وتطلب إليه أن يقرأه عليك سيجيب بأنه لا يعرف كيف"، بينما نجد هذا النص الواضح في الطبعات الإنجليزية نرى أن القسس العرب قد حرفوا هذا النص في نسخته العربية فجعلوا العبارة كالآتي: "أَوْ يُدْفَعُ الْكِتَابُ لِمَنْ لاَ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَيُقَالُ لَهُ: "اقْرَأْ هَذَا" فَيَقُولُ: "لاَ أَعْرِفُ الْكِتَابَةَ".

فالنص في جميع الترجمات العالمية: بمعنى: "لا أعرف القراءة" فيما سوى الترجمة العربية، ولا يخفي أنه أريد من تحريف الترجمة العربية، وتحويل العبارة من "لا أعرف القراءة" إلى "لا أعرف الكتابة"، نوع من التحريف أريد منه صرف القارئ العربي عن تحقق القصة بألفاظها في غار حراء . وفي النص العبراني:"וְנִתַּן הַסֵּפֶר, עַל אֲשֶׁר לֹא-יָדַע סֵפֶר לֵאמֹר--קְרָא נָא-זֶה; וְאָמַר, לֹא יָדַעְתִּי סֵפֶר"، ولفظة":קְרָא" العبرانية والتي تلفظ "كرا" تعني القراءة، لا الكتابة.وقوله: "أَوْ يُدْفَعُ الْكِتَابُ لِمَنْ لاَ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَيُقَالُ لَهُ: "اقْرَأْ هَذَا" فَيَقُولُ: "لاَ أَعْرِفُ الْكِتَابَةَ"، يسجل اللحظة العظيمة التي يبدأ نزول الوحي فيها على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[19].

يكفي أن نشير إلى مدى التعنت في المجادلة من حوار الأستاذ أحمد ديدات مع القس "فان هيردن"، وسنقتصر فقط على مقطع واحد يخص أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ويتعلق بالطبع بغار حراء:

دار ناشري للنشر الإلكتروني

يقول ديدات: إن السيرة النبوية تحدثنا أن محمد صلى الله عليه وسلم، عندما بلغ من العمر أربعين عامًا حينما كان يتعبد في غار حراء، الذي يبعد حوالي ثلاثة أميال عن مكة المكرمة. في هذا الغار نزل إليه جبريل و أمره بلسان عربي قائلًا: ﴿اقْرَأْ﴾، امتلأ النبي خوفًا ورعبًا منه، فأجاب: ما أنا بقارئ، فرد جبريل عليه السلام: ﴿اقْرَأْ﴾.

قال: "ما أنا بقارئ".

ثم أعاد الأمر عليه قائلًا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، أدرك النبي أن ما يريده منه الملاك هو أن يعيد نفس الكلمات التي وضعها في فمه. ثم توالى نزول القرآن، في الثلاثة والعشرين سنة من حياة النبوة، نزل جبريل بالقرآن الكريم على قلب محمد ليكون من الرسل.

أليس هذا تصديق حرفي لما جاء في نبوءة الكتاب المقدس. إن القرآن الكريم هو في الحقيقة إنجاز لنبوءة موسى. أنه الرسول الأمي. وضع جبريل الملاك كلام الله في فمه باللفظ والمعنى واستظهره الرسول كما أنزل.

إن اعتكاف الرسول في الغار والطريقة التي أُنزِلَ إليه بها القران بواسطة جبريل، وكون الرسول أميًا لا يعرف الكتابة ولا القراءة. إنما هي إنجاز لنبوءة أخرى، في سفر إشعياء (29: 12)، هذا نصها: "أَوْ يُدْفَعُ الْكِتَابُ لِمَنْ لاَ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَيُقَالُ لَهُ: "اقْرَأْ هَذَا" فَيَقُولُ: "لاَ أَعْرِفُ الْكِتَابَةَ".

ومن ألزم ما يجب أن تعرفه هو أنه لم يكن هنالك نسخة عربية من الكتاب المقدس في القرن السادس الميلادي، أي حينما كان محمد حيًا. فضلًا على ذلك فإنه أمي، يقول القرآن عنه: ﴿فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾[20].

ـــ قلت للقس: هل رأيت كيف تنطبق النبوءة على الرسول محمد كانطباق القفاز في اليد؟

ـــ أجاب القس قائلًا: إن جميع شروحاتك وتفسيراتك إنما هي فحص دقيق للكتاب المقدس، ولكن ليست ذات قيمة وأهمية، ذلك أننا نحن النصارى نحرز على يسوع الإله المتجسد الذي خلصنا من الخطيئة.

ـــ قلت: ليست ذات أهمية! إن الله أنزل هذه النبوءة ثم تأتي أنت وتقول إنها ليست ذات أهمية! إن الله يعلم أن من الناس من هم مثلك أيها القس الذين بفلتة لسان

وإرادة قلوبهم الهينة يسقطون كلام الله ولا يعيرون له أي اهتمام، لهذا تابع تكملة النبوءة، يقول الكتاب المقدس: (ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم باسمي أنا اطلبه). وفي النسخة الكاثوليكية من الكتاب المقدس، يقول: (سأكون أنا المنتقم). إن الله القادر يتوعد بالعقاب والعذاب.

إن النبي الذي يشبه موسى كما جاء في النص (مثلك) هو بلا ريب محمد، لقد قدمت البراهين والحجج في فيض من الوضوح ، بأن هذه النبوءة عن محمد لا عن المسيح عليهما الصلاة والسلام.نحن المسلمين لا ننكر أن عيسى هو المسيح الذي أرسله الله إلى بني إسرائيل. إن ما نقوله هو أن ما جاء بسفر التثنية (18:18) لا يشير إطلاقا إلى المسيح. إنها نبوءة واضحة تتنبأ عن محمد.

ـ ابتعد القس بمنتهى الأدب قائلا: إنها مناقشة خطيرة ومهمة للغاية. وسوف أحاول أن أناقش الطائفة في هذا الموضوع.

يخاطب ديدات القارئ قائلًا: (لقد مضت خمسة عشر سنة منذ ذلك الوقت وأنا لا زلت انتظر ما وعد به! اعتقد أن القس كان مخلصًا عندما دعاني ورحب بي وبالبحث العلمي، غير أن التحزب والتعصب لدين الأجداد يقتل بقسوة).

أما ناشر كتاب ديدات فقد دون ملاحظته، قائلًا: ورد في التوراة أنه لن يخرج في بني إسرائيل أي نبي يشابه موسى: (وَلَمْ يَظْهَرْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى، الَّذِي خَاطَبَهُ الرَّبُّ وَجْهاً لِوَجْهٍ) عهد التثنية (34: 10)، وهذا دليل على أن البشارة ستكون حتمًا لرسول من العرب. و الجدير بالذكر أن البشارات بمحمد مازال كثير منها موجودًا وتذكره باسم أحمد أو محمد مع ذكر كثير من تفاصيل حياته[21].

ومما من شك إن وجود هذه البشارات بمقدم الرسول الكريم الخاتم صلى الله عليه وسلم في كتب السابقين، مع ما أصابها من فقدانها لأصول تلك الكتب، وولع رجالها بدس أنوفهم وأصابعهم فيها بالتبديل والتغيير كل هذه الأزمنة الطويلة التي تعدت القرون، ليؤكد صدق القرآن الكريم الذي جاء مهيمنًا على كل تلك الكتب ودليلًا على صحة بعض ما فيها أو فسادها.

ولهذا فقد نص القرآن الكريم على أن جميع أنبياء ورسل بني إسرائيل آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، ليس هذا فحسب بل شهدوا له وبشروا بمجيئه، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [22].

كما أشار القرآن الكريم إلى بشارة سيدنا موسى بقدوم نبي مثله فقد ورد في ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [23]، وكذلك جاءت بشارة سيدنا عيسى ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر اسمه تحديدًا فقد ورد في ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[24].

وقد أوجب الله على المسلمين الإيمان بالكتب الإلهيّة المنزلة باعتبارها جزءٌ من المنظومة الإيمانية الكليّة للمسلم الذي لا يتم إيمانه إلا بها، مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[25]، وربما كان من دواعي ذلك الإيمان بتلك الكتب هو ما تحويه من بشارات بنبوّة الرسول صلى الله عليه وسلم تدل دلالة قطعية على صدقه وصدق ما أرسله الله تعالى به، بل إن بقاء تلك البشارات تُعدّ دليلاً ماديّاً قاطعاً لمن أراد الوثوق واليقين من حقيقة نبوّته عليه الصلاة والسلام في عصورنا المتأخّرة، وهو ما يُسمّيه علماء الآثار بـ"الدليل الأركيولوجي"، قال ابن كثير: "وهذه صفة محمد صلى اللهُ عليه وسلم في كتب الأنبياء بشروا أُممهم ببعثته، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم، وأحبارهم"[26].

ولا تتوقف أهمية البشارات ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم عن مجرد الإعلان بمجيئه وحسب؛ فقد كان لهذه البشارات الدور الرئيس في اعتناق أهل المدينة المنورة للإسلام[27]، كما أنها كانت السبب الرئيس في اعتناق عدد كبير من غير المسلمين للإسلام على مر التاريخ ابتداء من عصر النبوة وحتى العصر الحالي[28].

ويعتبر القرآن الكريم تحقق هذه البشارات ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم معجزة من معجزاته وآية تدل على صدق رسالته فقد ورد في سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آَيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (197)، ويؤكد القرآن الكريم كذلك على أن بعثة الرسول محمد صدقت بشارات من سبقه من المرسلين به فقد ورد في سورة الصافات: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (37)، وللرسول محمد

مكانة خاصة في دين الإسلام فهو الرسول الوحيد الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وهو الرسول الوحيد الذي منحه الله اسمًا من أسمائه الحسنى. وهو الرسول الوحيد الذي وضع الله كلامه في فمه وخاطب البشرية كلها من خلاله. كما ينص القرآن الكريم على أنه خاتم النبيين، أول المسلمين، أول العابدين، وهو أول مخلوقات الله[29].

ولهذا لم يجد "باول شفارتزيناو" بُدًا من مواجهة المنكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول: (إن الاعتراف بنبوة محمد الذي أطالب به موجود في جذور المسيحية). ذلك الأمر الذي أكده "كانون ماكس وارن" حين قال: (لقد تجلى الله بطرق مختلفة ومن الواجب أن تكون لدينا الشجاعة الكافية لنصر على القول بأن الله كان يتكلم في ذلك الغار الذي يقع في تلك التلال خارج مكة). يقصد بذلك بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار حراء.

في تلك الظلمة الغاشية، كانت كلمة الوحي "اقرأ باسم ربك الذي خلق" للأُمِيِّ المُختلي في حراء، توجيهًا وهدايةً إلى الحق الذي طال التماسه إياه، وإيذانًا بانتهاء حيرته التي طالما أجهدته في تأملاته، وانبثاقًا لنور فجر جديد ينسخ ظلماتِ ليلٍ ادلهم وطال [31]. خرج الأمي المتحنث القابع في أعماق غارٍ يَطِلُ على بطائحَ مكةَ، برسالة ملأت شعاب الأرض حوله وحول كل المدارات حتى بلغت القارات والقلوب وعلَّم البشرية وما زال يُعلِّمها، ليصبح في كل صبيحة حقيقة تؤكدها الأجيال أن أميته صلى الله عليه وسلم معجزة متجددة تبهر العقول وستبهرها في قابل الأيام[32].

ثانيًا ــ غار حراء في كتب الهندوس:

من المعلوم أن كتب الهندوس التي تناولت البشارات بظهور النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم غير سماوية، فكيف تسربت تلك البشارات إليها. وما موقف الهندوس منها.

يرى بعضهم أنه ربما كان هذا من اقتباسات "الآريين" من تعليمات سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ فقد دعا أن يبعث الله رسولًا من ذرية ولده إسماعيل عليهما السلام، وقد ثبت أن الفترة التي وقعت فيها هجرات "الآريين" من بلادهم إلى بلاد السند مرورًا بالعراق هي نفس الفترة التي ظهرت فيها دعوة إبراهيم عليه السلام، فبثّوها في كتبهم مع ما حملوه من أفكار كلدانية وبابلية[33].

ومع كون كتب الهندوس غير سماوية إلا أن الدكتور ذاكر نايك[34] يرى أن الديانة الهندوسية سماوية في الأصل، فيقول: (على الرغم من التحريف الذي حدث في الديانة الهندوسية، إلا أن هذه الديانة كانت في الأصل ديانة سماوية، وقد ورد في كتبهم الدينية القديمة كثير من الإشارات عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم).

وقد اختلف موقف علماء الهندوس تجاه تلك البشارات الواردة بكتبهم فمنهم من طبقها على عظمائهم وأبطالهم، ومنهم من وقف موقف المنتظر ظهورها مستقبلًا، ومنهم من اعترف بوضعها في كتبهم، ومنهم من تحصن بالصمت، وهناك من اعترف بصدق تلك البشارات وأراد الدخول في الإسلام ولكن مكانته في المجتمع الهندي حالت دون ذلك، ومنهم من اعترف بصدقها وأقام على ديانته الهندوسية وأشهرهم: "فيدا براكاش اباديايا" (Vedaprakash Upadhyay)[35]، الذي ألف كتابًا أسماه: كالكي أفاتار (Kalki Avatar) أيّ "الهادي الأعظم" أو "إله الغد"، دعا فيه قومه من الهندوس إلى عدم إضاعة الوقت في ترقب ظهور المصلح الروحاني الهندوسي المنتظر "كالكي أفاتار" الذي سيأتي لإصلاح العالم لأن القائد العظيم المنتظر قد أتى ورحل منذ أربعة عشر قرنًا، حيث أن مواصفات هذا الإله البشري تنطبق على محمد نبي الإسلام، وقد نشر براكاش كتابه هذا بعد عدة سنوات من البحث، ولقي تأييدًا واسعًا بعد أن اعتمده ووثقه أكثر من ثمانية علماء من الـ "باندات" ـــ أي علماء الدين ـ من الهندوس بعد مراجعتهم لمادته وتمحيص الآراء التي أتى بها براكاش فيه، وتبين لهم صحة ومصداقية المراجع التي استند إليها وهي كتب ديانتهم ذاتها.

قدم فيدا براكاش الدلائل القاطعة والبراهين التي تجزم بصدق ما توصل إليه من خلال أحد كتبهم المقدسة فيداس(Vedas)، ومما استدل به أيضًا ما ورد في كتاب بوراناس (Puranas) كتب مقدس عند الهندوس، بأن "كالكي أفاتار" سيكون الرسول الأخير من الله سبحانه وتعالى وقائدًا للإنسانية جمعاء، وهو ما يتوافق تمام الاتفاق مع الإسلام الذي ينص على أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء المبعوث للناس كافة.

وأنه سوف يولد في جزيرة، وأن مكان مولده سيكون في إحدى الأقاليم العربية، كما تذكر الكتب الهندوسية أن اسم الأب لهذا القائد: "فيشنوبهقات" (Vishnubhagat)، واسم الأم: "سوماني" (Sumaani). وذكر المؤلف انه لو قمنا بتحليل هذين الاسمين لتوصلنا إلى نتيجة مذهلة، كالتالي:

ـــ "فيشنو" (Vishnu) تعني الله و "بهقات" (bhagat) وتعني "عبد"، ويعني "عبدالله" وهو اسم أبُ الرسول صلى الله عليه وسلم، بينما "سوماني" (Sumaani) تعني السلام أو الأمان أو السكون، وهو اسم أم الرسول صلى الله عليه وسلم "آمنة".

ـــ وتذكر كتب الهندوس المقدسة أن الطعام الرئيسي للقائد "كالكي أفاتار" هو التمر والزيتون، وأن هذا القائد سيكون أكثر البشر استقامة وصدقًا في المنطقة التي سوف يولد بها. كما يذكر كتاب فيداس أن نسب "أفاتار" سيكون من أفضل القبائل، وهو عين ما ينطبق على الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبه الكريم.

لن أتطرق إلى كل ما ورد من بشارات في كتب الهندوس المقدسة لديهم، وسأقف على البشارة التي تتعلق بموضوع كتابنا والتي فيها:

أن الإله سيلقن تعاليمه لـــ "كالكي أفاتار" في أحد الكهوف أو غارٍ ما عبر رسوله الخاص "ملك"، وهو ما يتفق تمامًا مع ما حدث للرسول صلى الله عليه وسلم في لقائه مع جبريل عليه السلام في غار حراء. وكما جاء في كتاب "كلكي بران": (إنه بعد ولادته يتوجه إلى الجبال ليتعلم من "برش رام")، وبرش رام معناه المعلم الأكبر.

هامش الفصل السابع:

[1] يوافق قول الإمام القرافي في كتابه "الأجوبة الفاخرة" ص165: (فاران مكّة باتفاق أهل الكتاب).

[2] سفر التكوين (21: 20-12)، التوراة السامرية (المطبوعة سنة 1851م)، ص61، وفي ترجمة الفيومي للتوراة ص261.

[3] سورة التين: (1 – 4).

[4]سورة إبراهيم: (37).

[5] أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، 5/198- 205 تحقيق د . علي حسن ناصر، د . عبد العزيز إبراهيم العسكر، د . حمدان محمد، والبشارة بنبي الإسلام 1/268. تحقيق د . علي حسن ناصر، د . عبد العزيز إبراهيم العسكر، د . حمدان محمد، جزء (5) ص (202)، جزء (5) ص (202).

[6] ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، كتاب: "معجم البلدان جزء (4) ص (225).

[7] سفر التثنية: (33/ 1-2).

[8] رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي الهندي، كتاب: "مختصر إظهار الحق"، تحقيق محمد أحمد عبد القادر ملكاوي، ص(331).

[9] محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، كتاب "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام"، ص (276)، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا.

[10] سِفر حبقوق، الإصحاح (3) الأعداد (3 – 5).

[11] دكتور محمد بن عبد الله السحيم، بشارات العهد القديم بمحمد صلى الله عليه وسلم، ص10.

[12] فتح الله كولن، النبي المرتقب والمبشر به، مجلة حراء، سبتمبر 2006.

[12] فتح الله كولن، النبي المرتقب والمبشر به، مجلة حراء، سبتمبر 2006.

[13] سورة الشورى: (3).

[14] زهدي جمال الدين محمد، السيرة النبوية الشريفة كما وردت في الكتاب المقدس.ملتقى أهل التفسير.

[15] علي شواخ إسحاق: ماذا حول أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ص90 ط1 دار السلام للنشر، بيروت 1978.
[16] سورة الجمعة: (2).
[17] سورة الأعراف: (157).
[18] أستاذ الثيولوجيا البروتستانتية وعلوم الأديان بجامعة "دورتموند" بألمانيا.
[19] انظر: الشيخ عبد المجيد الزنداني، بينات الرسالة، ص9، زهدي جمال الدين محمد، مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين التأويل والتجريد، دراسة في ذكرى مولد الهادي البشير الإسكندرية 2014.
[20] سورة الأعراف: (185).
[21] ديدات، ماذا قال الكتاب المقدس عن محمد، محاضرة ألقاها في بداية الستينيات.
[22]سورة آل عمران: (81).
[23] سورة الأحقاف: (46).
[24]سورة الصف: (61).
[25] سورة البقرة: (285).
[26] "تفسير ابن كثير" (6 /407).
[27] انظر: السيرة النبوية، لابن هشام، ج2، ص277، البداية والنهاية، ابن كثير، ج3، ص179-206.
[28] د. نصر الله عبد الرحمن أبو طالب، تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد، الطبعة الرابعة، ص 22، دار الوفاء للطباعة والنشر، 2009م.
[29] يحيى بن أبي بكر العامري، بهجة المحافل وبغية الأماثل، الجزء الثاني، ص 47، بيروت.
[30] كانون ماكس وارن سكرتير جمعية التبشير الكنسية، بحث مقدم منه إلى المؤتمر التبشيري الثالث لطائفة الإنجيليين، كندا، 1963م.
[31] دكتورة عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن، ج2، ط 5، ص 16، دار المعارف، القاهرة، 1990.
[32] السيد إبراهيم أحمد، الإعجاز البشري في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ط1، ص67، شبكة الألوكة.

[33] الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، الطبعة الأولى، ص703، مكتبة الرشد، الرياض، 2003.

[34] الدكتور ذاكر عبدالكريم نايك، محاضرة بعنوان: "محمد عليه الصلاة والسلام في مختلف الكتب الدينية العالمية"، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، 4 مارس 3015م. وأقيمت المحاضرة في وحضرها المئات الذين ازدحمت بهم القاعة؛ مما اضطر كثير منهم للجلوس في الممرات، والاستماع للمحاضرة من خلال الشاشات الخارجية في المركز.

[35] فيدابراكاش اباديساي(Vedaprakash Upadhyay): بروفيسور وعالم هندوسي شهير في جامعة الله آباد.

الفصل الثامن

أثر حراء، في الفنون

مثلما احتل جبل النور بغاره القلب المسلم، حتى صار ذلك الغار الذي احتضن الرسول صلى الله عليه وسلم مهوى الأفئدة ومحط الأنظار، وكأنه قيثارة سماوية كلما رنا إليه ببصره وبصيرته عزفت أوتاره لحنًا خفيًا في جنبات النفس لا يدرك مصدره، وكأن كل مسلم فاته الجوار النبوي في تلك الخلوة السامية، استعادها بمخيلته، وحنينه وخياله المجنح في ذلك الأفق السماوي الأرضي، الذي يرتفع عن الأرض ولا يلامس السماء. ومثلما احتل الغار القلب المسلم بعامة، احتل قلب وعقل ووجدان وأحاسيس الفنان المسلم، الذي استلهم من إشراقات الخلوة النبوية مع الله تعالى، وشيوع السكينة، وتلقي النفحات، وتنزل الرحمات، ثم انسكاب النور من السماء على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم فيضانه من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأوعية من الصدور إلى السطور، وتلافيف العقول، لمحات تشتعل بها اللوحات الفنية التي تحاول أن تقبس جذوة، أو ترصد برقًا من نور، ومن يترجمها منهم عمارة بالقياس على أبعاد روح حراء لا بنيانه فقط، ومن يتصيد من الأثير الذي لف جو الغار بعض نغمات هادئات هامت بها وجدانه. لقد كان لحراء غار النور أثره الذي لم يقتصر على الدراسات الدينية والأدبية فقط بل أثر في الفن الإسلامي أيضًا، وهو ما يعزز تلك المكانة المُقدرة لا المُقدسة والموقرة لذلك الغار الحبيب لأنه احتوى أنفاس الحبيب صلى الله عليه وسلم.

لا يستطيع الفنان المسلم وهو يمارس هوايته أو مهنته في الفن أن ينفصل عن عقيدته الإسلامية التي تنحو نحو التوحيد وتلتصق بالفطرة، وتحرم تعاليم تلك العقيدة التعويل على الجسد البشري في إبراز مفاتنه وتكوينات وعلاقات أعضائه، بل تحاشى حتى تصوير الكائنات الحية لما قد يقع فيه من مشابهة الخالق عز وجل في خلقه، ولذلك فقد لجأ إلى التجريد.

إن التجريد يعني الابتعاد عن الطبيعة، ورفض نظرية المحاكاة [1]، وهو ما دعا إليه الفن الإسلامي والنظرية الشكلية؛ فلإسلام لا يمنع أبدًا الاستفادة من بعض الأشكال، وتطويرها وتعديلها بما يناسب المضمون، إذا كانت في أصل وجودها وبنائها لا تتعارض مع المضمون المطروح من خلالها [2].

وهو ما دعا إليه الفن

ولقد استخدم الفن الإسلامي الأشكال المركبة من تصاميم هندسية. كما يقول دالو جونز في كتابه عمارة العالم الإسلامي" وذلك لما تخلقه هذه التصاميم المعقدة الانطباع بتكرار لا نهاية له يعتقد البعض أنه نه يرمز إلى الحالة المطلقة لله: لانهائية بدون زمان أو مكان.

كما تخلق هذه التصاميم بتكراريتها وتوازنها حالة لا نهائية أو مطلقة، تشغل سطح اللوحة أو الجدارية عبر خطين متشابهين يسيران عبر التشكيل الهندسي مما يحدث ذلك التواصل المتسلسل المتنامي الصاعد في المطلق، خالقًا في نفس الرائي جمالًا أخاذًا فريدًا مريحًا.

طبقًا لمنظومة التجريد الكامنة في عقيدة وتكوين وثقافة الفنان المسلم المعاصر استطاع استلهام غار حراء في أعماله سواء في النحت أو التصوير أو العمارة، أما من شذ منهم وانتقل من التجريد إلى التشخيص فقد هوجم هجومًا شديدًا من أكثر المؤسسات المجتمعية وعلى رأسها المؤسسات الدينية الرسمية، والقاعدة الجماهيرية، وبالطبع الجهات الفنية الرسمية وغير الرسمية، كما سيأتي معنا.

ـــ حراء في الفنون التشكيلية:

الفن التشكيلي هو ما ينقله الفنان مأخوذًا من الواقع، غير أنه يصب فيه من مفهومه، وروحه، وتجربته، فيصيغه صياغة جديدة عن صورته الطبيعية الحقيقية، ولهذا فهو يشكله، ومن كل المدارس الفنية التي تقع تحت هذا الفن يلتزم الفنان المسلم بقواعد المدرسة التجريدية، كما سبق القول، وأهمها بالنسبة له النحت والتصوير:

أ ـ استلهام غار حراء في فن النحت:

أبدع النحات الأردني الدكتور كرام النمري من خلال تمكنه من صياغة الكتل ومحاولة تشكيلها في الفراغ مع خلق علاقة فنية فكرية صحيحة تبين الممكن في التعامل وغير الممكن صرحًا يتكون من سبعة رقاع "مخطوطات" مصنوع من الحديد المحمي المطعم بالنحاس الأحمر والأصفر عملًا مبدعًا استقاه من الآيتين الكريمتين من سورة الكهف: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97)﴾ وقد كتب على الرقعة الأولى الآية الكريمة التي نُزلت على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم توحي وتذكر في تنزيل القرآن. وقد كتبت في خط فجر الإسلام، بحجم يتراوح (4m×6m×12m) ويزن ستة عشر طنًا.

وقد استوحى كرامي "الرقاع" من غار حراء، حيث قال: (إن الشكل مستوحى من قصة نزول جبريل عليه السلام بالوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه في غار حراء، يقول له اقرأ فرد عليه السلام خائفًا ما أنا بقارئ، فجاء الشكل مكونًا من رقائق على شكل رقاع سبع ملتفة على بعضها البعض نازلة على تراب التلة ضامة كلمات الآية القرآنية ولقدسية كلام الله تعالى رفع

الفنان هذه الصحائف عن الارض ولم يضع لها قاعدة حتى لا تكون مرتبطة بالأرض مباشرة. وقد استغرق عمل هذا الصرح نحو ثلاثين ألف ساعة عمل.

ب ـ استلهام غار حراء في فن التصوير:

فاز تصميم "غار حراء" بأبعاده (200 م×18 م)، من أعمال الفنان الخزاف أحمد علاوي في المسابقة العالمية لتزيين الحرم المكي التي أقيمت في مكة وبمشاركة 405 فنان وفنانة من مختلف الجنسيات، وكان الهدف منها تزيين تسعة مواقع بجانب الحرم المكي بتسع جداريات فنية من الخزف.

ـــ استلهام حراء في العمارة:

فكر المعماري التركي "إمري أرولات" في بناء مسجد يختلف تمامًا عن مساجد العالم الإسلامي، يثبت له الفرادة والتميز، خاصة وأن المسجد سيبنى في منطقة "بيوك تشكماجا" في مدينة إسطنبول، تلك العاصمة الغاصة بالمساجد الشهيرة، فكان أن سافر ببصره وفكره إلى ينبوع الإسلام الأول ومهد آيات الذكر الحكيم "غار حراء".

بنى أرولات مسجد "سنجاقلار" ومعناه بالعربية "غار حراء" على مساحة 700 متر مربع ليتسع لحوالي 900 مصل، فكان أول مسجد يبنى تحت الأرض في العالم، جامعًا بين جوهر التصاميم الإسلامية والعثمانية القديمة والتقليدية المتعلقة بالمساجد مع التصميم الحديث والعصري، لكن ليس هذا كل شيء حتى نقول أنه استلهم روح وليس شكل حراء في التصميم والبناء والمواد، ومن ثم الهدف.

اختار أرولات وفريق العمل معه لبناء المسجد منطقة بعيدة عن فوضى وضجيج المدينة، حيث يقف بشكل منعزل عن مجتمعات الضواحي المحيطة به، وجدرانه العالية تحدد حدوده بشكل واضح، وقد اعتمد المصممون في بنائه بشكل أساسي على استخدام مواد خشنة المظهر كالحجر الرمادي البركاني والإسمنت، كما دفنوا معظم بناء المسجد تحت الأرض بمساحة 13 ألف قدم مربعة مستفيدين من ميول الأرض المنحدرة، كي يبدو كجزء أساسي من التضاريس المحيطة به، فالمظلة المستطيلة الطويلة جدًا التي تمتد من الحديقة هي العنصر المعماري الوحيد المرئي من الخارج والذي يشير إلى وجود المسجد، بينما الباقي من البناء تحتضنه الأرض في سلام.

تقابل المتجه إلى الداخل بركة في ساحة المسجد وظيفتها ابتلاع صوت المياه المتدفقة منها لجميع الأصوات الآتية من الطرق القريبة، تقوده أدراجٍ توصل إلى مدخل المبنى المنفصل بجدرانٍ فاصلة عن حركة الشارع العام، بينما تقف المأذنة الحجرية بشكلها المربع وحيدة بارتفاعٍ طفيف عن الأرض.

استخدم فريق العمل السطوح الخالية والإنارة الخفيفة لكي يبدو المصلى الصغير أكثر اتساعًا، كما تم تحديد مكان المحراب من خلال النور الصاعد للأعلى على الحائط الإسمنتي الخشن، أما المنبر فهو عبارة عن صندوق معلق على ارتفاع صغير، ولم يغفل المصممون أن يكون هناك مصلى للنساء الذي تم فصله عن الرجال بشاشة معدنية، أما مكان الوضوء فقد جعلوه أكثر راحةً وأمانًا وذلك بوضع مقاعد خشبية مكعبة، بينما جاءت أماكن وضع الأحذية خلف جدار حجري بشكلٍ مخفي.

وضع فريق العمل "غار حراء" نصب أعينهم، فاستلهموا منه التصميم الداخلي للمسجد، وكان أن قرروا الالتزام بالبساطة مع التخلي التام عن الالتجاء إلى استخدام الزخارف والأشكال واستعيض عنها بآية قرآنية وحيدة، وهي: "وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا" وهي تحمل رسالة للمصلي بداخله بالتفرغ لله تعالى بالصلاة والذكر والتسبيح، لا تشغله زينات أو مقرنصات ملونة أو رموز وخطوط وفسيفساء هنا وهناك.

جاءت إضاءة المسجد استلهامًا حقيقيًا من غار حراء الذي كان يعتمد على ضوء النهار تمامًا، فقام فريق العمل بتوجيه ضوء النهار إلى داخل المسجد بشكل غير مباشر من خلال فتحات وشقوق مخفية بطول جدار القبلة، وتساهم الأعمدة الخرسانية التي توجد تحت القبة بتوجيه وتجميع الضوء.

ونتيجة لهذا الجهد من الإعداد والتنفيذ، حصل مشروع المسجد على جائزة أفضل مبنى في المسابقة التي تنظمها شركة "World Architecture Fest" المعمارية المعروفة عالميًّا في فرع "المباني ذات الصبغة الدينية".

مسجد غار حراء بتركيا

ـــ مغارة "غار حراء" في باكستان:

استحضارًا لصورة جبل النور واستلهامًا لغار حراء في معناه ومبناه، قرر عبد الصمد لهري مع شقيقه عبد الرشيد في عام 1992 إطلاق مشروع دفن النسخ القديمة من القرآن الكريم في بطن التلة الصحراوية الواقعة بالقرب من مدينة كويتا الباكستانية التي أطلق عليها اسم جبل النور تيمنًا في مكة المكرمة، والغار الذي يضمه.

كان دافع الشقيقين لإنشاء هذا الموقع هو تجميع نسخ القران المهترئة والممزقة في غار صغير؛ إذ يعد التعامل معها بالرمي أو الحرق أمرًا صعبًا في باكستان يعرض فاعله لعقوبة قاسية قد تصل إلى الحكم عليه بالإعدام بموجب القانون، ومع تزايد ورود نسخ القرآن إلى الغار قاما بعملية حفر وتوسيع حتى بلغ طول النفق نحو 26 كيلومترًا بأربعة مداخل.

ويقصد مغارة "كويتا" أو "غار حراء" مئات الآلاف من الزوار بعد أن أصبحت أشبه ما يكون بالمكتبة الضخمة للنسخ القديمة من القرآن الكريم والتي تحوي ما لا يقل عن خمسة ملايين نسخة قديمة من القرآن الكريم منها ما يعود إلى أكثر من قرن ونصف القرن.

مغارة "غار حراء" بباكستان

ـــ حراء في الخط العربي:

الخط لسان اليد كما يقول ابن عباس، وهو الفكر الساكن، أصعب الفنون الإسلامية، وذلك لأن الفنان فيه لا يملك في يده غير القلم البسيط، وهذا القلم مسطرة الخطاط وبِرْجَلُهُ كما يقول الخطاط وأستاذ الجامعة باسطنبول.

والخط من الفنون الأوائل التي اتصلت اتصالًا وثيقًا بالقرآن الكريم؛ إذ نستطيع أن نقول إن الخطوة الفنية والجمالية الأولى للخط العربي بدأت مع بزوغ شمس الإسلام في غار حراء[3].

منذ أن نطق رسول السماء جبريل عليه السلام "اقرأ" انطلقت مع كُتَّاب الوحي الذين اختارهم الرسول صلى الله عليه وسلم، لينقلها مع آي القرآن الكريم من لسانه الشريف، إلى صدورهم ومن ثم إلى السطور، فكانت الكتابة لازمة لزومًا أبديًا للقراءة، ومنهما انتقلت رحلة الخط العربي الطويلة إلى كل البلدان التي دخلها الإسلام، حتى تلك البلاد الأعجمية التي لا تتحدث العربية، ظهر فيها أشهر الخطاطين المسلمين.

من تلك البلاد التي اشتهرت وتعلقت بالخط العربي "باكستان"، وقد تجلى هذا في المجلد الصادر عن القنصلية العامة لجمهورية باكستان الإسلامية في جدة، بعنوان: "علم بالقلم، الخط العربي في باكستان"، وقد ضم بين دفتيه مجموعة رائعة من الخطوط والرسومات التي اعتمدت على الحرف العربي، يعكس تعلق الباكستانيين بلغة القرآن.

ولقد انتهج الفنان التشكيلي الباكستاني محمد إقبال أسلوبًا جديدًا وذلك حين استخدم ماء زمزم في لوحاته، وقد أضاف إليها أيضًا حجارة من غار حراء في عدد من الرسومات ليمنحها عمقًا روحيًا، جامعًا فيها بين الخط العربي وأصالة الفنون الباكستانية.

ـــ حراء في الموسيقى العربية:

أحمد زهدي الفاتح قرقناوي شاعر يتسم شعره بالتأمل والروحانية الحالمة، باحث أكاديمي تخصصه «أنثربولوجيا الموسيقى» يجمع في موسيقاه بين الكلاسيكية العالمية والمحلية الحجازية، فتميزت أعماله بالنغمات الشرقية الأصيلة بمعالجة أوركسترالية احترافية عالمية، ولهذا كان قرقناوي السعودي الوحيد الحاصل على جائزة المفكر والفيلسوف اللبناني سعيد عقل.

تجاوز الإحساس بالكلمات كمجرد كلمات لها معاني، فرأها في الأصل حروف، لها أصوات ولها أشكال، تتآلف وتتنافر، وهذا أورثه التحدي في خلق عمل جميل صوتيًا وشكليًا وفكريًا على حد سواء، وربما جعله هذا ينقطع زاهدًا أيامًا عن الطعام والشراب إلا قليلًا، معتزلًا الناس حتى يعايش حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أيام انقطاعه في غار حراء، حتى ألف قطعته الموسيقية الطويلة الرائعة الهادئة، الكلاسيكية الراقية: "وجدان محمد صلى الله عليه وسلم ـــ تجربة غار حراء نموذجًا".

ـــ حراء من التجريد إلى التشخيص:

على الرغم أنه بات من المستقر عند الكافة من المهتمين بتاريخ الديانات والتأريخ للفنون، أن الإسلام دين توحيدي، لا يحض أتباعه من الموهوبين في أي فن وخاصة التصوير على انتهاج تصوير الكائنات الحية أو مضاهاة الواقع إلا الطبيعة البحتة، مع التحريم التام لتجسيم المعتقدات الدينية بالتسامي على المقدس وصولًا إلى التجريد الذي يتمثل في انتهاج الفنان المسلم مجال الزخارف الهندسية.

لقد كانت كراهية الإسلام لتصوير الكائن الإسلامي دافعًا للفن الإسلامي إلى السير في طريق مختلف تمامًا عن ذلك الذي سار فيه الفن الأوروبي، فبينما يذخر الفن الأوروبي بالمناظر الطبيعية والأشخاص، نجد الفن الإسلامي يترجم النبض الفني إلى أشكال هندسية وتصميمات خطّية محكمة. وعلى مدى قرون من تطبيق

هذا التجريد المطلق، استطاع الفنان المسلم أن يصل بهذا الفن إلى درجة من التأنق لا مثيل لها[4].

ولقد أصبحت قواعد الفن الإسلامية معروفة ومطبقة لعدة قرون، وطور فيها الفنان المسلم وابتكر أنواعًا من الزخارف لم يسبقه فيها أحد، فلماذا رسم الفنان الجزائري محمد راسم، وهو رائد فن المنمنمات بالجزائر بل والعالم، منمنمة تظهر الرسول صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام معًا في غار حراء، يصور فيها "راسم" الرسول صلى الله عليه وسلم جالسًا على ركبتيه متعبدًا ومرتديًا بردة خضراء، وعمامة بيضاء تحيط بوجهه هالة من النور باللون الأصفر، تقلل من وضوح تفاصيل ملامح وجهه صلى الله عليه وسلم التي تبدو أقل وضوحًا من الشخصيات المرسومة، وبجانبه يجلس جبريل عليه السلام في هيئة بشرية وبجناحين، حاملًا كتابًا يلقنه القرآن الكريم، في إشارة إلى أن الصورة تمثل بداية الوحي ونزول القرآن[5]، وكانت قد اعتذرت جريدة الفجر لقرائها عما بدر منها من نشر لتلك اللوحة أو المنمنمة في عدد سابق بحسن ظنٍ منها[6].

وفي الجزائر أيضًا أصدر أحد شيوخ الطرق الصوفية تدعى الطريقة العلوية ويدعى شيخها خالد بن تونس كتابًا أسماه: "التصوف الإرث المشترك" الذي تضمن صورًا للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وحوله صحابته - رضوان الله عليهم أجمعين- وهو يلقنهم القرآن الكريم، بالإضافة إلى صورة لسيدنا جبريل - عليه السلام - في هيئة امرأة!

كما أبدع الفنان الايراني محمود فرشجيان لوحته "غار حراء" التي رسمها عام 1998م بألوان الإكريلك على الورق المقوى بأبعاد (81.5 في 56 سم) مستلهمًا الصورة من النداء الأول ولحظة نزول الروح الأمين جبريل عليه السلام في غار حراء.

يعتبر الفنان فرشجيان من أشهر من اهتمّوا برسم الشخصيّات الدينية الإسلامية، ولذا فهو يتعمّد رسم وجوه شخصياته الدينية بعيدًا عن ملامحها ويكتفي برسم جزء من الوجه أو هالة من النور تغطّيه كاملاً لإخفاء تقاطيعه وملامحه الدقيقة، ولكي يخرج الفنان بحيلة فنية محلقًا في أجواء الفن المشخصن

لا التجريدي أو هما معًا؛ فقد أتى بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم وهذه "شخصنة" يرفضها الإسلام، ولكنه أتى بملامح وجهه غير محددة وهذا تجريد، وهروب ذكي منه لا ينطلي على أحد، فجأ إلى ابتكار فضاء دائري مصحوبًا بخطوط دائرية وصولا للألوان المتموجة التي ميزها بقلّة الألوان الحارة والتركيز على مزيج متداخل من الألوان الباردة، منتقيًا اللون الأزرق متداخلًا مع مزيج من الأبيض والأخضر مُجسدًا بهما لون السماء وينسحب من خلالهما لون أصفر مشرق يتجه صوب شخص الرسول الأكرم والهالة المنيرة التي تحيط رأسه الشريف صلى الله عليه وسلم، يشببها الفنان بالتعاليم السماوية المنزلة وهي تصب على الرسول صلى الله عليه وسلم صبًا، وقد استخدم الفنان مجموعة من الألوان الغامقة بمزيج من البني الغامق والفاتح المتداخلان مع ألوان فضاء اللوحة وشخص الرسول صلى الله عليه وسلم الذي مَثَّل مركز السيادة فيها، حتى تبدو اللوحة ككل متكامل، ووحدة لونية متكاملة متناسقة متناغمة بالشكل والألوان يربطها اسم محمد صلى الله عليه وسلم بلون أبيض ضبابي يتقدم على اللوحة بأكملها كأنه طيف ممتد من السماء إلى الأرض ذلك هو الفيض الالهي كما تصوره الفنان الإيراني.

وكأن الفرادة الفنية، والابتكار والريادة لا تأتي إلا بكسر الطوق الديني الراسخ في العقيدة الإسلامية، وأن العلماء منعوا تمثيل الشخصيات المحترمة، وهي درجات؛ أعلاها الأنبياء والرسل، وهؤلاء يَحْرُم تمثيلهم على الإطلاق، كما يحرم رسمهم وتصويرهم، وذلك لأمور: فالتمثيل أو الرسم أو التصوير لا يكون أبدًا مطابقًا تمام المطابقة للأصل، فهو كذب بالفعل، إن لم يكن معه كذب بالقول، والكذب عليهم حرام بالنص، ففي حديث البخاري ومسلم: "من كذب عليَّ متعمدًا فليَتَبوأ مقعده من النار"، وهذا إن كان في حق النبي فكلُّ الأنبياء والرسل في ذلك سواء، ويخلص إلى القول إن تمثيل الأنبياء والرسل أو تصويرهم أو التعبير عنهم بأية وسيلة من الوسائل حرام، هذا ما ذكره الشيخ عطية صقر رئيس لجنة الفتوى الأسبق بالأزهر (رحمه الله) في كتابه "أحسن الكلام في الفتوى".

كما أصدر المجمع الفقهي الإسلامي فتوى أكد فيها أن مقام النبي صلى الله عليه وسلم مقام عظيم عند الله تعالى وعند المسلمين وإن مكانته السامية ومنزلته الرفيعة معلومة من الدين بالضرورة، فقد بعثه الله تعالى رحمة للعالمين وأرسله إلى خلقه بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وقد رفع ذكره وأعلى

قدره وصلى عليه وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، فهو سيد ولد آدم وصاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم، ومن ثم فإن الواجب على المسلمين احترامه وتقديره وتعظيمه التعظيم اللائق بمقامه ومنزلته عليه الصلاة والسلام، وأن أي امتهان له أو تَنقّص من قدره يعتبر كفرًا وردة عن الإسلام، والعياذ بالله تعالى، وأن تخييل شخصه الشريف بالصور سواء كانت مرسومة متحركة أو ثابتة، وسواء كانت ذات جَرم وظل أو ليس لها ظلٌ وجَرم، كل ذلك حرام لا يحل ولا يجوز شرعًا، فلا يجوز عمله وإقراره لأي غرض من الأغراض أو مقصد من المقاصد أو غاية من الغايات، وإن قصد به الامتهان كان كفراً، لأن في ذلك من المفاسد الكبيرة والمحاذير الخطيرة شيئاً كثيرًا وكبيرًا، وأنه يجب على ولاة الأمور والمسؤولين ووزارات الإعلام وأصحاب وسائل النشر منع تصوير النبي صلى الله عليه وسلم صورًا مجسمة وغير مجسمة.

هوامش الفصل الثامن:

[1] صالح أحمد الشامي، الفن الإسلامي إبداع والتزام، ط1، ص240، دار القلم، دمشق،1990.

[2] عماد الدين خليل، بحث: الإسلام والمذاهب الأدبية، ص11، ندوة الأدب الإسلامي، الرياض.

[3] أحمد شوحان، رحلة الخط العربي من المسند إلى الحديث، ص26، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

[4] ج. بورجوين، الزخارف الهندسية العربية، ص7، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1989.

[5] تأتي هذه الصورة وغيرها ضمها كتاب أنيق، كتب على ظهره: محمد راسم الجزائري، وعلى غلافه الأول algérien miniaturiste Mohamed Racim الصادر عن المؤسسة الوطنية للكتاب 1990

[6] الفجر الجزائرية 2009/8/26.

الباب الثاني

أحداث حراء بين التساؤلات المشروعة والافتراءات المصنوعة

لم تمر حادثة في تاريخ الإسلام كحادثة غار حراء؛ فقد اجتمع المحللون حولها من كل مذهب في كل دين، نعم فداخل الدين الواحد كالإسلام مثلاً ستجد لأهل السنة رأي وللشيعة رأي وكذا الصوفية وأهل القرآن أو من سماهم الناس بالقرآنيين، ومن أهل الكتاب جاء المفكرون والمستشرقون من حَقد منهم ومن أنصف، وملاحدة من بني جلدتنا ومن غيرهم.

بل المستغرب أنه لم ينبت من أرضية غار حراء زهرات يانعات طيبات كتلك التي استنشقنا عبيرها في بعض الفصول السابقة من الباب الأول، أو حتى بعض وريقات خضراء يحيطهن ويحملن بعض من دهشة أو تساؤل تدعو أهل العلم لكي ينيروا لنا بردودهم مناطق الجهل فينا لا التشكيك، على العكس من ذلك تمامًا فقد أفلح الشيطان أن ينبت في ألسنة بعضهم أشواك استحالت إلى افتراءات موهومة موسومة مسمومة تدل على طينة أهلها تعمل بكامل طاقتها من أجل زرع الشكوك والأكاذيب بطريقة توهم المتلقي بعلمية الوسائل، ودقة المصادر، وحياد البحث العلمي، والتجرد والتنزيه من المصلحة وسوء القصد والطوية حول لحظة حراء: الوحي والرسول صلى الله عليه وسلم.

والأغرب أن من بعض تفسيراتهم المنحرفة لبعض الوقائع قد جمعت "الشامي على المغربي" كما يقول العامة أي أن اتجاه واحد وهو اليقين التام عند أهل السنة بأمية الرسول صلى الله عليه وسلم، وحد هذا الاتجاه ممن يسمون أنفسهم زورًا وبهتانًا عبر موقعهم بـــالقرآنيين مع المتصوفة مع الشيعة في اتجاه واحد، وقد يكون هذا من باب الحب بغلوٍ حينًا وحينًا آخر بجهلٍ غير متعمد، فجمع كل الذين سبق ذكرهم مع نفس الادعاء مع المستشرقين والنصارى ولكن بحقدٍ وخبثٍ متعمديْن منهم، كما سيأتي بيانه في حينه.

الفصل الأول

التساؤلات المشروعة في أحداث حراء

لم يحرِّم الإسلام على أتباعه طرح الأسئلة، والتدبر والتأمل، ذلك أن السؤال هو المفتاح الرئيس لمن أراد التعلم والنهل من معين العلم الذي لا ينضب، وهو من أهم المحفزات للذهنية باعتباره جسرًا للوصول إلى المعرفة ومن ثم حقيقة العلوم والأشياء.

من هنا قد يسأل بعض أهل العلم وغيرهم من عامة الناس سؤالًا كهذا: على أي دين تعبد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه إلى البشر كافة حال وجوده في غار حراء؟ هذا السؤال من باب إعمال الفكر لا ينكره الإسلام ولا ينهي عنه بل يحض عليه ويشجعه، وهذا المبحث للعلماء فيه آراء تباينت واتفقت، ولم يزل بعضهم حتى هذه اللحظة يدلى بدلوه وله أدلته للإجابة على هذا السؤال، كما سنرى:

يجيب الشيخ الباقوري[1]: (، وأنت إذا تأملت هذه القضية على ما ينبغي لها أن يكون، فأنك لا تستبعد أن يكون محمد قد خلا في غار حراء للتفكر في ملكوت السموات والأرض، أما خضوعًا لقانون وراثة الوجدانات، وإما نزولاً على حكم ما عسى أن يكون قد انتهى إليه من سلوك أبيه إبراهيم في طلب اليقين بوجود خالق السموات والأرض ومدبر هذا الكون العظيم).

يدلل الشيخ الباقوري على صحة ما ذهب إليه من رأي وأن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يكن خامل الذكر، مجهول القدر، بل يذهب إلى القول بأن سيرة النبي الخاتم تكاد تتشابه في بعض المعاني مع سيرة أبي الأنبياء؛ فإبراهيم والاختلاء بنفسه بعيدًا للتأمل، وتدبر البرهان العقلي والحسي على وجود الله الواحد الذي لا إله غيره، والذي يكمن الشعور بوجوده باعتزاله قومه نفورًا من عباداتهم وعاداتهم وأوثانهم وأعيادهم وعزوفه عنهم، فوجوده سبحانه وتعالى كائن وكامن داخل كل فطرة سليمة ووعي وهدى كل نفس سوية وفكر قويم، فيقول: (، لا

يكون لك ـ حفظك الله ـ أن تستبعد ما يأثره الثقات من أن الولد سر أبيه، وأن يكون محمد قد سلك نهج أبيه إبراهيم، بهديٍ من الفطرة أو نبأ من أنباء التاريخ)، نعم إنه قانون الوراثة والولد سر أبيه مهما تباعد بينهما الزمان، ثم أنه لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بعيداً معتزلاً لقومه انطوائيًا كئيبا، بل كان على تواصل بهم وتواصل به وإلا ما عرفوا عنه صفتي الصدق والأمانة، ولا أودعوا عنده أموالهم، ثم كيف يتأتى لإنسان يعايش قومه تجاراتهم وخصوماتهم ومعاركهم وحلفهم ولا يعرف بشخصية بارزة مثل نبي يدين بديانته رجال من مكة عُرِفوا بالأحناف، وهذا النبي تماست أحداث حياته بحيواتهم فهو الأب لجدهم إسماعيل وهما معًا اللذان رفعا قواعد البيت، وللبيت في قلوبهم وحياتهم ومعاملاتهم وأشعارهم المكانة والسيادة والجلال والتعظيم، بل أن محمدًا صلى الله عليه وسلم نفسه مولود في العام الذي قصد فيه فيل أبرهة الحبشي وجهة البيت لدكه وفنائه تمامه لولا عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، ومن المؤكد أنه روى له أحداث هذا العام لما كفله بعد وفاة أمه أو تسَّمعهُ ممن يروونه بطرقات مكة وندواتها، ولا يعارض هذا إجماع كتب السيرة إلا قليلًا على أنه صلى الله عليه وسلم كان قبل أن ينزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي من عند الله، ميالًا للخلوة، محبًا للعزلة، لا يرتاد المجتمعات الصاخبة والمجالس العامة، والأماكن المزدحمة، هذا هو الطبع الغالب عليه صلى الله عليه وسلم، لكنه رعى الغنم وشارك في حرب الفجار في العشرين من عمره، وشهد حلف الفضول، وشارك في التجارة خارج حدود بلاده مرتين صغيرًا وكبيرا، وتزوج لخمس وعشرين من مولده، ولخمس وثلاثين حَكَّمته قريش في رفع الحجر الأسود وارتضت حكمه، وكانوا ينادونه قبلها بالصادق الأمين لما جمع فيه من الشمائل الكريمة والأحوال الصالحة والخصال الطيبة، وصداقته لابن أبي قحافة أبو بكر الصديق.

يقول صفي الرحمن المباركفوري [2]: (كان النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب والنظر السديد، ونال حظًا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد فيه حسنًا شارك فيه وإلا عاد إلى عزلته من جديد).

يأتي رأى الباقوري موافقًا لرأي الماوردي[3] من أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تعبد بما تعبد به جده النبي إبراهيم، فيقول: (ومحمد عليه الصلاة والسلام في هذا المنهج كجده إبراهيم إنه لم يتلق علمًا على راهب أو كاهن أو فيلسوف ممن ظهروا على عهده، ولكنه بعقله الخصب وفطرته الصافية طالع صحائف الحياة وشئون وأحوال الجماعات).

ذهب بعض الفقهاء من أصحاب الشافعي وأبي حنيفة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبدًا بشريعة من تقدَمه من الأنبياء لأنه لو تعبد بها لتبعها ولعمل بها، ولو عمل بها لظهرت منه. ولو ظهرت لتابعه فيها الموافق، ونازعه فيها المخالف.

بينما ذهب أكثر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأبي حنيفة إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان متعبدًا بشريعة من تقدمه من الأنبياء، وحجتهم في ذلك أن هؤلاء الأنبياء قد دعوا إلى شرائعهم من عاصرهم من الناس وكذلك من يأتي بعدهم، مالم تنسخه نبوةٌ حادثة، ولذا فقد دخل الرسول صلى الله عليه وسلم في عموم الداء قبل مبعثه، لأن الله تعالى لا يخلى زمان من شرعٍ متبوع، ولا متدينًا من تعبدٍ مسموع.

يؤكد بعض الفقهاء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متعبدًا على شرع جده إبراهيم عليه السلام وحجتهم في هذا يؤيدونها بآية: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في الحج والعمرة يؤدي مناسكه على سنة إبراهيم عليه السلام، ويذكر ابن الأثير في الكامل أن عبد المطلب أول من تحنث بحراء، فكان إذا دخل شهر رمضان صعد وأطعم المساكين جميع الشهر، بينما يرى الدكتور على حسن الخربوطلي[4]: (وكان محمد صلى الله عليه وسلم قبل ظهور الإسلام من الحنفاء، حتى إذا بلغ الأربعين من عمره نزل عليه الوحى وأصبح رسول الله).

والحنفاء لمن ظنهم وادعى عليهم أنهم شيعة من شيع النصارى ـ جهلاً من بعض المستشرقين وممن سار على نهجهم من بعض القادحين في الإسلام من ملة أهل

الكتاب ـ وأخطأوا، لأن بعض أهل الأخبار قد خلطوا في بعض أسماء أولئك الحنفية ونسبوهم إليها وهم ليسوا منهم، وإنما الحنفاء هم من احتفظوا بدين إبراهيم من الجاهليين، فلم يشركوا بربهم أحدًا ولم يعتنقوا لا اليهودية ولا المسيحية، كما نبذوا الوثنية. وقد كان العرب كذلك يدينون بدين التوحيد الذي بشر به إبراهيم عليه السلام، قبل أن تدخل الوثنية أرض الجزيرة العربية على يد عمرو بن لُحَيٍ الخزاعي، ويدلنا على هذا خروج ورقة بن نوفل مع زيد بن عمرو بحثًا عن دينٍ يتعبدان به، فلقيا اليهود فعرضت عليهما دينهم، فتهوْد ورقة، ثم لقيا النصارى، فعرضا عليهما دينهم، فتنصر ورقة وأبىَ زيد أن يأتي شيئًا من ذلك، وقال: (ما هذا إلا كدين قومنا نشرك ويشركون).

يرى الشيخ رشيد رضا[5] أن اختلاء الرسول صلى الله عليه وسلم وتعبده في غار حراء لم يكن إلا عملًا كسبي يقوي الاستعداد الوَهْبي فيه، ويقوي أيضًا الاستعداد السلبي، من عزلته صلى الله عليه وسلم في عدم مشاركة المشركين في أي شيء من عباداتهم، ولا عاداتهم. نافيًا أن يكون مقصد النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الاختلاء الاستعداد للنبوة، ودليله على هذا، أنه لو كانت النبوة هدفه صلى الله عليه وسلم لاعتقد حين رأى الملك، أو عَقِبَ رؤيته حصولَ مأموله، وتحقق رجائه، ولم يَخَفْ منه على نفسه. وإنما كان الباعثُ لهذا الاختلاء والتحنث اشتدادَ الوحشة من سوء حال الناس، والهرب منها إلى الأنس بالله تعالى والرجاء في هدايته إلى المخرج منها، ويقول: (أن استعداد محمد للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كلِّ ما في العالم من التقاليد الدينية، والأعمال الوراثية والعادات المنكرة، إلى أن تجلى فيها الوحي الإلهي بأكمل معانيه، وأبلغ مبانيه؛ لتجديد دين الله المطلق الذي كان يُرسل به رسله إلى أقوامهم خاصة، بما يناسب حالهم واستعدادهم، وأراد إكمال الدين به، فجعله خاتم النبيين، وجعل رسالته عامة دائمة، لا يحتاجون بعدها إلى وحي آخر).

يؤكد أحمد بهجت[6] أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يفكر في النبوة، ولا كان يسعى لهداية الناس، ولا كان يتشوف لشيء مما يتشوف له الصوفية، ولكن بهجت يبدو أنه استراح لفكرة التصوف التي نفاها فعاد وأثبتها، فقال: (كان صوفيًا قبل بعثته إلى الناس، ثم اختاره الحق نبيًا، فهجر عزلته ونزل إلى الميدان

وأمسك السلاح ودافع عن الحق حتى أسلم أنفاسه لبارئه، في البدء يولد التصوف، وبعده يولد الجهاد في سبيل الله).

لا يتفق الآب هنري لامنس [7] مع من يقول بصوفية النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول: (لم يكن محمد ممن لم يعرف العالم الباطن، نعم، لم يكن متصوفًا بالمعنى المعروف إلا أنه كان يرى أن الأمور التي في الغيب أعظم من الأمور التي تحت الحس، أي أن المشهود أدنى درجة من المحجوب، فالنظام الروحي في نظره هو الأهم وهو الوجود الحقيقي). والواقع أن ما ذهب إليه لامنس لم يصب كبد الحقيقة بكاملها، فكون الرسول لم يكن متصوفًا فهذا ولاشك صحيح أما أنه كان يجري في مخيلته هذا الفكر التنسكي الصوفي اللاهوتي الصعب والعميق، فهذا عندي أبعد ما يكون عن تصور الرسول صلى الله عليه وسلم وقتئذ.

يرفض ابن باديس [8] أيضًا صوفية الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول: (كان ينعزل عنهم ويذهب إلى غار حراء الليالي العديدة حاملاً عبء همه غارقاً في تفكيره. ولم يكن اختلاؤه في غار حراء مثل اختلاء متصوفة الهند الذين ينعزل أحدهم عن الناس ويذهب في أودية الخيال لتحصيل حالة نفسية خاصة به يعدها نعيمًا روحيًا. بل كان اختلاؤه وانعزاله للتفكير في طريق خلاص العالم من الضلال والقيام بخدمة عظيمة عامة البشر، وشتان ما بين الحالتين).

يقول الدكتور إبراهيم على أبو الخشب[9]: (، أما هذه الشريعة التي كان يتعبد بها صلى الله عليه وسلم، فما يدخل في باب الحدس والتخمين، أو الظن والاجتهاد، لطول المسافة بينه وبينها، ولأننا لم نعرف عنها أكثر من كونها شريعة كمثيلاتها مما كان للرسل السابقين، التي تضمنت هديًا ووعيًا، أو نصحًا ساميًا، وتهذيبًا سليمًا، وأن القرآن الكريم، قال عنها: ﴿دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾).

والدكتور أبو الخشب في محاولة البحث عن تلك الشريعة وكنهها زاد من حيرته، فلم يجد بُدًا من أن يقول أنه كان على الحنيفية وإن لم يصرح بهذا، إذ يقول في موضعٍ آخر: (وعلى كل حال فقد كان صلى الله عليه وسلم يرجو أن يكون ذلك

الصفاء، وتلك الروحانية وسيلته للارتباط بربه الذي امتلأ قلبه به، ويقينه منه، وحبه له، وتطلعه إليه، وبحثه عنه، وتفكيره فيه، وهو يرجو لهؤلاء أن تزول عنهم الغفلة). وكان الأجدى له ولنا التوقف عند قول الماوردي والتعويل عليه بدلاً من الالتفاف حوله.

المؤسف أن هناك من العلماء والكتاب من يتطوع في طرح فرضيات لا تستند إلى نص بل إلى حدس وتخمين نابع من خيال كاتبه، ولا يمثل اجتهادًا أبدًا ليس في تعبد النبي فقط، ولكن في صعوده إلى الغار ذلك الصعود الذي سيفضي حتمًا إلى نوع التعبد، أما أحدهم فجعل تفكير الرسول صلى الله عليه وسلم تفكيرًا ثوريًا ساخطًا على الأوضاع السائدة حوله في مجتمعه الجاهلي حتى أنه يفضي بهذا إلى صديقه أبي بكر الصديق بما يعتمل داخله، وكأننا أمام تنظيم ثوري يخطط لما يجب أن يفعلاه من أجل بث روح التغيير والتي تبدأ مع العزلة كشكل تكتيكي للتخطيط ثم المباغتة والتنفيذ ويمثل هذا التيار عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه "محمد رسول الحرية"، ونحن لا نقلل من أهمية العامل البيئي والمجتمعي في أحداث حراء لكنها ليست الدافع الوحيد والمقصود من خلوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعبده لربه بما ألهمه به.

كما ينفي عزلة الرسول المجتمعية أن شهور احتكاكه بالمجتمع والناس والبيئة المحيطة به أكثر بكثير من الليالي ذوات العدد التي كان يقضيها خلال شهر رمضان من كل عام، ومع هذا فلم يرد ما يؤكد دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بني جلدته إلى نبذ ما هم عليه من مفاسد حياتية واقتصادية، أو العودة لدين إبراهيم عليه السلام، أو مؤازرة المتحنفين، أو الثورة على المجتمع ككل، والخروج منه أو عليه بعد نزوله كل مرة من غار حراء مع تكرار تلك الخلوة منه صلى الله عليه وسلم لعدة أعوام قبل البعثة، وهو ما ينفي تمامًا ذلك الذي ما زالت تسوقه بعض الأقلام من أنه صلى الله عليه وسلم: (كان يتفكَّر في هذا الغار في طريقة إصلاح هذا المجتمع الفاسد، الذي انتشرت فيه عادات قبيحة كثيرة؛ كان من أهمها السجود للأصنام من دون الله عز وجل، وكذلك طغت كثير من العادات القبيحة على معاملات الناس) [10].

وهناك من يجعل أمر الصعود والاختلاء أمرًا تراتبيًا غايته أن يفوز الرسول صلى الله عليه وسلم بالنبوة في نهاية الخلوات التكراريات، وهو ما نفاه أكثر من عالم كما سبق، فيقول الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف [11]: (فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وضوحًا وجلاء، وكانت رؤياه الصادقة انعكاسًا لنفسه الصافية، وقد زادته رؤياه الصادقة أملًا في قرب الوصول إلى الحقيقة، وأنه أوشك أن يضع قدميه على الصراط المستقيم الموصل إلى الحقيقة المطلقة الخالدة)، وأية حقيقة مطلقة خالدة كانت في عقل الرجل الصاعد في هدوء وسكينة إلى ذلك الغار النائي، الشاق في صعوده، أو لا تدرك الأنبياء الحقائق إلا في الغيران.

يناقش الدكتور محمد سيد أحمد المسير [12]اختلاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليقدم طرحًا جديدًا لامسه من قبله بعض الأولين، إذ يقول: (تساءل بعض الباحثين: على أي دين تعبد سيدنا محمد قبل البعثة؟ وذهبوا مذاهب شتى، فقيل: على شرع نوح، وقيل: على ملة إبراهيم، وقيل: على دين موسى أو عيسى عليهم جميعًا السلام. ونحن نرى ـ أي الدكتور المسير ـ أن هذه الاتجاهات لا دليل عليها، فلم يثبت أن سيدنا محمدًا بحث عن الشرائع أو قرأ في الكتب أو تعلم من راهب، قال تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[13].

كما أكد الدكتور المسير أن التاريخ لم يذكر: (أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم كان من الحنفاء الذين التمسوا لأنفسهم أديان أهل الكتاب، وتفرقوا في البلاد يبحثون عن دين صحيح، والأوفق أنه صلى الله عليه وسلم تَعبَد قبل النبوة بالتأمل والفكر، والانقطاع والخلوة، والصلة والبر، كل ذلك بإلهام الله وتوفيقه).

وهذا ما تؤكده السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي، ويؤكده كلام الماوردي بأن تحنثه صلى الله عليه وسلم كان من إلهام وتوفيق الله. بهذا يكون قد اجتمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عبادات معًا: الخلوة، والتحنث، ورؤية بيت الله الحرام من فتحتي الغار، كما عاينا وصفه من قبل.

إن الذي ألهم عبده محمد صلى الله عليه وسلم حب الخلوة "ثم حُبِّبَ إليَّ الخلاء"، واعتزال ما عليه قومه من عادات وعبادات، وملاهٍ ومجالس شر، هو الذي

ألهمه طرائق التأمل، وأسلوب الدعاء، وحلاوة المناجاة، والأنس به، وقد كان قلبه خالصًا لله، لا يطلبه لسواه، ولا يفكر فيما عداه، فلم يكن يشغله ما عليه قومه ويود لو يملك التغيير، فلم يكن في قرارة قلبه يحمل بذور الثورة، أو يطلب السيادة والرئاسة والمنصب والمال، بل كان صاعدًا إلى الله، يطلب الخلوة ويحس بحلاوة الجلوة، والنور الإلهي يتسلل إلى فؤاده المشغول بمولاه، يتخلله إحساس لطيف بالقرب من طاقة علوية يحسها ولا يدركها، ولا يعلم كنهها، ويستطيبها ولكنه لا يعرف كيف يصفها، ولهذا أحب الخلوة والعزلة فكررها كل عام من نفس الوقت، لإحساس خامره، وعشق كابده، ولم يكن له فيها سابق مثال من مطالعة أحوال من سبق، فلم تكن منه على سبيل التجربة، أو حب استطلاع، أو أمنية ترددت في جنبات نفسه، فنفذها ثم تشبع منها فخبا أوارها فيه، ففترت عنها عزيمته، وضعفت عنها همته، بل من صدق معايشته لها، راح يعيدها كل عام بأكثر من حماسة العام الذي غادره، ودل على مردودها الطيب على نفسه، أن امتد أثرها على زوجه الكريمة العظيمة السيدة خديجة رضي الله عنها، فآزرته وعاضدته بالرضا عن صنيعه، والرحيل إليه بالزاد حيث كان، دون أن تتبرم أو تتأفف وهي من هي من المكانة والنسب والثراء، فلم تستهين بما يريد بل هونت عليه مادام يريد، ومما يؤكد خصوصية التجربة بزمانها ومكانها وإلهاماته أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يروِها حتى لزوجتيه خديجة في زمان حدوثها، ولعائشة على سبيل تذكرها واسترجاع حوادثها فيما رواه لها عن الوحي وإرهاصاته، ولم يحكها لأحدٍ من الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يسأله أحد عن تلك الأيام واللحظات الذاهبات، ولم يصعد بعدها إلى الغار، ولم يأمر أحد بالصعود إليه، ولم يُروى عنه صلى الله عليه وسلم حديثًا واحدًا في فضل حراء أو فضل الاختلاء فيه، ولم يكن له شعيرة أو منسكًا أو رتب له صلى الله عليه وسلم مكانة من التقديس أو التقدير، فدل أكثر على خصوصية الصعود والعزلة والتأمل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وإن كان قبيل زمن النبوة، بيد أنه كان إرهاصًا لها، مما قسمه الله تعالى لعبده ومصطفاه، ووقع في قدر الله، وغاب علمه عن رسول الله، وما تمناه صلى الله عليه وسلم أبدًا، ولا لأحدٍ حكاه.

هوامش الفصل الأول:

[1] الشيخ أحمد حسن الباقوري، قطوف من أدب النبوة، الجزء الثاني، ص35ـــ37، كتاب اليوم، القاهرة، 1982.

[2] صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ص80، دار التقوى، القاهرة، 1990.

[3] علي بن محمد الماوردي، أعلام النبوة، ص55.

[4] الدكتور على حسن الخربوطلي، الكعبة على مر العصور،ص23، سلسلة اقرأ.

[5] محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ص129.

[6] أحمد بهجت، أنبياء الله، الطبعة الخامسة عشرة، ص393ـــ394، دار الريان للتراث، القاهرة،1987.

[7] هنري لامنس، عهد الإسلام، ص82.

[8] الإمام ابن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص195، المكتبة الإسلامية.

[9] الدكتور إبراهيم على أبو الخشب، الرسول في نشأته ودعوته، ص33.

[10] راغب السرجاني، تعبد الرسول صلى الله عليه وسلم، موقع قصة الإسلام.

[11] الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف، تاريخ الإسلام في عصر النبوة، ص123.

[12] الدكتور محمد سيد أحمد المسير، النبوة المحمدية، ص30ـــ31.

[13] سورة الشورى: (52).

الفصل الثاني

الافتراءات المصنوعة في أحداث حراء

منذ أن سمع الرسول صلى الله عليه وسلم صوت رسول السماء جبريل عليه السلام وهو يلقي عليه الكلمة الخالدة: "اقرأ"، لم يكن هذا الفجر مثل أي فجر سبق، وما عاد محمداً الرجل الذي كان قبل سماعها؛ فقد علم أن قدرً آخر ينتظره لم يتخيله ولم ينتظره.

ومنذ تلقيه صلى الله عليه وسلم أمره ربه عز وجل: ﴿أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وصدع امتثالًا، وصعد الصفا، ونادى بأعلى صوته على قومه وأنذرهم بالعذاب الأليم، وبارزه عبد العُزى عمه المُكنى "أبو لهب" بالعداوة والتب والحرب عليه وعلى دعوته، منذ صعوده وحتى نزوله لم يكن ينتظر محمدًا أبا لهبٍ واحد في زمن واحد، بل أنبتت الأرض اليباب الآلاف منهم من بني جلدته تارة ومن الشرق تارة والغرب تارات، من عرف الحق فيه وعنه ثم أنكره وأهال عليه قاذورات ادعائه وكذبه، ومن سار خلف دينه ودعوته وسيرته وجسده الشريف صلى الله عليه وسلم حيًا وميتًا كَسير أبي لهب خلفه يحرض عليه القوم، ويشوش عليه بصوته حتى لا تُسْمَع دعوته، ومن حَرَّفَ أقواله صلى الله عليه وسلم ودلَس عليه، ومن صاغ الأكاذيب والأباطيل من أهل الديانات الأخرى خوفًا على أباطيلهم وتحريفاتهم وأضاليلهم التي كشفها الكتاب الحق الذي أُنزل عليه، وسنته المطهرة التي شاعت بين من آمن به ومن لم يؤمن، إن هي إلا كلمة التوحيد قالها صلى الله عليه وسلم ودعا لها حتى تغير المنظر وهبت حوله وضده كل هذه الزوابع من الكراهية، بل أقامت الدنيا من وقته وحتى الآن ولم تقعدها.

تحركت عبدة أصنام الحقد والظلام التي تملأ حياتنا ـ ولاتزال ـ نحو رسول جاء بأمر ربه، فألَّفوا الشبهات، واخترعوا الأباطيل، ودبَّجوا الأكاذيب حول زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة، وكذلك علاقته بابن عمها ورقة بن نوفل، وكيف كانا يعدانه صلى الله عليه وسلم للرسالة الجديدة، فادَّعوا أن ورقة هو الذي ألف القرآن الكريم، وأذاعوا أن فترة انقطاع الرسول صلى الله عليه وسلم بالغار

كانت لأنه كان يتلقى تعاليم الدين الجديد الذي سيزفه إلى العالم من غيره، وأشاعوا بأنه صلى الله عليه وسلم وجده عبد المطلب خَطَطا لاستعادة المجد التليد لقومه وعشيرته؛ فلم يكن أمامهما إلا اختراع حيلة ابتعاثه بدين جديد يؤلف حولهم القبائل ويعيد إليهم الزعامة السليبة، ومن قائل بأن بُحيرا هو الذي علمه ولَقَنه، وهناك الذي ادَّعى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم استمع إلى الشعوب المحيطة به وقرأ كتبهم وقصصهم ونسج على منوالها توليفة عبقرية لدينه الذي بشر به، وهناك من غالى فجرده من أميته وأثبت له العلم بالقراءة والكتابة لا عن حبٍ فيه بل ليُثبت النقل عمَّن سبقوه، ومن فَجَرَ فنادى بأن القرآن من تأليف الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم. وغاية كل الفرقاء تجريد كلام الله تعالى من القداسة والألوهية والسماوية والفوقية، ووسمه بالبشرية والأرضية ليسهل نقضه، ليكون نقض بنيان الإسلام كله أيسر وأهون.

وقد صدرت كل هذه الادعاءات والترهات والتخبطات الفكرية ممن هُم على غير الملة، ومن الأذناب المحسوبين على الإسلام من أولئك الذين لبسوا طيلسان العلماء ولكنهم انضووا تحت ألوية التقدم والتنوير والماركسية والطرق والمذاهب المنحولة فصاروا يقولون أكثر مما قال المستشرقون أنفسهم، فكانوا حربًا مع من يحاربون محمدًا وديانته وأتباعه، هؤلاء ليس منهم صلى الله عليه وسلم، وليسوا هُم منه، وبالتالي ليسوا منا.

من هنا نستطيع أن نصنف تفجير لحظة حراء، بين تفجير الوحي، وهدم كيان الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا ما سيقودنا بالتبعية إلى تتبع كل حملة عليهما وتخصهما دون غيرهما في انبثاق اللحظة لا في امتدادها وانتشارها.

ـــ شبهات ضد الوحي:

- مصدر الوحي: الشيطان:

كان لابد من هدم مصدر التلقي الأول للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو جبريل عليه السلام، بأي طريقة، تارة بزعم أنه شيطان، وتارة أنه منام، وتارة أنه وهم لرجل مريض بالصرع؛ فزعم بعض المستشرقين أن الوحي القرآني ما هو إلا وحي من الشيطان، وأن جبريل ما هو إلا شيطان كان يتمثل للرسول صلى الله عليه وسلم في صورة مَلك.

ويستدلون على أنّ الكائن الذي رآه صلى الله عليه وسلم في غار حراء كان يخنقه مما يدل على أنّه كان شيطانًا، إذ لو كان مَلك ما كان شريرًا يخنق، ومما يؤكد شيطنته أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يفكر أبدًا أن الذي ظهر له مَلك بدلالة قوله لزوجه السيدة خديجة، رضي الله عنها: "رأيتُ تابعًا أو مسني جن".

والذي يطالع حديث بدء الوحي الذي روته السيدة عائشة، رضي الله عنها، سيتأكد من أن الملك لم يخنق النبي صلى الله عليه وسلم حين ظهر له بل غطّه ـ ضمّه أو احتضنه ـ ضمًا شديدًا حتى بلغ منه الجهد، على سبيل المحبة والمودة؛ فلقد ضم جبريل عليه السلام فعلاً رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما فاجأه بنزوله عليه، والحكمة من ذلك أن يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم الناس من بعده أن الوحي ظاهرة حقيقية خارجة عن ذات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومستقلة عن شخصيته، فلا يخيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه توهم أو تخيل أو،

ولقد زعم المستشرقون ـــ عند حديثهم عن الوحيّ ـــ أن الوحي ظاهرة نفسية وإشراق روحي لم يتجاوز شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو ـــ كما زعموا ـــ حالة نفسية أثمرتها عزلته وتفكره صلى الله عليه وسلم، وأنكروا أن يكون جبريل هو النازل عليه صلى الله عليه وسلم، فكان هذا الضم الشديد ـــ الذي فعله جبريل برسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ وكان انقطاع الوحي عنه صلى الله عليه وسلم حتى حزن حزنًا شديدًا برهانين واضحين ودليلين قطعيين على أن

الوحي ظاهرة خارجة عن ذاته صلى الله عليه وسلم تمثلت بنزول جبريل عليه السلام عليه، وليس الوحي أخيلة نفسية، ولا إشراقا روحيًا إذ لو كان كذلك لما كان هذا الضم أولًا، ولما كان الحزن منه صلى الله عليه وسلم (لانقطاع الوحي) عنه ثانيًا [1].

وقصة بدء الوحي كما ترويها أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، تقول: "، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(3)﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ: وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ: وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ. قَالَ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ، " وقيل في معنى "اقرأ" في هذا الموضع: "ردد وقل ما سيملى عليك"، أفاده العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره المسمى التحرير والتنوير.

وقد أوجب الله تعالى العصمة لرسله عليهم السلام، فلا يجوز عليهم الخطأ، وحفظهم وأيدهم بتأييده ولطفه، وقد أوجب أن يكون من صفاتهم الفطانة؛ فمنحهم العقل والرشد، فلا يعتريهم نقص ولا تضعف عقولهم مهما بلغوا من العمر، ولا يصيبهم ضعف في حواسهم، وأوجب فيهم الأمانة والتبليغ؛ فالنبي أمينٌ

دار ناشري للنشر الإلكتروني

على الوحي، أي لا يخطئ في تلقيه من العالم العلوي، والتبليغ خاص بالرسول فقط عليه أن يبلغ ما نزل عليه مما أوحاه الله إليه ولو لاقى في سبيل ذلك التبليغ الأذى والضر، فلا يكتم منه شيء، ذلك لأنّ النبي وسيط في الهداية العامة التي يسير الخلق إليها بطبيعة جبلتهم، فلا يجوز عليه بادرة خطأ فيما يتلقاه عن ربه، وهو مأمور بالتبليغ النصي الحرفي، فليس له الاختيار في تركه أو تبليغه، وليس للوساوس الشيطانية أو الهواجس النفسية سبيل إليه، ولو حدث مما قلناه فيكون نتيجة ذلك خطأ في سنة الكون الدالة على الهداية العامة، وهذا ما لا يكون ولم يقع أبدًا.

وقد ثبت بالأدلة الصحيحة الصريحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها مرتين اثنتين فقط، وهذه خصوصية[2] له صلى الله عليه وسلم وليست لسواه، وهاتان الرؤيتان هما:

ـــ الرؤية الأولى: كانت في الأرض في بداية الوحي، ونزلت عليه بعدها سورة المدثر:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةٍ – أي انقطاع - الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: "فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ – إلى – والرجز فَاهْجُر"[3]. وهذه الرؤية هي التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: (وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ)[4].

وتفسيرها: ولقد رأى محمدٌ جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، (بِالأُفُقِ الْمُبِينِ) أي: البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء ـــ موضع بمكة وهي المذكورة في قوله: (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) [5]، والدليلُ أن المرادَ بذلك جبريل عليه السلام[6].

دار ناشري للنشر الإلكتروني

ـــ الرؤية الثانية: كانت في السماء، ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى:

وقد نصت الآية في سورة النجم على الرؤية الثانية، وأشارت إلى الرؤية الأولى، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)[7].

ولم يثبت وقوع رؤية ثالثة حقيقية لجبريل عليه السلام، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: (وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ)[8].

والحديث عند الإمام مسلم [9] من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنْ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ).

فكيف تدَّعي شياطين الإنس أن ما ظهر للرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء شيطانًا وليس مَلَكًا، وهو الذي رآه على حقيقته المرة تلو المرة على حقيقته، وأما الذي يثبت أن ما رآه بالغار هو ذاته الذي رآه بعدها، قوله صلى الله عليه وسلم: "الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ".

ويجدر بنا الآن أن نتوجه إلى مثيري الشبهة بهذه الأسئلة:

ـــ لماذا لم يُعَلِّم أحد الشياطين أحدًا من العرب قرآنًا مثل هذا. ولماذا خص محمدًا دون من عداه مع أنه أُمِّيٌّ؟ أليس من الحكمة أن يختار هذا الشيطان أو الجان رجلًا متعلمًا، أو يتنزل على من عُرِف باتصاله بالجن والكهانة، أو حتى أرباب الفصاحة من الشعراء؛ إذ كانوا يقولون إن لكل شاعر شيطانًا. ثم أين كان هذا الجن منذ أن كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعبد في الغار من سنوات، ولماذا يأتي فجأة هكذا، لم يُمهِّد، وخاصة أن هذا أمر خطير سيغير وجهة الكون.
ومن ثم لا يسعنا إلا القول بأن النبي معصوم من الجن، وأن ما يأتيه وحي نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام، من رب العالمين، بلسانٍ عربيٍ مبين [10].

ـــ شبهات ضد الرسول صلى الله عليه وسلم:

- مصدر الوحي: الحالة المرضية والنفسية:

دأب المستشرقون إلى تعديل شبهاتهم وتنويعاتها؛ ففي الواقعة الواحدة يستطيعون أن يسددوا سهامهم المسمومة في أكثر من اتجاه حتى وإن تناقضت، المهم أن يثيروا غبار الافتراءات في وجه الحقائق لتقع موقعها في ضعاف العقول والنفوس.

ولما صوروا أن الشيطان هو مصدر الوحي بكذبهم باعتباره الوسيط بين الله تعالى وبين الرسول صلى الله عليه وسلم فقد تصوروا أنهم بهذا قد نقضوا بنيان الوحي، عمدوا بعدها إلى الطرف المتلقي للوحي فأعملوا فيه طعونهم، وكان أن توجهوا إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم، فأشاعوا أن مصدر الوحي هي الحالة المرضية النفسية التي كانت تكتنف النبي صلى الله عليه وسلم، والسبب الرئيس لهذه الحالة ابتعاده عن دين قومه وعزلته في الغار حتى تكوين دينه الجديد، فالمشكلة كل المشكلة في الغار ولحظته الفارقة!

ولو تتبعنا أقوال كل مستشرق فيهم والرد على شبهته لما انتهينا، وما نقصد إلا الإشارة إلى توهماتهم المبنية على تصورات مريضة غاب عنها الحياد العلمي، وحل محلها الحقد الصليبي، وسأكتفي بالمستشرق إميل درمنغم وهو واحد ممن روجوا لهذه الشبهة العبثية النمطية فيزعم أن محمدًا قد أصيب بمرض نفسي منذ صغره، صار يكبر هذا المرض معه ويستفحل حتى وصل إلى قمته مع لحظة حراء حين التقى الرسولان، محمدًا وجبريل عليهما السلام، فيقول: (لما كانت سنة 610م كانت الحالة النفسية التي يعانيها محمد على أشدها، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقًا)، هذا ما يرمون إليه تفجير لحظة حراء، فمع قمة ما تطمح إليه الأرض بنزول الوحي على رسول من البشر، يتدخل الكذابون بالالتفاف عليها، وهدمها من جذورها.

- غار حراء انقطاع للتعلم لا للتعبد:

لم يترك أعداء الدين حيزًا إلا ملأوه بالشبهات والأضاليل سواء أكانت معقولة أم لا، المهم يشوشون ويهيلون الغبار على ناصع عله يصادف هوًا في صدور ضعاف النفوس فيتزعزعون، فحتى فترة انقطاع الرسول صلى الله عليه وسلم بالغار للتعبد، جعلوها فترة انقطاع لتلقيه العلم على يد معلمين من جنسيات شتى وكأنه كان يهئ نفسه لأمرٍ قد أعد له سلفًا، والثابت تاريخيًا وقريش نفسها تعلمه وإلا واجهته به وفندت أقواله، أنه صلى الله عليه وسلم لم يجالس عالمًا أو مُعلمًا طوال حياته وحتى تكليفه بالنبوة، ولم يقم واحد من الذين عَلمُوه ـــ بحسب زعمهم ـــ وبارزه بأنه عَلَّمه أو حتى سعى بين الناس ليكَذِّب محمد ويجاهر بأن هذا عِلمَهُ، ولو علمت قريش مَنْ عَلمَهُ لأغرته بالمال والجاه حتى يدور وراءه مُكذبًا وهو يعرض نفسه على القبائل كما فعل عمه، أو حتى يقوم من علَّم محمدًا محاجِجًا إياه بأنه أحق منه بالنبوة، ومادام هذا الكلام لأناس من البشر فلماذا يتحدى محمدٍ قريش بأن تأتي بسورة من مثله أو بآية؟ وهو يعلم أن العرب أهل بلاغة وفصاحة ولو شاءوا لفعلوا، ولو فعل العرب لافتضح أمر من ألف القرآن سواء كان الذي ألفه محمد أو أُلِفَ له؟ والواقع يُكذِّب من افترى مثل هذا القول فلقد علم العرب أن هذا القرآن الذي يسمعونه يتميز بخصائص لم يعهدونها من قبل، وكانت جديدة عليهم ولم يستطيعوا مجاراتها أو الإتيان بمثلها من قصص وشرائع وأخلاق وفواتح سور وموسيقى لها جرس ينافي جرس موسيقى شعرهم ونثرهم.

وصدق الله العظيم في وصفه لأولئك الذين يدعون مثل هذه الدعاوى الزائفة والمضللة والتي لا تثبت أمام البراهين: " وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ[11].

- الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن أميًا:

يسعد المستشرقون وبعض الصوفية وبعض الشيعة والقرآنيون وبعض مدَّعي التجديد في الإسلام أن تؤكد علم الرسول بالقراءة والكتابة، وتنفي عنه صلى الله عليه وسلم، مع كون الأمية معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم، بل هي في حقه صلى الله عليه وسلم مَنقبة، وليست منقصة، كمالًا وإعجازًا، لا عجزًا منه،

بل هو يعلم صلى الله عليه وسلم علم اليقين أنها تعطيل لملكاته عن إدراكها بقوة القاهر الأعلى لتحصيل منفعة أكبر بالحرمان، عن مَجْدٍ أقل منه بالإتيان.

والأمية في حقه صلى الله عليه وسلم منقبة لا منقصة حين سعى أعداء الدين، من بعد عصره، في نفيها عنه مع إثبات العلم له بالقراءة والكتابة لا دفعًا للنقص عنه وتزيينه بالمنقبة، ليثبتوا له أخذه من الشعوب المحيطة به، والنقل عن كتب السابقين.

وقد ساير بعض المسلمين ما يروج له بعض المستشرقين من إنكار أمّيّة النبي صلى الله عليه وسلم، متغافلين عن نصوص الوحيين الصريحة في ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة، ثم ساقوا لتأييد أطروحتهم جملة من الأدلة مستصحبين أسلوبهم المعروف في تحريف النصوص وليّ أعناقها، واستنباط ما لا يدل عليه النص أبدًا لا بمنطوقه ولا بمفهومه.

فيقف في خندق النفي بعضٌ من الشيعة والصوفية، وكل القرآنيين ممن ينفون السنة أصلًا أو من سموا أنفسهم بأهل القرآن فقط، وهم أيضاً يتآزرون في سوَّق نفس الحجج والمزاعم وكأنهم على اتفاق، ليؤكدوا ما نقوله وما سنورده من شبهات أنك حيث تجد الشبهة تجد المستشرق مع الكتابي مع الشيعي مع القرآني ينضم إليهم الملحد ممن نبذ الدين ليقف الجميع صفًا واحدًا ضد الإسلام وضد الرسول صلى الله عليه وسلم يتساوى فيهم من هو على ديننا أو على دين أو مذهب سواه.

فالقرآنيون يؤكدون أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ويكتب وهو الذي كتب القرآن بنفسه ولم يكن هناك كتبة للوحي! بل شدد إمامهم بأن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم أسطورة كاذبة وهى أساس الطعن على القرآن الكريم، ويدعى أحد تلاميذه أن كلمة "أمي" معناها أنه مبعوث للأمم، وبيان ذلك أن تعلم الكتابة والقراءة أمرٌ سهل التناول، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلم الخط كتابة وقراءة بأدنى سعي، وعدم تعلم الإنسان ذلك – بحسب العادة المطردة – يدل على نقص بين في الفهم والذكاء والعقل والعلم، والحال أن نبينا صلى الله

عليه وآله وسلم كان مع أميته أعظم الناس فهمًا وأحدَّهم ذكاءً وأكملهم عقلًا وأغزرهم علما، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريًا مجرى الجمع بين الضدين وذلك مستحيل حسب العادة، فلا بد إذن من الجزم والقطع بأن الله عز وجل هو الذي أفاض عليه ما أفاض وأعطاه ما أعطاه من الفهم والذكاء والعقل والعلم ما فاق به جميع العالم من الأولين والآخرين، ليكون ذلك برهانًا بينًا ومعجزًا عظيمًا على نبوته ورسالته.

أما عن موقف بعض الشيعة والتي تقف برأيها في منتصف الطريق للتوفيق بين إثبات الأمية واللا - أمية فيمثلهم الشيخ عبد اللطيف البغدادي في كتابه: "قبس من القرآن في صفات الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم"، فيقول: (أن النبي يعرف الكتابة والقراءة بعلم النبوة الظاهر، أن الذي عليه أكثر أهل السنة أنه صلى الله عليه وآله لا يعرفهما، والذي عليه أكثر المحققين من شيعة أهل البيت أن النبي صلى الله عليه و آله كان يعرف القراءة والكتابة بعلم النبوة والرسالة من غير معلم، معجزة له، ولكنه لم يكتب بالفعل. وبعضهم يتوقف في ذلك كالسيد المرتضى علم الهدى كما نقل، عنه شيخنا الطبرسي: (هذه الآية تدل على أن النبي ما كان يحسن الكتابة قبل النبوة، فأما بعد النبوة فالذي نعتقده في ذلك التجويز لكونه عالمًا بالكتابة والقراءة، والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع على أحد الأمرين. وظاهر الآية يقتضي أن النفي – أي ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ قد تعلق بما قبل النبوة دون ما بعدها – ولأن التعليل في الآية– أي: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوة لأن المبطلين إنما يرتابون في نبوته صلى الله عليه و آله لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة، فأما بعدها فلا تعلق له بالريبة والتهمة، فيجوز أن يكون قد تعلمها من جبريل بعد النبوة ...) انتهى كلام البغدادي. ومجموع هذه الآراء يتبناها بعض الصوفية حتى لا نتجنى على أحد.

إن أكثر ما ينفي علم الرسول صلى الله عليه وسلم بالقراءة والكتابة، قصص الأنبياء في القرآن الكريم ووجه دلالة هذا الأمر على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وإعجاز القرآن، هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، وكان معروفًا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئًا من كتب الأولين ولا قصصهم ولا سيرهم، فحين يخبر بهذه القصص وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يذهب إلى

القصاص يسمع منهم، إذ لابد أن يكون مؤيدًا من الله سبحانه وتعالى فهو وحده العليم بتفاصيل ودقائق هذه الأخبار، فمحمد لم يتعلم على يد أحد ولم يقرأ في كتب السابقين ولو فعل ذلك لم يخفَ على الناس أمره [12].

ولقد ربط القاضي بن عياض بين إعجاز القرآن وإخباره عن الأمم السابقة والأمم البائدة وبين أمية الرسول صلى الله عليه وسلم فيما لو كان من حاله متعلمًا لسقط الإعجاز، فقد كان الفذ من أحبار أهل الكتاب لا يعلم من أخبار القرون إلا القصة الواحدة، فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه، ويأتي به على نصه، فيعترف العالم منهم بصحته وصدقه، وأن مثله لم يحظ بتعليم، وقد علموا أنه صلى الله عليه وسلم أميٌ لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مشافهة، ولم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم [13].

النبي صلى الله عليه وسلم يتقن اليونانية:

يبدو أننا لن ننتهي من شطحات الذين يمارسون الافتئآت على تاريخ السيرة المطهرة، وذلك حين يأتون بما لم تأتِ به الأوائل؛ فيدعي أحدهم متسائلًا في براءة: هل كان النبي محمد (ص) يتقن اليونانية؟ وطبعًا هو لا يسأل ولكن يثير اهتمام القارئ والسامع والمار لأنه لا ينتظر إجابة من أحدهم، فهو الذي سيتكفل بالأدلة التي تثبت صحة ما يزعم، ويرى أن إثبات معرفة الرسول بالقراءة والكتابة وإتقانه لهما هو ما ييسر الطريق لإثبات إتقانه لأية لغة أخرى، لأن الأمية لن تعينه على إثبات اكتشافه!

ولنترك له أدلة إثبات القراءة والكتابة للرسول صلى الله عليه وسلم وتهافتها، وورودها وغيرها على ألسنة من يؤكدون نفس الزعم على الرغم من رد العلماء عليهم ودحض مفترياتهم، ولندخل على اكتشاف تعلم وإتقان الرسول صلى الله عليه وسلم لليونانية، وهو يمهد لهذا بفطنته وذكاءه صلى الله عليه وسلم لا سيما وهو يعيش في مدينة تجارية مهمة مثل مكة.

وهذا زعمٌ باطل يدحضه واقع نعيشه من أن ليس كل سكان المدن التجارية في العالم يتحدثون لغات الأجانب بإتقان ومنهم من لا يفرق بينها أصلًا. ويأتي

بحديث استماع الرسول صلى الله عليه وسلم لرطانة من يتحدثون لغتهم، فدل وقوفه صلى الله عليه وسلم على علمه بها، ولقد كنا نمر على أناس من بني جلدتنا وديننا يتحدثون اللهجة النوبية ونقف أمامهم ومبهورين بحديثهم مع كوننا لم نفهم حرفًا واحدًا مما قالوه، فأين علمنا بلهجتهم إذن.

إن ما يؤكد معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم باليونانية في زعم من قال هو رحلاته التجارية إلى الشام، سواء مع عمه أبو طالب أو في تجارة خديجة، لأن اللغة الرسمية في الشام كانت اليونانية، ومن المرجح أن اختياره من قبل خديجة لقيادة تجارتها إلى الشام جاء بسبب إتقانه اللغة اليونانية التي يحتاجها التجار عند دخولهم أرض الروم. ومن خلال زواجه بخديجة تعرف على ابن عمها القس ورقة بن نوفل الذي كان يجيد اليونانية على ما يرجح بدليل مواظبته على قراءة الإنجيل الذي لم يكن مترجمًا إلى العربية آنذاك السيرة النبوية.

والفرية تفضح نفسها والكذب فيها ناطق بلسان لجلج، فقد ادعى أن الرسول سافر إلى الشام "رحلات" مع عمه أبي طالب، والتاريخ يؤكد أنها سفرة واحدة قام بها حين تم له صلى الله عليه وسلم من العمر اثنتا عشرة سنة، وعاد به مسرعًا من "بُصرى" بناءً على نصيحة الراهب "بحيرا"، فمتى وأين تعلم الرسول صلى الله عليه وسلم اليونانية.

أما تعلمه من ورقة بن نوفل فهو الكذب الفاضح والذي يقتلعه من جذوره أن الشواهد تؤكد التقاء الرسول صلى الله عليه وسلم مرة أو مرتان، ولا أعتقد أنهما كافيتان لأن يتقن الإنسان لغة أجنبية!
لقد أتت البشارات في الكتب السابقة تحكي عن أمية الرسول القادم، ولو لم يجدوا هذه الصفة في الرسول صلى الله عليه وسلم، لتمسكوا بتلك البشارات التي ينفونها أو يؤلونها لصالح عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن صفات الرسول قد زايلها الأمية.

كما اقتضت إرادة الله تعالى أن يكون نبيه صلى الله عليه وسلم أمّيًّا، حتى صارت الأمية صفة من صفاته، وخصوصية له صلى الله عليه وسلم، ولعل لو أتى على

خلاف ذلك من العلم بالقراءة والكتابة لوجد الكفار وغيرهم منفذاً للطعن في نبوته، أو الريبة والشك في رسالته، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[14].

فلا شك أن النبي الكريم محمدًا صلى الله عليه وسلم قد وُلِّدَ أميًا، وظل على ذلك إلى أن بُعِّث وهو أمي، وهذا كمال في حقه صلى الله عليه وسلم ومعجزة من معجزاته الشريفة، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [15].

وفي وصف الرسول الأمي بأنه يتلو على الأميين آيات الله أي وحيه، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب أي يلقنهم إياه، كما كانت الرسل تلقن الأمم الكتاب بالكتابة، ويعلمهم الحكمة التي علمتها الرسل السابقون أممهم، في كل هذه الأوصاف تحد بمعجزة الأمية في هذا الرسول صلى الله عليه وسلم فهو مع كونه أميًا قد أتى أمته بجميع الفوائد التي أتى بها الرسل غير الأميين أممهم لا ينقص عنهم شيئًا، فتمخضت الأمية للكون معجزة حصل من صاحبها أفضل مما حصل من الرسل الكاتبين مثل موسى. وفي وصف الأمي بالتلاوة، وتعليم الكتاب والحكمة، وتزكية النفوس، ضرب من محسن الطباق، لأن المتعارف عليه أن هذه مضادة للأمية[16].

يقول القاضي عياض: (ليست المعجزة مجرد كونه أميًا، فإن المعجزة حاصلة بكونه صلى الله عليه وسلم كان أولاً كذلك، ثم جاء بالقرآن وبعلوم لا يعلمها الأميون).

ويؤكد الإعجاز في أمية الرسول صلى الله عليه وسلم الرازي في تفسيره، فيقول: (أجل معجزات النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأشرفها أنه كان رجلاً أميًا)، إلى أن يقول: (ظهور هذه العلوم العظيمة عليه مع أنه كان رجلاً أميًّا لم يلقَ أستاذًا، ولم يطالع كتابًا، من أعظم المعجزات)[17].

كيف يمكن لإنسان ــ كان في بداية أمره أميًا ــ ثم أصبح فضلًا عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق، أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنس

في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة [18].

تقول الصحفية الأمريكية ديبورا بوتر التي تحولت للإسلام: (عندما قرأت القرآن الكريم غمرني شعور بأنه الحق، وقد تساءلتُ: كيف استطاع محمد الرجل الأمي أن يعرف معجزات الكون، التي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها.).

إن الله بعث الرسول صلى الله عليه وسلم أميًا وأعطاه ما يعجز عنه كل متعلم، فهو الإعجاز للإيمان، ونحن كمؤمنين به صلى الله عليه وسلم يجب ألا نضع نصب مخيلتنا أننا آمنا به لأنه أمي جاء بما يعجز فقط، بل لأنه أولاً وأخيرًا رسولاً من قبل الله سبحانه وتعالى، ولو أننا نعتبر وضعه كأمي يأتي بما يبهر العقول ويدهش الفحول من المتعلمين معجزةً له ومكرمة من قبل الله[19].

يقول الدكتور محمد رواس قلعه جي[20]:) المعجزة في حقه صلى الله عليه وسلم أنه أمي أفحم العلماء، وألجم بالفكر المفكرين، وساق للمؤرخين أخبار ما لا يعرفون، فقامت له الحجة، وألجم بها الجاحدون).

أما محمد رسول الله فإنه كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، وكان مع هذه الأمية، والنشأة البعيدة من مواطن العلوم، ومجالس العلماء ينظر إلى الحقائق الغامضة؛ فيصيب كبدها، وينطق فإذا الحكمة كاشفة[21].

إن الذين يتكلمون في أمية محمد صلى الله عليه وسلم ويقولون: يجب أن تمحى هذه الكلمة، فلا يقال: نبي أمي في أمة أمية نقول لهم: افطنوا يا قوم، لأن الله يريد أن يقول للعالم: إن محمدًا وأمة محمد لم يأخذوا من حضارة الدنيا شيئًا، وإنما جاء كل منهجهم من السماء، فلا دخل لأحد فيه، لا بالنسبة للرسول الذي أُنزل عليه، ولا بالنسبة للقوم الذين أُنزل إليهم[22].
يقول ول ديورانت[23]: (يبدو أن أحدًا لم يعن بتعليم القراءة والكتابة، ولم يعرف عنه أنه كتب شيئًا بنفسه، ولكن هذا لم يحل بينه وبين قدرته على تعرف شؤون

الناس تعرفًا قلّما يصل إليه أرقى الناس تعليمًا)، ثبت إذن أن محمدًا لم يقرأ كتابًا مقدسًا ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه[24].

هذه الأقوال لا تترك للمستشرقين ومن يتابعهم ممن ينكرون أمية الرسول صلى الله عليه وسلم سبيلًا إلا بالأخذ بها، بعد ما تبين من ضعف ما يحتجون به من دلائل على علم الرسول صلى الله عليه وسلم بالكتابة والقراءة.
من الشواهد القوية التي ربما لا يتطرق إليها أهل العلم إلا قليلًا، حادثتين يجب أن أسوقهما لما لهما من دلالة على أمية الرسول صلى الله عليه وسلم بالقراءة وبالكتابة:

الأولى: كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوقع هجومًا من قريش بين لحظة وأخرى، وبينما هو في قباء، إذ جاءه رجل من غفار، يحمل رسالة من عمه العباس عبد المطلب بعلمه فيها بأمر مسير قريش لمهاجمة المدينة، وعدد قواتها، دفع الرسول الرسالة إلى أبي بن كعب، فقرأها عليه، فاستكتمه أمرها.

الثانية: كتاب الأمان الذي طلبه سراقة بن مالك من الرسول صلى الله عليه وسلم حين تبعه حال خروجه وصاحبه الصديق في طريقهما مهاجرين إلى المدينة، فأمر صلى الله عليه وسلم عامر بن فُهَيْرة فكتب له في رقعة من أدم.

كان حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم وذلك من الغريب الواقع، لأن علماء الملة الإسلامية في العلوم الشرعية والعقلية أكثرهم العجم إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي، والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال البساطة والبداوة وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه، كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء، أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذٍ صفة عامة في الصحابة بما كانوا

عربًا، فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء إشارة إلى هذا، فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن رسول الله لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له[25].

وقد أرجع ابن خلدون أسباب تسلل الإسرائيليات إلى الدين الإسلامي إلى أمية العرب، فيقول في المقدمة: (والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية: في المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم).

كمل الله استعداد رسول الله صلى الله عليه وسلم الفطري الوهبي، لا الكسبي؛ للبعثة بإكمال دين النبيين والمرسلين، والتشريع الكافي الكافل؛ لإصلاح جميع البشر إلى يوم الدين، وجعله حجة على جميع العالمين بأن أنشأه كأكثر قومه أُمِّياً، وصرفه في أُمِّيته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الأميين ومن أهل الكتاب، حتى إنه لم يجعل له أدنى عناية بما يتفاخر به قومه من فصاحة اللسان، وبلاغة البيان من شعر، وخطابة، ومفاخرة، ومنافرة؛ إذ كانوا يؤمُّون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي؛ لإظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء لغتهم، واتساع معارفهم، وكثرة الحكمة في شعرهم، فكان من الغريب أن يزهد محمد صلى الله عليه وسلم في مشاركتهم فيه بنفسه، وفي روايته لما عساه يسمعه منه[26].
إن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم تقف خير شاهد على أنه لم يتلقَ علوم السابقين من أصحاب الكتب السماوية، ولم يطالع كتبهم، تلك الكتب التي يثبت التاريخ أنه لم تكن هناك ترجمة عربية للتوراة أو الإنجيل في زمنه صلى الله عليه وسلم، كما أنه لم يتعلم لغة أجنبية أعجمية تسمح له بالفهم عن أعجمي ينقل عنه كتاب يكتبه بالعربية التي عجز أهلها أن يبلغوا شأوها، فكيف لأعجمي أن يتقنها ويفقهها. وهو مع أميته لا يتأتى له مهما بلغ من علم وفهم أن يسبق علوم عصره بمئات السنوات ويسجل هذا في كتاب من تأليفه، ثم يأتي العلم الحديث ليصادق على كل ما فيه مهما تطورت تلك النظريات العلمية فهو غالبها لا محالة، وتنفي الأمية تمامًا تأليفه صلى الله عليه وسلم لكتاب يعلم مسبقًا أن

قومه سيفندون ما فيه لغويًا وبلاغيًا من أوله إلى آخره، وهم يعلمون أنه لم يسبق له الكتابة ولا القراءة.

- تَلَقِي النبي عن القس والراهب:

ـ أولًا: علاقة النبي صلى الله عليه وسلم القس:

أما القس فهو ورقة بن نوفل الذي يحاول أهل الملة النصرانية أن يؤسسوا له دورًا كبيرًا في تأسيس الإسلام، وذلك بلي عنق الآيات الكريمات في كتاب الله تعالى طبقًا لتفسيراتهم التي تخلو من العلمية وتبرز الحقد المسموم والكيد للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيدعون أن غار حراء كان المكان المعد لتدريب الرسول صلى الله عليه وسلم على يد بن نوفل لمدة تزيد على الأربعين عامًا! بما يعني أن ورقة تبنى محمدًا منذ نعومة أظفاره وقام بتربيته وتعليمه وتهيئته للنبوة، ذلك مرده لعلم ورقة الواسع باللغة العبرية، وهو الذي أعد القرآن من الكتب السابقة لعلمه بها وخاصة التوراة والإنجيل، ويرون أن أمية محمد كانت فقط باللغات الأجنبية وهناك من لقنه اسم النبي القادم "أحمد" الوارد بسورة الصف، وأن الذي لقنه هذا من المرتدين عن المسيحية، وهذا هو الاسم الذي بشر به الرسول صلى الله عليه وسلم!

وشواهد التاريخ تؤكد عدم التقاء ورقة بن نوفل بالرسول صلى الله عليه وسلم سوى مرة أو مرتان، والتعليم يحتاج لوقت طويل لم يتح لهما أبدًا. وإذا كان ورقة يعلم أكثر من لغة واستطاع ترجمة الإنجيل من العبرية إلى العربية، لكننا لم نعثر على أثر واضح أو وثيقة صريحة تثبت إحدى ترجماته [27].

كيف يُعقل أن يأتي محمد بالآيات ويقول إنها من عند الله في حين أنها من إملاء ورقة، ويسكت ورقة ولا يكذبه؟ لماذا لم يخبر خديجة أن زوجها كاذب، وأنه هو الذي أملىَ عليه القرآن؟ وهل يمكن أن يظل محمد يتلقى التعليم من ورقة طوال ثلاثة عشر عامًا دون علم خديجة، ودون أن يشعر بذلك أحد من أعداء محمد؟ إن

أعداء محمد كانوا كثيرين، ويهمهم كشف حقيقة علاقته بورقة، فكيف عجزوا عن كشف الحقيقة طوال تلك السنين؟

وبعد الهجرة، هل كان ورقة يملي على محمد الآيات وهو قابع في بيته بمكة؟ ولماذا لم يعلن ورقة أنه هو مخترع القرآن أنه هو مخترع القرآن، وأنه هو الجدير بمنصب النبوة؟
صفوة القول إذن إن ورقة لم يعلِّم محمدًا حرفًا واحدًا من القرآن[28].

كل هذه الأسئلة التي تطرح إجاباتها في عقل المتلقي، تنفي في طياتها تلك الادعاءات الغير علمية في كون اعتكاف محمد صلى الله عليه وسلم في الغار كان لإحياء ذكرى اعتكاف جده أو السير على طريقته وطريقة الحنفاء من بعده، أو أنها كانت فترة يتدرب فيها النبي على يد القس ورقة.

ـ ثانيًا: علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بالراهب:

أمَّا الراهب فهو بحيرى ذلك الذي ذكره يوحنّا الدمشقيّ (676 – 749 م.) في مقالِه "الهَرْطَقَة المِئة" وهي الهرطقة الإسماعيلية أو هرطقة الإسماعيليين ظهور "الإسلام" المكتوب باليونانية وهو من ضمن فصول كتابه "الهرطقات" الذي يُعدّد فيه مئة بدعة نشأت في المسيحيّة، والذي يذكر فيه أن: (محمّدٌ نبيٌّ كذّابٌ قابلَ راهبًا آريوسيًّا فاخترعَ بدعتَه)، وهو الكلام الذي تردد ومازال يرددونه كالببغاوات دون دليلٍ واضح ساطع، ولهذا فقد ذكره المستشرق اليهودي إبراهام جيجر في كتابه "ماذا اقتبس محمد من اليهودية": (إن القرآن مأخوذ باللفظ أو بالمعنى من كتب اليهود)[29].

ولم يتأخر الحاقد برنارد لويس أن يجاهر في جوقة المدعين، فيقول: (أن محمدًا خضع للتأثيرات اليهودية والمسيحية كما يبدو ذلك واضحاً في القرآن)) [30].
[30]رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد عبد الحميد غراب،ص 112، المنتدى الإسلامي، لندن 1411هـ.

وهي الأكذوبة التي عاش جولدتسهير ينفث بحقده في كل كتبه: (تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثرًا عميقًا، والتي رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة.... فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعد هذه التعاليم وحيا إلهيا) [31]. [31]جولدتسهير، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص 12، بترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، القاهرة 1948م.

كما يذكر المستشرق الإنجليزي ر. ف. بودلي في كتابه "الرسول حياة محمد" أن النبي كان يجالس بحيرا الراهب ويتعلم منه طويلًا؛ (فقد ظل الراهب يحادث العربي الصغير، وكأنما يحادث رفيقًا من رفقائه فأخبره بعقيدة عيسى وسفه عبادة الأصنام، وأرهف محمد السمع إلى ما ينطق الرجل به). وفي موضع آخر من الكتاب يقول بودلي: (وكان على محمد أن يتلقى نزرا يسيرا من التعليم المدرس، ولكنه كان يحصل أكثر من أي طالب يمضي سحابة يومه في حجرة الدرس!).

ومن الكتب المتعلقة بهذه الحادثة كتاب "كراديفو" بعنوان: "راهب بحيرا والقرآن" (1898م). وما كتبه "سترشتين" بعنوان: "القرآن: الإنجيل المحمدي" (1918م). وما كتبه: "ريتشارد بيل" بعنوان: "أصل القرآن في بيئته المسيحية" لندن 1926م، وأعيد طبعه عام 1968م.

هذه الحادثة قد رواها من الصحابة أبو موسى الأشعري، ومن التابعين الأجلاء أبو مجلز لاحق بن حميد رحمه الله تعالى، ورد ذلك عنهما بإسنادين صحيحين، وهاك البيان:
أما رواية أبي موسى الأشعري فأخرجها الترمذي في سننه (4/496) وأبو نعيم في "دلائل النبوة" (1/53) والحاكم في " المستدرك " (12 / 615 - 616) وابن عساكر في "تاريخ دمشق " (6/187 - 188 / 1) بأسانيد متعددة عن قراد أبي نوح: أنبأ يونس بن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي صلى الله عليه وسلم في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، قال: فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى

جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدًا ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعامًا فلما أتاهم به، وكان هو في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجد القوم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. الحديث بطوله. وحسنه الترمذي وإسناده جيد وقد صححه الحاكم والجزري وقواه العسقلاني والسيوطي وقد بينت صحته على طريقة أهل الحديث قريبًا في "مجلة المسلمون" العدد الثامن من سنة 1379 (ص 393 – 397) فليرجع إليه من أراد زيادة في التثبت. وأما رواية أبي مجلز فأخرجها ابن سعد في "الطبقات الكبرى" قال (1 / 120): أخبرنا خالد بن خداش: أخبرنا معتمر بن سليمان قال: سمعت أبي يحدث عن أبي مجلز أن عبد المطلب أو أبا طالب ـــ شك خالد ـــ قال: لما مات عبد الله عطف على محمد صلى الله عليه وسلم، قال فكان لا يسافر سفرًا إلا كان معه فيه، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزله فأتاه فيه راهب، فقال: إن فيكم رجلاً صالحًا، فقال: إن فينا من يقري الضيف ويفك الأسير ويفعل المعروف، أو نحواً من هذا، ثم قال: إن فيكم رجلاً صالحًا، ثم قال: أين أبو هذا الغلام؟ قال: ها أنا ذا وليه، أو قيل هذا وليه، قال: احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام، إن اليهود حسد، وإني أخشاهم عليه، قال: ما أنت تقول ذاك ولكن الله يقول، فرده، قال: اللهم إني أستودعك محمدًا، ثم إنه مات. وهذا إسناد مرسل صحيح، فإن أبا مجلز واسمه لاحق بن حميد تابعي، ثقة، جليل، احتج به الشيخان في صحيحيهما، وبقية أصحاب الكتب الستة، وأخذ الحديث عن جماعة من الصحابة منهم: عمران بن حصين، وأم سلمة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم، وأنس، وجندب بن عبد الله، وغيرهم، ومن بينه وبين ابن سعد كلهم عدول ثقات، احتج بهم مسلم في صحيحه [32].

وقد ذكر الحافظ الذهبي هذه القصة في "تاريخ الإسلام تحت عنوان: (سفره مع عمه، إن صح)، ثم قال: "وهو حديث منكر جدّاً؛ وأين كان أبو بكر كان ابن عشر سنين، فإنه أصغر من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بسنتين ونصف؛ وأين كان

بلال في هذا الوقت - فإنّ أبا بكر لم يشتره إلاّ بعد المبعث، ولم يكن ولد بعد؛ وأيضًا، فإذا كان عليه غمامة تظلّه كيف يتصوّر أن يميل في‌ء الشجرة - لأنّ ظلّ الغمامة يعدم في‌ء الشجرة التي نزل تحتها، ولم نر النّبيّ، صلى الله عليه وسلم، ذكر أبا طالب قطّ بقول الرّاهب، ولا تذاكرته قريش، ولا حكته أولئك الأشياخ، مع توفّر هممهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك، فلو وقع لاشتهر بينهم أيّما اشتهار، ولبقي عنده، صلى الله عليه وسلم، حسّ من النّبوّة؛ ولما أنكر مجيء الوحي إليه، أوّلاً بغار حراء وأتى خديجة خائفاً على عقله". وتعقّب الحاكم في تصحيحه إياه بقوله: "أظنه موضوعاً".

وعلى اعتبار صحة القصة، فإنه لا يوجد فيها أدنى إشارة إلى تعلّم النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الراهب أي شيء، بل لو كان أخذ منه التوحيد كما يزعم أعداء الدين لوجب عليهم أن ينقضوا عقائدهم الباطلة التي تخالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

وهل يُعقل أن طفلاً لم يتجاوز العشر سنوات أن يتعلم من خلال دقائق أو ساعات معدودة من ذلك الراهب ما جاء به من هذا الدّين العظيم الذي استمر يدعو إليه ثلاثة وعشرين سنة.
وقد أجاب الإمام الزرقاني ـــ رحمه الله ـــ في كتابه "مناهل العرفان" عن الشبه التي أُثيرت حول هذه القصة من خلال إجابته عن الشبه الواردة حول إعجاز القرآن، جواباً شافياً، فأجاد وأفاد، فقال: "الشبهة الأولى ودفعها: يقولون إن محمداً صلى الله عليه وسلم لقي بحيرا الراهب فأخذ عنه وتعلم منه وما تلك المعارف التي في القرآن إلا ثمرة هذا الأخذ وذاك التعلم، وندفع هذا أولاً: بأنها دعوى مجردة من الدليل خالية من التحديد والتعيين، ومثل هذه الدعاوى لا تقبل ما دامت غير مدللة، وإلا فليخبرونا ما الذي سمعه محمد صلى الله عليه وسلم من بحيرا الراهب ومتى كان ذلك وأين كان.[33].

يقول بعض المستشرقين المنصفين مثل جون ب. نوس، وديفيد س. نوس في كتابهما الشهير" أديان الرجل": (إن من الواجب إدراج الحديث الشريف الذي يقول إن محمداً صلى الله عـليه وسلم تعلم اليهوديـــة والنصرانية خلال رحلاته مع

القافلة التجارية المتجهة للشام، وكانـت الأولى بصحبة عمه أبي طالب عندما كان في سن الثانية عشرة، والثانية عندما كان عمره 25 عـــاماً كموظف لخديجة التي تزوجها فيما بعد على أنه حديث غير مقبول). كما يقول توماس كارليل: (حديث الراهب النسطوري مبالغ فيه بشكل كبير).

إن الأدلة أكثر من أن تحصى بكذب ما يحاولون إثباته عبر وسائل كثيرة آخرها ما فعله أحد القساوسة المشلوحين وادّعى أن عنده مخطوطة تحوي مذكرات للراهب بحيرا، والمضحك أنه يدعي أنها من ألف وأربعمائة عام وهي مخطوطات مزورة مكتوبة بجهالة وركاكة للفظًا ومعنى، وبقلم حبر جاف، وعلى ورق أصفر مسطر وغارقة في الأخطاء النحوية كثيرة، ويظنونها لفرط جهلهم أنها ستهدم الإسلام، ويطالبون الأزهر أن يرد عليهم، ولكن الأزهر لا يقيم للكلاب العاوية وزنًا.

مهمتهم الأساسية تفجير لحظة حراء، تفجير أساس الدين، بالتشكيك في مصدريته، ولم يتوانوا ولن يتوانوا، ولكن كل رؤوسهم القديمة الفاسدة الحاقدة، ومهما أينعوا من رؤوس جديدة ستتحطم على أول عتبة من عتبات غار حراء، وعند أول حجر وأول صخرة شهدت اللقاء السماوي العلوي الذي لم تشهده الدنيا من قبل ولن تشهده من بعد تأكيدًا على خاتمية الكتب السماوية بالقرآن الكريم، وخاتمية الديانات السماوية بدين الإسلام، وخاتمية النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وانقطاع وحي السماء عن الأرض بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وهو آخر من تلقى وحي السماء.

هوامش الفصل الثاني:

[1] شبكة الفتاوى الشرعية للمفتي الدكتور أحمد الحجي الكردي.
[2] جلال الدين السيوطي، "الخصائص الكبرى" (1/197).
[3] رواه البخاري (4641) ومسلم (161).
[4] التكوير: (23).
[5] النجم: (5 ـــ 10).
[6]الحافظ ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم" (8/339) .
[7] النجم: (13-14).
[8] رواه البخاري (4855).
[9] الإمام مسلم (177).
[10] دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسن البيهقي،ج2، ط1، ص(151ـــ152)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
[11] آل عمران: (69).
[12] انظر: المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم، للدكتور سعد الدين صالح، ص135، وإعجاز القرآن للباقلاني ص35.
[13] انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفي للقاضي عياض، ص249.
[14] العنكبوت: (48).
[15] سورة الجمعة: (2).
[16] علي شواخ إسحاق، ماذا حول أمية الرسول صلى الله عليه وسلم، ص90 ط1 دار السلام للنشر، بيروت 1978.
[17] الفخر الرازي، (التفسير الكبير 7/273).
[18] موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص150، دار المعارف، القاهرة، 1982.
[19] العلامة بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير(13/209).
[20] الدكتور محمد رواس قلعه جي، دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ص48.
[21] محمد الخضر حسين، مجلة الهداية الإسلامية، الجزء التاسع من المجلد السابع ربيع الأول 1354هـ.

[22]محمد متولي الشعراوي، مجموع الفتاوي جـ 5 ص 80 ـ 81.
[23] ول ديورانت، قصة الحضارة، مجلد 13،ص21ـــ22.
[24] هنري دي فاستري، الإسلام: خواطر وسوانح، ص 16.
[25]صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم، تحقيق عبد الجبار الزكار، المجلد الأول، ص 176، دار الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978.
[26] محمد رشيد رضا، القول الحق في استعداد محمد صلى الله عليه وسلم للنبوة والوحي، الوحي المحمدي، ص 129.
[27]غسان عزيز حسين، ورقة بن نوفل مبشر الرسول، ص29، ط1،منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، بيروت 2002.
[28] دكتور أحمد عبد الرحمن، "في رحاب السيرة العطرة، افتراءات المضلين، في ضوء الحق المبين"، ص123ـــ124، مكتبة وهبة، القاهرة، 2010.
[29] المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، محمد صالح البنداق، ص 108. دار الآفاق الجديدة، ط2، بيروت 1403هـ ـ 1983م.
[30]رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد عبد الحميد غراب،ص 112، المنتدى الإسلامي، لندن 1411هـ.
[31]جولدتسهير، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص 12، بترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، القاهرة 1948م.
[32] محمد ناصر الدين الألباني، حادثة الراهب المسمى " بحيرا " حقيقة لا خرافة، موقع الألباني.
[33] دكتور خالد الحايك، قصّةُ بَحيرا الرَّاهب، حقيقةٌ أم خَيالٌ موقع الدكتور الحايك.

الفصل الثالث

قـــــراءات جديدة في "اقــرأ" .

اعتاد أغلب المسلمين استقبال أحداث السيرة النبوية الشريفة بطريقة كلاسيكية تقليدية، دون فرض أو استنهاض آليات جديدة للتعامل مع مفرداتها الكثيرة والمنيرة والمثيرة التي من فرط تكاسلهم وتقاعسهم عن البحث في أضابيرها، واستكناه أسرارها، تصوروا أنها لن تطرح جديدًا، وللأسف لم يكن هذا على مستوى مستهلك قراءة السيرة بالقراءة غير المنتظمة أحيانًا لها، أو بالاستماع لمن دأبوا على حفظها من بعض الخطباء والمشايخ حين يلقونها في أوان المناسبات التكرارية بطريقة ميكانيكية يعرف السامع قبل الشيخ ماذا هو قائل قبل أن يقول، مما رسَّخ في بعض الصدور أن السيرة النبوية الفخمة الضخمة قد فقدت جدّتها وحرارتها وبالتالي فلم يعد فيها جديدًا يقال، غير أن هناك من نهض بالبحث والتقصي واستخراج معانى ما كانت تخطر لنا قط على بال، فاستخرجوا اللآلئ والدرر من مكامنها التي لم تكن خافية علينا، ولكننا لم نُعمِل التفكير التحليلي فيها، ولم نطبق عليها أدوات العلم الصحيح. وهذا ما يثبت أن سيرة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم كنز مازال به الكثير والكثير من الدرر المخبوءة تحتاج لصيادٍ ماهر لالتقاطها، غير أنها لا تضن بأسرارها على غير الماهر بها وهذا سر من أسرار عظمتها الباهرة.

فعندما نزلت (اقرأ باسم ربك) في حراء كانت شمسًا جديدة تطل على الكون، جامعة في نسيج واحد بين قراءة الوحي والعقل والكون، فتحقق لأول مرة في تاريخ الحضارات رسم خريطة تتناغم فيها الربانية والإنسانية على امتداد لإشعاعات الوعى الإنساني، هذا ما قاله أستاذنا دكتور عبد الحليم عويس وفرحت جدًا بهذه المقولة لأنها كسرت حاجز التقليدية والخوف في التعامل مع أول أحداث الإسلام (اقرأ)، الكلمة التي تناولتها أقلام متدفقة بدماء حارة ثورية وهّاجة تعاطت تلك الكلمة بجدة وطرافة ومدلولات لا تخلو من عمق، وزوايا مختلفة للرؤية، سأبسطها أمامكم لنتفق أو نختلف حولها، ولكنها حقًا تستحق.

أفما كان أولى أن يكون أول ما نزل هو: اعدل؟ لقد كان في قريش من عتاة وصناديد الملأ المكي - و هم طاغوتٌ يصد الناس عن دين الله ويحاربه - ما يحوج أن يكون أول ما نزل هو: جاهد. ولقد كانت القبيلة العربية مشتتةً ممزقة متصارعة، أفما كان الأولى أن يكون أول ما نزل هو: وحّد؟ ولكنه لم تنزل آمن هي الأولى ولا نزلت وحِّد هي الأولى ولا نزلت جاهد هي الأولى ولا نزلت اعبد هي الأولى ولا نزلت انصر ولا أصلح ولا أي شيء من هذه الأوامر، وإنما نزلت "اقرأ"، وليس لذلك في رأيي المتواضع إلا تفسير واحد يتمثل في أنه لابد من تأسيس كل هذه الأفعال على هذا الفعل، لابد أن تتأسس كل هذه الأفعال على فعل المعرفة السليمة ذلك أن الإيمان بلا اقرأ سيصبح خرافةً، وأن الدعوة بلا اقرأ ستصبح تنفيراً، وأن العبادة بلا اقرأ ستصبح بدعةً، وأن الجهاد بلا اقرأ سيصبح إرهابا.

وهكذا كان لابد من إنارة العقل بالعلم ب "إقرأ"، وتنزلُ اقرأ هذه على رجلٍ أمّي في مجتمع أمي يعتز بثقافته الشفوية، حتى إن شاعرهم في "المقدمة الطللية" إذا أراد أن يصف اندراس أطلال حبيبته شبهها بالكتابة، كما قال طرفة بن العبد "كما خط على الرسم راقم"، لأن العربي كان إذا أخذ الرق المسطور فإنه لا يرى فيه إلا خيوطًا متشابكة تذكره بأطلال حبيبته إذا درست بعد مرور العاصفة على المكان الذي رحلت منه هذه القبيلة.

وأكثر من ذلك نرى أن التأسيس النسقي لم يكن فَلْتَةً في بداية الوحي، وإنما استمر في نَسَغِ ونسيج القرآن من أوله إلى آخره . ويكفي أن نقول أن لفظة العلم ومشتقاتها وردت 750 مرة في القرآن الكريم، وهذا كلام الله المبني على بلاغة الإيجاز وإعجاز الإيجاز، ومن مقتضيات الإيجاز عدم التكرار فلا يكرر في مساق الإيجاز إلا ما كان ضرورياً أن يُكرر لأهميته. ثم إن هذا كلام الله وكلام الله فوق أن يُستخفّ به، والعاقل إن حدّثك فإنه لا يحتاج أن يعيد كلامه نظراً لثقل كلامه في نفسك ولثقل اعتباره في وعيك وقلبك، فكيف إذا كان كلام الله؟؟ إنه ليكفي للأمر الواحد أن يأتي مرةً واحدةً في القرآن الكريم حتى يحتل في نفوسنا ووعينا المكان الذي يليق به لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكيف إذا تكرر هذا 750 مرة[1].

دار ناشري للنشر الإلكتروني

إن العرب في جاهليتهم لم يكونوا أمة ذات بال وشأن، وكانوا قوة كامنة موجودة في حالة (طاقة كامنة) في شبه الجزيرة العربية، التي انزوت في الجنوب بعيدة عن تأثيرات الحضارات السابقة كاليونانية والفارسية والمصرية والهندية والصينية، بمعنى آخر كان العرب أمة عذراء مازالت تختزن (طاقتها الحيوية) التي تنتظر الشعلة المفجرة لتحررها وتخرجها إلى عالم الموجودات بالفعل. الروح العلمية إذن، لم تتولد إلا مع أول سورة نزلت في غار حراء المبتدئة بقوله جل شأنه: (أقرأ باسم ربك الذي خلق) العلق. إذ تعتبر سورة (العلق) بمثابة نقطة الانعطاف التي أحدثت تغيرا جذريا في المسيرة التاريخية لأمة (أمّية) كانت في إطار جغرافي ـ زمني ـ وكأنها لا علاقة لها بما يدور حولها في العالم. ولكن هذا التوجيه إلى القراءة القائمة على أساس التوحيد، ليُعد الدعامة الإسنادية الرئيسة لظهور حضارة إنسانية جديدة في خصائصها وفي غايتها، واللغة التي نزل بها القرآن الكريم هي (الوعاء) الذي حددت فيه صيغة العقل العربي المسلم، إذ العربية هي اللغة الجديدة والتي من خلالها ستحدد آليات الفكر الحضاري الجديد [2].

سياحة العمري في اقرأ:

يعيش الدكتور أحمد خيري العمري من خلال كتابه "الوصلة القرآنية" [3] في قراءة متأملة في "اقرأ"، يستخرج أسرارها، ويتابع أنوارها، ولا يقصد من خلال هذا التعرف على جمالياتها وإنما أوامرها وإرشاداتها ومقاصدها الجلية والخفية، فهو يرى أن "اقرأ" كلمة السر الذي لم يعد سرًا بل صار جهرًا في العقيدة الجديدة، دونما إبهار أو أساطير أو معجزات تشبه القصص الخرافية، وبينما تنام شعوب على خيالات كلمة السر التي تفتح مغارات الكنوز، فإن كلمة السر هذه قيلت في الغار ثلاث مرات لرجل أمي، ففتحت أبواب العلم وافاق المعرفة لأمته، وجنيت كنوز وكنوز للإنسانية عبر القرون التي سادت فيها حضارة "اقرأ". لقد كان الإسلام لغة جديدة، وروحاً جديدة، ومضموناً جديداً بصياغة جديدة للعلاقات الإنسانية مع بعضها ومع الله، وكانت المفردة الأولى التي تكونت في هذه اللغة الجديدة – بالأبجدية الجديدة – هي كلمة "اقرأ".

فالمتأمل في اللفظ المجرد "اقرأ" في اللغة العربية يجد في ثراء المعاني المرتبطة بها زوايا جديدة للنظر نحو الأمر الأول بل الفرض الأول الذي نزل في الغار؛ فمشتقات

قرأ ترد بمعاني: الحمل والجمع (من المجموع) والفقه، والمدة الزمنية، وكل واحدة من هذه المعاني تمنح "اقرأ" بعداً جديداً يوضح رؤيتنا لما حدث في الغار يومها. فاقرأ هي دعوة لقراءة الكون بأجمعه، الخليقة بأجمعها، والتاريخ، والنفس البشرية.

إنها دعوة استقراء واستنباط وتبحر عميق في العلاقة الحتمية بين الأسباب والمسببات وهي ذات الدعوة التي تمخضت فيما بعد بما يسمى اليوم بالمنهج التجريبي في العلوم – والتي كانت من أهم ركائز الانطلاقة الإسلامية في الحركة العلمية. والتي تعتمد على الملاحظة والاستنتاج لكنها بدأت حقا في الواقع اليومي المعاش، من (اقرأ) التي بدأت بملاحظة الظواهر البسيطة المحيطة بالفرد البسيط ولا تنتهي حتى بالكون العميق، إنها فتح لأبواب العقل نحو الجهات الأربع: شمال وجنوب، شرق وغرب. تتخطى الأبعاد الثلاثة بل وحتى البعد الرابع: الزمن.

ولا يدري أحد على وجه التحديد في أي مرحلة من مراحل العلم سنكون اليوم لو لم تقال تلك الكلمة – السر، لكن الذي حدث أن تلك الكلمة التي قيلت في الغار همساً، صارت شعاراً لحضارة، ومنهاجاً لحياة، وأول ما أنزل من كتاب سيتخذ من الفعل ذاته "اقرأ" اسماً يتلى ويتعبد به في صور وعقول اتباعه.

وكلمة "اقرأ" لم تكن أول كلمة أنزلت من الوحي فحسب، بل كانت أول فعل أمر أصدره الله إلي رسوله الأخير، والى أمته من بعده، بطبيعة الحال .أي إنها كانت ببساطة شديدة . ودونما تشنجات فقهية – أول فرضٍ فُرِضَ على محمد صلى الله عليه وسلم.

القراءة: أول فرض في الإسلام، قبل الصلاة والصوم والزكاة والحج، وبعبارة أخرى: كانت كلمة "اقرأ" الشاملة هي المدخل الذي فُرِضَتْ عبره كل الفرائض الأخرى ..."اقرأ" هي الطور الإنساني الأخير الذي به يكتمل تطور الإنسان – ويتميز عن بقية المخلوقات، هي الحلقة المفقودة التي طال البحث عنها – في تطور الإنسان – وهي موجودة لا في الحفريات وعظام الجماجم القديمة وبحوث الانثروبولوجيا.

إنها موجودة في وعيه، في عقله، في قراره بان يكون إنساناً، والذي لا بد وان يمر بـ"اقرأ".

"اقرأ" هي تلك الطفرة النوعية التي يختار الإنسان ان يقفزها ليتخطى الحواجز والعقبات التي تعوقه عن إنسانيته . عن وعي المعاني العميقة الكامنة في كل ذرة من ذرات الكون وكل حركة من حركات التاريخ، عن ان يكون كما اراده الله ان يكون: خليفة على الأرض.
"اقرأ" تمثلت في منجزات حضارية مختلفة ومتنوعة – كانت في حقيقتها جوهر الحضارة التي ارتكزت على همسة الغار فمرة تمثلت في فقه متجدد – قائد- يتجدد مع تطورات المجتمع والظروف . ومرة تمثلت في عدالة اجتماعية شملت كل مواطنيها في البلدان المفتوحة أيضاً، وتمثلت في صراع متأجج بين قوى متناحرة، ومتنافرة: الأولى التزمت بـ "اقرأ" المتجددة الفهم للمقاصد والثانية حاولت الزام قراءة واحدة – جاهلية غالباً- على الواقع والمجتمع ...ورغم اختلاف الشعارات، وتبدلها بين الحين والاخر ... فإن اقرأ، كانت دومًا هناك في العمق، خلف الكواليس وخلف الستار.

وعندما اختفت "اقرأ"، صارت مجرد كلمة دون المعاني والافاق والمقاصد، صار الصراع يمثل – رؤى جامدة ومتوارثة: دون ذلك الفهم، دون ذلك التجدد، دون تلك المقاصد أي باختصار: دون ذلك الاسلام – الحقيقي.

في البدء كانت اقرأ. – لا. ليس في البدء فقط. إنها في البداية والنهاية وفيما بينهما إنها الأمر الأول – الفرض الأول غير القابل للاستئناف او النسخ. والذي لا يكسب فعاليته وحيويته الا باستمراره على كل الأوامر التالية – بل كل الأمور التالية – والتي لا تكتسب – هي الأخرى – فعاليتها الا بالتعامل مع الأمر الأول: اقرأ. لذلك فان اقرأ ليست مجرد بداية تاريخية لنزول الوحي. إنها البداية والنهاية وما بينهما. إنها جوهر الحكاية بأكملها، الحكاية التي لم تنته بعد!

إن البحث في تاريخ علم من العلوم، لدى شعب من الشعوب، أو استقراء مراحل تطور ذلك العلم عبر حضارة ما، لهو في الحقيقة، إعادة تركيب البناء المنطقي،

وصياغة الجهاز المفاهيمي لإنسان تلك الحضارة من خلال الوقوف على (العلة) الأولى التي وجهت المسار وحددت الغاية.

لقد كان الإسلام لغة جديدة، وروحاً جديدة، ومضموناً جديداً بصياغة جديدة للعلاقات الإنسانية مع بعضها ومع الله، وكانت المفردة الأولى التي تكونت في هذه اللغة الجديدة – بالأبجدية الجديدة – هي كلمة "اقرأ. لكن الرجل الذي أنزلت عليه "اقرأ" كان أمياً، وقد ظل علماؤنا لفترة طويلة يفسرون ذلك أنه من أدلة النبوة وأوجه الإعجاز – في مواجهة المشككين بصدق نبوته صلى الله عليه وسلم.

والانطلاق من أرضية التصديق بالنبوة يمنح ذلك التناقض الظاهري بين اقرأ وبين أمية النبي أفقا واسعًا للتأمل وفضاءً رحباً للتعليق، انه يحرر القراءة من أسوارها الأبجدية وحدودها اللغوية – على سعتها – ليطلقها في عالم المعاني شديدة الثراء والخصوبة، انه يحرر القراءة من المفاهيم الجامدة للتلقين الغبي الى قراءة ما هو غير مكتوب في بطون الكتب، هو دعوة لقراءة كتاب الكون المفتوح، المتمثل في كل ذرة من ذرات الخليقة، والمتجسد في كل حبة رمل ونسمة هواء وثمرة شجر، إنه دعوة للقراءة في كتاب النفس الإنسانية: في كل نزعة خير ونزوة شر، وعاطفة حب تهف بها النفس نحو الجمال والسمو أو تسقط بها نحو الرذيلة أو الانحدار.

إذا كانت أمريكا قد ولدت مع ولادة الكلمة المطبوعة، وحملت بصمة ذلك معها، فإن أمتنا (أقصد الأمة التي كنا ذات يوم ننتمي لها) قد ولدت تحديدا مع الكلمة المقروءة، ولدت عبر الكلمة المقروءة وليس بالتزامن معها، لا يوجد أمة في التاريخ تماهت مع كتاب ما كما حدث مع أمتنا، لا يوجد دين في تاريخ الأديان كانت كلمته الأولى هي "اقرأ"، لا يوجد تجربة إنسانية حررت الأسرى لقاء تعليمهم القراءة والكتابة، (هل من معنى أعمق من هذا لفكّ الرقبة؟...أن تفكّ رأسك وعقلك من ما يمنعه من الحركة؟ أن يكون فكّ الحرف مقدمة لفتح العالم).
اقرأ –الكلمة الأولى– وهي أيضا جذر للفظ "القرآن " – الكتاب الخاتم، كانت بمثابة فكّ لرقبة الإنسان الجديد قيد التكوين من كل ما يمكن أن يقيّد هذه الرقبة – وما فوق هذه الرقبة– لصالح مؤسسات الاستغلال والملأ الحاكم التي يمكن لها أن

تقنع هذه الرقبة بأن حريتها هي في عبوديتها لأهوائها الشخصية في سبيل أن تزيد أرباحها وتمتلئ جيوبها.

اقرأ التي هبطت في الغار كانت قراءة جديدة للعالم، رؤية جديدة للعالم و لكل ما فيه عبر أبجدية جديدة، أبجدية تمنحك الحصانة والمناعة، فلا تخاف من أفكار جديدة أو أيدولوجيات غازية، لأنك لن تقرأها إلا من خلال "اقرأ" القرآنية، لن تقرأها إلا لتجعل تفاعلك مع هذا الجديد يزيدك قوة وتأخذ ما يفيدك وتلفظ ما يضرك[4].
"اقرأ" التي نزلت في الغار، كانت عدسة جديدة وضعها الوحي الخاتم على عين الأمة الجديدة قيد التكوين، صار القرآن هو العين الذي ترى هذه الأمة من خلالها كل شيء، تقيّم من خلالها كل شيء، وبعدها يصبح كل شيء مختلفا.

اقرأ ليس "بَلِغ":

يرى الدكتور إبراهيم عباس نَتُّو أن لفظةِ (اقرأ) في مفهومه، وبناءً على تتبعه الشخصي وإلمامه بشيء من إحدى اللغات السامية، يقوده إلى أن المعنى الأقرب للكلمة لا علاقة له بالقراءة، في سياق القراءة والكتابة، بل هناك معنى آخر، إضافة إلى عدة قرائن ومؤشرات موضوعية وموضعية صاحبت منطوق العبارة المأثورة (اقرأ بسم ربك)، فإن كلمة (اقرأ) هنا تأتي لتعني: اُدْعُ، أيْ بلِّغ، أصدع/ أعلن، أنشُرْ، وليس بمعنى (اقرأ)، بما يتصل بالقراءة والكتابة وفك الحرف. ولقد كان هذا هو المعنى الذي اعتمده المترجم الأشهر في العالم عبدالله يوسف علي (ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنكليزية) وهي الترجمة التي تبنتها منظمة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، من القرن الماضي، وتوزع في أنحاء العالم. يستعمل هذا المترجم العريق لفظة (أعلن) proclaim كاللفظة الأولى والمقدمة على غيرها من المعاني في ترجمته وتفسيره هنا (ص1672). وعلى هذا يتم في رأيي اتساق الجناح الآخر في المقولة المأثورة: بأن سؤال ومقولة الرسول (صلى الله عليه وسلم) (ما أنا بقارئ) كانت في صيغة وسياق السؤال والاستفسار، وليست في صيغة (الإنكار) و(النفي). فالمقولة: (ما أنا بقارئ) لا تعني: لست بقارئ، بل تأتي كسؤال واستفهام. فلفظة (ما) هنا لم تأتِ في معنى الإنكار والنفي (أنا لست بقارئ، أنا

لا أقرأ)، بل جاءت لفظة (ما) بمعنى الاستفهام والاستفسار، كقولك: (ما أنا بقارئ؟) بمعنى: ما المطلوب مني قراءته؟؛ ماذا أنا بقارئ؟ ما المطلوب مني (تبليغه؟) و(ما المطلوب مني الدعوة إليه أو به)؟ فيكون الجواب متناسقاً: اقرأ أي بلِّغ، وأصدع/ أعلن/ أشهر، وانشر، وادعُ، بسم ربك، ونشير إلى القول المألوف الذي يبين استعمال كلمة (اقرأ) بمعنى (بلِّغْ أوصِلْ)، وذلك باستخدام العبارة التي تتداولها كتبُ القصص والسِيَر، وأيضاً كتب التلاميذ، حيثُ العبارة المشهورة: (يا غلام، اذهب إلى فلان، وأقرئهُ السلام)، أي بَلِّغهُ السلام،)، وكذلك جاء في الأثر أنه (صلى الله عليه وسلم) دخل على خديجة (رضي الله عنها) وهي على فراش الموت، فقال لها: (يا خديجة، إذا لقيتِ ضرائركِ فأقرئيهن مني السلام). فقالت: (يا رسول الله، وهل تزوّجت قبلي؟) قال: (لا، لكن زوَّجَني الله مريمَ بنتَ عمران، وآسية امرأة فرعون، وكلثمَ أختَ موسى (وهي أيضا أخت هارون)). فمقولة (ما أنا بقارئ) هنا ليس لها علاقة بالقراءة ولا بالكتابة، بل هي تتعلق بتبليغ الدعوة، الرسالة.

فإن سأل سائل: وماذا عن المفهوم المتداول والمصاحب منذ فترة طويلة لعبارة (ما أنا بقارئ)، مما قد ينم عن نفي القدرة على الكتابة والقراءة، فيكون جوابي ساعتها أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما كانت (الأمية) هاجسه ولا كان ذلك شاغله خلال تلك المحادثة الحاسمة الشهيرة؛ فما كانت الأمية أو الثقافة، ولا مستوى اللغة والكتابة والقراءة شغله الشاغل في تلك اللحظة، بل كان الشاغل الحقيقي هو ما مَرّت عليه ومنذ فترة من حادثات استغراقية ومعاناتية وتجاذبية، تتصل بالرسالة وإعلان الدعوة وإشهارها، أو لا سمح الله التخلي عنها، لولا دعم ومؤازرة السيدة خديجة (رضي الله عنها) وعمها رجل الدين (ورقة بن نوفل)، فلم يكن الموضوع هنا يتعرض لمدى الاستعدادات اللغوية القرائية والكتابية[5].

ويرد الدكتور عبد العزيز الحربي ضمنًا على الدكتور إبراهيم عباس نَتُّو، ويرد صراحة على دعوى المفكر الليبي الصادق النيهوم الذي يرى أن الأجيال تواطأت على فهم معنى (اقرأ) فهما خاطئا وأن المراد بـ(اقرأ) بلِّغ وناد، كما تقول: فلان يقرئك السلام، أي: يبلغك،

يقول الدكتور الحربي: (وأنا أرد عليه وأبين خطأ النَّيهوم ببراهين ثمانية: أحدها: أنه دعوى لا دليل عليها وكم ممن يدعي دعاوى لا برهان عليها إلا إعجاب صاحبها

دار ناشري للنشر الإلكتروني

بعلمه، وفهمه وثقته بعقله. الثاني: أن كلمة (اقرأ) في لغة العرب لا معنى لها إلا فعل القراءة، وأصل معناها الجمع. الثالث: خلط (النيهوم) بين (اقرأ) الثلاثي وبين (أقرئ) الرباعي، والفرق بينهما ظاهر، فالأول من القراءة، والثاني من الإقراء، ولم يقل الله: أقرئ، بل قال: اقرأ، والفرق بينهما كالفرق بين اسمع وأَسْمِع، وأمَّا قولهم: فلان يقرأ عليك السلام، أي: يُبلّغك فهو بلاغ بالقراءة. الرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه هذا اللفظ وقال له المَلَكُ: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، ومعناه على الصحيح: لا أعرف القراءة، ولو أريد بالقراءة البلاغ لما صح هذا النفي في أذهاننا؛ لأنه لو قال له: بلِّغ، فرد عليه نبينا صلى الله عليه وسلم ما أنا بمبلغ لكان عنادا، والنبي لا يعاند، وكان في تلك اللحظة نبيا. الخامس: لو كان المراد بالبلاغ لقال: اقرأ اسمَ ربك، لا: باسم ربك. السادس: القراءة في الآيات قرنت بالقلم، والقلم آلة الكتابة، وبين القراءة والكتابة تلازم، وإسقاط هذه الدلالة التي هي دلالة اقتران غفلة أو عناد. السابع: كيف قفز ذهن (النيهوم) إلى هذا المعنى الأعور في لفظ تكلم به كل عربي وفهمه كل عالم، وفيهم الصحابة والأتباع، وفيهم عقول تزن الأرض، ولم يفهم أحد منهم ما فهمه؟ الثامن: كل ما ورد في القرآن من هذا اللفظ بجميع صيغه (قرأ، ويقرأ، وقرآن) لا يصح حمل شيء منها على المعنى المزعوم[6].

إن الهدف هو العلم ولكن متوقف على القراءة، فهي رحم العلك التي بها بنمو ويتطور، وإن العلم المحفوظ المعمم هو الذي يولد العلوم الجديدة، وإن العلم يزداد بمقدار ما يتسنمه من هرم واسع مرتفع من العلم المحفوظ المعمم. ولهذا كان أول ما نزل في آخر رسالة من السماء كلمة "اقرأ" قبل أي كلمة أخرى في العقيدة أو الإيمان أو العبادة، ن النص يدل على الأمر بالقراءة، ويعقب الأمر بأن الرب أكرم، فصار هنا اجتماع بين القراءة وكرم الرب، أي أن القراءة وكرم الرب اقترنا في مكان واحد. وحين ننظر إلى العالم جغرافياً - أي مكانيًا- سنرى هذا الاقتران متلازمًا، أي أن الذين ينالون كرم الرب وغناه هم القراء أو أكثر الناس قراءة في العالم.

اقرأ وربك الأكرم: المسلمون الذين كلما كتب كاتب في الأرض عن تاريخهم لا يقضي عجباً من سرعة ما ملكوا العالم المعاصر لهم، انطلقوا من الكلمة (اقرأ) إنهم في عصرهم كانوا أقرأ الناس وأشدهم اتصالاً بالقراءة والكتاب والعلم الذي يطلبونه

في كل مكان ومن كل مصدر، لقد نالوا كرم الرب وكرامته من سعة في الدنيا ومكانة في العالم[7].

قال تعالى: ".اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم"
ومع أن العلم غاية القراءة، إلا أن الله عز وجل لم يبدأ القرآن بكلمة: "تعلم" .ولكن حدد: اقرأ.
لا شك أنه توجد وسائل كثيرة للتعلم مثل السماع والرؤية والخبرة والتجربة، لكن تبقى الوسيلة الأعظم في التعلم هي "القراءة"، وكأن الله عز وجل يعلمنا أنه مهما تعددت وسائل التعليم فلا بد لنا من "القراءة". والله عز وجل يحدد لنا في هذه الآيات الخمس ضابطين هامين للقراءة:
الأول: قال تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق"، فلابد أن تكون القراءة بسم الله، ولا يجوز أن نقرأ ما يغضب الله .أو ما نهى الله عز وجل عن قراءته، إنما القراءة لله عز وجل، القراءة على منهج الله عز وجل، القراءة لنفع الأرض والبشر، ولخير الدنيا والآخرة، أما القراءة التافهة أو المنحرفة أو الضالة أو المضلة فهذه ليست القراءة التي أمر الله عز وجل في قوله: "اقرأ باسم ربك الذي خلق، " هذا ضابط هام،
الضابط الآخر: هو ألا تخرجك القراءة ولا العلم عن تواضعك، فلا تتكبر بالعلم الذي علمت .بل تذكَّر على الدوام أن الله عز وجل هو الذي من عليك به، "اقرأ وربك الأكرم .الذي علم بالقلم" هو الذي، "علم الإنسان ما لم يعلم"، هذا المعنى لا يجب أن يغيب أبداً عن ذهن القارئ أو المتعلم، مهما وصل إلى أعلى درجات العلم في زمانه، فليعلم أن الله عز وجل هو الذي علمه[8].

من حوار بعثته الشاعرة الإماراتية أسماء الفهد لأحد الدكاترة المهتمين بالقراءة، تقول في مقالٍ لها "حوار مع دكتور": (نحن اليوم نذكر أن أول كلمة جاء بها جبريل لنبينا محمد هي اقرأ ونظن أن القراءة هي الدافع الأول للمعرفة لكنا غفلنا أن الرسول لبث في الغار سنين يتفكر ويتساءل وجاء الجواب ليقول له يا محمد جميع ما يقلقك ستجده في القراءة فقرأ كتاب ربك ففيه كل ما تبحث عنه. هل تساءلت يا دكتور لماذا هنالك كتب مقدسة لكل دين . كتاب محسوس. لأن الله جل في علاه يدرك بعلمه حاجة الإنسان للمعرفة والتساؤل والتفكر فجعل ما يروي

حاجتهم للمعرفة في كتبهم المقدسة شيء محسوس يمسكون به ويبحثون من خلاله لتطمئن قلوبهم وتتشبع عقولهم بالمعرفة).

يقول الدكتور عدنان إبراهيم في إحدى خطبه واصفًا لحظة بداية الإسلام مع اقرأ: (إن الطفرة، ولا نقول التغيير ولا التطور، التي أحدثها الإسلام العظيم في هذه الأمة التي كانت أمة على هامش التاريخ وهامش الأمم وهامش المجتمعات، أمة مسكينة فقيرة مضحوك عليها، هذه الطفرة من أين بدأت؟ لابد أن نقرأ البيان والإعلان الأول ويسمونه المانيفستو، البيان الأول لهذا الدين، وقد قلنا غير مرة إن هذه لحظة مهمة جدًا ونادرة جدا، أن ولادة أمة ولادة حضارة سجلت وكثفت وركزت بطريقة قطعية واضحة، والكل مجمع على أن هذا البيان هو أول بيان، وأن هذه الكلمة هي أول كلمة، ولا شك في هذا، فهذا أول ما أنزل وجادت به على السماء على الأرض، الأمم الأخرى ومن المستحيل تقريبًا، واسأل الرومان، الفرس، الهنود لا يمكن أن يقولوا لك: نعم، أستطيع أن أضع أصبعي تحديدًا على البداية الأولى مكثفة مركزة في ولادة شعب، أو ولادة فكرة، أو انبثاق عقيدة أو تصور وجودي، مستحيل صعب جدًا وغير موجود في الحضارات، لكنه موجود في الإسلام، إن الانبثاقة الأولى ولحظة التولد كانت "اقرأ" فهذا أول ما أنزل الله تبارك وتعالى).

القراءة الفعالة تؤدي لتجديد الفكر، وتجديد الفكر يؤدي لتجديد الفعل، وتجديد الفعل يؤدي لتجديد الحياة بأكملها. الحياة في حالة تغير وتجدد مستمر، والأمة التي لا تتغير ولا تتجدد، أمة تفنى. لذلك كانت القراءة أول أمر، أُمِرَ به النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن هناك نقلة ستحدث، وتغييرًا سيبدأ [9].

(اقرأ) إيذان بمحو الأُمية، وبداية عصر العلم (اقرأ): كانت الكلمة (الأولى) في الخطاب الإلهي (الأخير) الموجه إلى الإنسان؛ بها بدأت الرسالة، و اختمت النبوة، أية كلمة سحرية هذه، التي ا انقطعت الصلة بين السماء والأرض؟ (اقرأ)! فإذا قرأت فإنك لن تكون بحاجة إلى إرشاد جديد من السماء، إنها الثقة الكبيرة التي منحها الله تعالى للإنسان، بعد أن وهبه العقل، والوسائل التي تكفل له تحصيل المعرفة، وأمره باستخدام هذه الرسائل وحذره من إهمالها وجعله مسؤولا عن تعطيلها [10].

أن الحضارة الإسلامية حضارة كتاب، حضارة قلم، حضارة علم ومعرفة؛ فحضارتنا الإسلامية مصبوغة بالصبغة العلمية المعرفية، ويكفينا للتدليل على ذلك بأن أول آية نزلت في آخر رسالة هي أمر بالقراءة، فقبل أن يؤسس القرآن لأي نظرية اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، وجَّهَ أنظارنا إلى أمر هو غاية في الأهمية، إذ وجه الخطاب لنا بصيغة الأمر بقوله عز من قائل: "اقرأ"؛ فالقراءة إيذان بمحو الأمية! القراءة هي مفتاح العلم والمعرفة! القراءة هي سبيلنا نحو الرقي والتطور! القراءة هي ينبوع العطاء![11].

اقرأ، كانت الكلمة الأولى السماوية الإلهية التي حملها أمين السماء جبريل عليه السلام، إلى أمين الأرض الرسول الأمي الخاتم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في غار حراء فوق جبل النور، أي أن الأمر بالقراءة جاء علويًا سماويًا في مكانٍ يعلو كثيرًا عن الأرض وإن اتصل بها ليبين مكانة القراءة في هذه الأمة الخاتمة التي يجب أن يكون عهدها كله المتصل بإسلامها مبتدءًا بالعلم ولكن ليس مختومًا به؛ فقد جعل الله تعالى لهذه الأمة أن تتغول وتتوغل في العلم إلى أقصى مداه مادام بسم الله وفي سبيل الله، والوسيلة والغاية الله، ومنفعة عباد الله، لا أن يجاهر الله العليم بعلمه الإلهي اللامحدود، إنسان بعلمه البشري المحدود فينكر الخالق وما خلق ويقول إني أنا الإنسان.

اقرأ سفينة مشرعة في محيطات العلم تبحر حيث لا ساحل، ولا تبغي الوصول إلى سواحل لا تعرف الله تعالى، بل بدايتها أمر بالتعلم من الخالق، وتنتهي بالتعلم مع الحمد للخالق، ووسيلتها التقوى، وحسن التوكل على الله العليم فيعلمها الله من علمه الذي لا يحيط به أحد، هذه "اقرأ" بوابة كبيرة، وعلامة فارقة، في تاريخ الديانات والأمم والبشرية كلها، وبها وفيها يجب أن لا ينقطع المسلم عن فهم أسرارها، واستكناه أغوارها، وتلمس أنوارها، ففيها عبق اللقاء الأول، عطر السماء، وعبير الغار، ونور النبوة، فيها قصة الإسلام كله: من قرآن كريم، وسنة مطهرة، وكل العلوم التي خرجت منهما، وكل العباقرة الذين حملوا العلم من منهلهما من علماء الإسلام إلى الدنيا كلها، فكانت حضارة الإسلام وإسهاماتها في الحضارة الإنسانية شاهدة على الألق الصادر من "اقرأ" الذي لم يتوقف، ولن يتوقف.

هوامش الفصل الثالث:

[1]د. المقرئ أبو زيد الإدريسي، منهجية التفكير كما يبرزها القرآن الكريم.
[2] جعفر يايوش: الصوت بين المعيارية و الموضوعية عند الخليل الفراهيدي، "انسانيات"، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، العدد 21، 2003.
[3] دكتور أحمد خيري العمري، البوصلة القرآنية، إبحار مختلف بحثًا عن خريطة للنهضة"، دار الفكر، 2003.
[4] دكتور أحمد خيري العمري، من غار حراء إلى "بارنز أند نوبلز".
[5]الدكتور إبراهيم عباس نَتُّو، (اقرأ).لفظةٌ قُرآنية لها معنى غير (القراءة)، مجلة الجزيرة، 2005.
[6] دكتور عبدالعزيز الحربي، اقرأ، ومعناها الجديد، المدينة، 2010/01/28.
[7] جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، دمشق 1988.
[8] دكتور راغب السرجاني، القراءة منهج حياة، موقع قصة الإسلام.
[9] علي الغامدي، عن القراءة أتحدث، ط. 1، 2015م، ص19.
[10] محمد عدنان سالم، القراءة أولا، دار الفكر، دمشق، 1995.
[11] حسن آل حمادة، العلاج بالقراءة، كيف نصنع مجتمعًا قارئًا؟، أطياف للنشر والتوزيع، السعودية، 2013، ص 19، 20.

ثبت بأهم المراجــع

أولاً : القرآن الكريــم.

ثانيًا: كتب السنة الصحيحة الواردة بالهوامش والحواشي.

ثالثا: كتب السير والتراجم:

السيرة النبوية لابن هشام - البداية والنهاية لابن كثير – الطبقات الكبرى.

رابعًا: تفاسير القرآن الكريم:

التحرير والتنوير، التفسير الكبير، السعدي ـ القرطبي ـ ابن كثير.

خامسًا: المصادر والمراجع التالية:

ـــــ العهدين القديم والجديد.
ـ ابن جبير، رحلة ابن جبير ط دار بيروت.
ـ ابن سبعين، "أنوار النبي صلى الله عليه وسلم، أسرارها وأنواعها" تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2007.
ـــ ابن سبعين، حزب ابن سبعين. مخطوط بدار الكتب الوطنية بالقاهرة، رقمه 1634.
ـ ابن سبعين، "مجموعة رسائل ابن سبعين"، تحقيق وتقديم دكتور عبد الرحمن بدوي.
ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، مراجعة وتقديم صدقي محمد العطار، الجزء الثالث، دار الفكر.
ـ ابن هشام: السيرة النبوية . طبعة الحلبى، القاهرة 1936.
ـ إبراهيم الدسوقي شتا (دكتور)، التصوُّف عند الفرس، دار المعارف، القاهرة.
ـ إبراهيم على أبو الخشب، الرسول في نشأته ودعوته.

ـ إبراهيم مدكور(دكتور)، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر، 1983.
ـ إبراهيم رفعت باشا، "مرآة الحرمين" مطبعة دار الكتب المصرية، المجلد الأول".
ـ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني(دكتور)، "ابن سبعين وحكيم الإشراق"، الفصل العاشر من الكتاب التذكاري: "شيخ الإشراق: شهاب الدين السهروردي، في الذكرى المئوية الثامنة لوفاته"، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1975.
ـ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني(الدكتور)، ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ط 1، دار الكتاب اللبناني 1973.
ـ أحمد خيري العمري، البوصلة القرآنية، إبحار مختلف بحثًا عن خريطة للنهضة"، دار الفكر، 2003.
ـ أحمد أمين، فجر الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
ـ أحمد بن الحسن البيهقي دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة،ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
ـ أحمد بهجت، أنبياء الله، الطبعة الخامسة عشرة، دار الشروق ودار الريان للتراث، القاهرة 1987.
ـ أحمد حسن الباقوري، قطوف من أدب النبوة، الجزء الثاني، كتاب اليوم، القاهرة، 1982.
ـ أحمد شوحان، رحلة الخط العربي من المسند إلى الحديث، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.
ـ أحمد عبد الرحمن، "في رحاب السيرة العطرة، افتراءات المضلين، في ضوء الحق المبين"، مكتبة وهبة، القاهرة، 2010.
السيد إبراهيم أحمد، الإعجاز البشري في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ط1، شبكة الألوكة.
ـ السهروردي، "عوارف المعارف"، دار الكتاب العربي، بيروت.
ـ القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفي . .تحقيق أحمد فريد المزيدى . الطبعة الأولى، المكتبة التوفيقية، القاهرة .
ـ الكسندر بوشكين، الغجر وأعمال أخرى، ترجمة رفعت سلام.القاهرة2010.
ـ أنيس منصور: طلع البدر علينا .الطبعة الثانية، دار الشروق، مصر 1988.

ـ بدر نايف الرشيدي، "صورة المكان الفنية في شعر أحمد السقاف، رسالة ماجستير 2012، جامعة الشرق الأوسط.
ـ ج. بورجوين، الزخارف الهندسية العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1989.
ـ جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة الإمام علي، ج 1، المكتبة العقائدية.
ـ جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، دمشق 1988.
ـ حسن آل حمادة، العلاج بالقراءة، كيف نصنع مجتمعًا قارئًا؟، أطياف للنشر والتوزيع، السعودية، 2013.
ـ خالد محمد خالد: عشرة أيام في حياة الرسول . الطبعة الخامسة، دار المقطم للنشر، مصر2004.
ـ خالد محمد خالد، إلى هذا الرسول، الطبعة الأولى، دار المقطم للنشر والتوزيع، مصر 1996.
ـ راغب السرجاني، القراءة منهج حياة، موقع قصة الإسلام.
ـ زكي نجيب محمود (دكتور)، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، ط3، دار الشروق، القاهرة، 1981.
ـــ سليمان كتاني، "محمد شاطئ وسحاب"، ط2، دار الهادي للطباعة والنشر، 2007.
ـ سعد الدين صالح (دكتور): المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم ط2، دار المعارف، مصر، 1993.
ـ شهرام بازوكي (دكتور)، "الدين والتصوف والعرفان، العلاقة والارتباط"، نصوص معاصرة، مركز البحوث المعاصرة، بيروت.
ـ شوقي ضيف(دكتور)، فصول في الشعر ونقده، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر1988.
ـ شيخ الاستشراق شهاب الدين السهروردي "حكمة الإشراق والفينومينولوجيا" الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1974.
ـ صادق سليم صادق، المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، عرضًا ونقدًا، مكتبة الرشيد، الرياض، 1994.
ـ صالح أحمد الشامي، الفن الإسلامي إبداع والتزام، ط1، دار القلم، دمشق،1990.
ـ صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم، تحقيق عبد الجبار الزكار، المجلد الأول، دار الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978.

ـ صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، الطبعة الأولى، دار الوفاء، مصر 2002.
ـ صلاح أبو السعود، الشيعة، النشأة السياسية والعقيدة الدينية منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم"، مكتبة النافذة، القاهرة،2004.
ـ دكتورة عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن، ج2، ط 5، دار المعارف، القاهرة، 1990.
ـ عائشة عبد الرحمن(دكتورة)، مع المصطفي في عصر المبعث، دار المعارف، مصر1977.
ـ عباس العقاد: "الإسلام دعوة عالمية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999.
ـ عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، المكتبة الإسلامية.
ـ عبد الشافي محمد عبد اللطيف، تاريخ الإسلام في عصر النبوة،
ـ عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، مكتبة لبنان، بيروت، 1992
ـ عبد العزيز كامل(دكتور)،الإسلام والمستقبل، سلسلة اقرأ عدد (401)، دار المعارف، القاهرة 1975.
ـ علي بن برهان الدين الحلبي، إنسان العيون في سيرة المأمون (السيرة الحلبية)، الجزء الثالث، بيروت، دار احياء التراث.
علي بن محمد الماوردي، أعلام النبوة.
ـ على حسن الخربوطلي، الكعبة على مر العصور، سلسلة اقرأ.
ـ عبد المعطي الدالاتي: "ربحت محمد ولم أخسر المسيح، مكتبة صيد الفوائد العالمية.
ـــ عبد الظاهر أحمد عبد الناصر، رسائل ابن سبعين، دراسة تحليلية وفنية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنيا، مصر، 1982.
ـــ عثمان الشيخ عمر، إقناع المؤمنين بتبركِ الصالحين، راجعه وصححه عبد الناصر علي حسين، الطبعة الخامسة، مقديشيو، الصومال، 1429هـ.
ـ على الطنطاوي، من نفحات الحرم، دار الفكر، دمشق، 1980.
ـ علي سامي النشار (دكتور) ومحمد شاكر، شجرة محمد"، سلسلة الفكر الإنساني السكندري، 1971.

ـ علي شواخ إسحاق، ماذا حول أمية الرسول صلى الله عليه وسلم، ط1 دار السلام للنشر، بيروت، 1978.
ـ غسان عزيز حسين، ورقة بن نوفل مبشر الرسول، ط1، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، بيروت، 2002.
ـ فلاديمير ويج بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، 1983.
ـ فلاح بن إسماعيل بن أحمد، "العلاقة بين التشيع والتصوف"، رسالة دكتوراه، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1411هـ.
ـ كاتارينا مومزن، جوته والعالم العربي، ت. عدنان عباس علي- عالم المعرفة ع: 194، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، فبراير/شباط.1995.
ـ محمد أبو زهرة (دكتور)، الإمام جعفر الصادق، دائرة معارف الشعب، القاهرة 1959.
ـ محمد أحمد لوج، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة، ج1، دار ابن القيم ودار ابن عفان، القاهرة، 2002.
ـ محمد إقبال، الأسرار والرموز/ "كليات إقبال" (الفارسية)، ص22، ترجمة: دكتور يرسم عبد الحميد إبراهيم، " ديوان الأسرار والرموز"، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005.
ـ محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب . مكتبة الأسرة، مصر2001 .
ـ محمد حسين هيكل(دكتور)، في منزل الوحي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، القاهرة 2014.
ـ محمد سيد أحمد المسير(دكتور)، النبوة المحمدية، ط 2، نهضة مصر،2007.
ـ محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام"، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا.
ـ محمد رواس قلعه جي (دكتور): دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، 1988.
ـ محمد عدنان سالم، القراءة أولا، دار الفكر، دمشق، 1995.

ـ محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، دار الآفاق الجديدة، ط2، بيروت 1983م.
ـ محمد ضياء الرحمن الأعظمي (دكتور)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد، الرياض، 2003.
ـ محمود حمدي زقزوق (دكتور)، مقدمة في الفلسفة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة.
ـ محمود على مكى (دكتور)، المدائح النبوية، الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر.
ـ محمود سالم محمد (دكتور)، المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي، طبعة أولى، دار الفكر، دمشق، 1417.
ـــ محمود قاسم (دكتور)، دراسات في الفلسفة الإسلامية، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، 1967.
ـ معروف الرصافي، الشخصية المحمدية، ألمانيا، منشورات الجمل، 2002.
ـ مهدي البيشوائي، "سيرة الأئمة عليهم السَّلام، عرض وتحليل للحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية للأئمة المعصومين عليهم السَّلام"، ترجمة حسين الواسطي، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام طبعته مطبعة اعتماد ـ قم، 1423 هـ.
ـ موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، القاهرة، 1982.
ـ نصر الله عبد الرحمن أبو طالب (دكتور)، تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد، الطبعة الرابعة، دار الوفاء للطباعة والنشر، 2009م.

سيرة تعريفية بالكاتب

السيد إبراهيم أحمد

ـــــ رئيس تحرير مجلة كنوز الأقلام الثقافية.
ـــ نائب رئيس مجلس إدارة صالون المنصورة الثقافي الرياضي العربي.
ـــ حاصل على دبلوم الدراسات العليا في المحاسبة المالية، جامعة عين شمس بجمهورية مصر العربية، ودبلوم الدراسات العليا بالمعهد العالي للدراسات الاسلامية بالقاهرة.

ـــ عضو اتحاد الكتاب والمثقفين العرب، وشعبة المبدعين العرب التابعة لجامعة الدول العربية، وعضو مؤسس بمؤسسة الاتحاد العالمي للثقافة والآداب ورئيس اللجنة الإعلامية بها، ومنسق اتحاد المثقفين العرب، ومن كتاب ومفكري شبكة الألوكة، والمختار الإسلامي، ومكتبة صيد الفوائد العالمية، ورابطة أدباء الشام، ودار ناشري، وحروف منثورة للنشر الإلكتروني، وموقع الحوار المتمدن، وعضو بتجمع ناشرون.

ـــــ نال وسام الإبداع وشهادات تقدير من اتحاد الكتاب والمثقفين العرب، وشبكة النور "المختار الإسلامي"، ونال أيضًا درع الملتقى الأول لصالون عزة أبو العز الثقافي عن مجموع أعماله.

ـــــ قدم الأديب السيد إبراهيم أكثر من ثلاثين حلقة بقناة النيل التعليمية المصرية مأخوذة من مؤلفاته.

- أعد مائة حلقة من برنامج: "مع أسماء الله الحسنى، فهمٌ وذكر"، وكذا سهرات تليفزيونية عن شهر رمضان الكريم.
ـــ أعد عددًا من البرامج الدينية لبعض القنوات، مثل: واحة المستغفرين، لقاء الإيمان، غير كليب عن مناسك الحج، وكليب في الدفاع عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، وشريط ديني للأطفال.
ـــ اعتمدت الجامعة الإسلامية العالمية بالمدينة المنورة، وجامعة الخليل بفلسطين المحتلة، بعض مؤلفاته كمراجع أكاديمية أدرجتها في رسائل الدكتوراه الصادرة عنهما.

ـــ فاز بمسابقة قصص على الهواء بإذاعة هيئة الإذاعة البريطانية BBC والتي قدمتها مسموعة من خلال البرنامج، بالاشتراك مع مجلة العربي الكويتية في مايو 2010 عن قصته: (القطار)، والتي اختارها الناقد البحريني الكبير فهد حسين، والذي قال عنها: (قصة فنية تعاملت مع شخصيتين رئيسيتين لإيمان القاص بقدرة القصة على طبيعة استيعاب الشخصيات في القصة، بلغةٍ قصصية جميلة، وتقنيةٍ تعاملت مع القص بشكل فني. وضحت فكرة البُعد التراثي في الفكر التقليدي للعائلات في المجتمع).

ـــ اختارت دار (نور نشر NOOR PUBLISHING) الألمانية ثلاثة أعمال دينية من مؤلفاته، وهي: "رسول الله صلى الله عليه وسلم حيٌ في قلوبنا"، "منهاج الزهد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، "الإعجاز البشري في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم".

ـــ قدمت الدكتورة الأردنية ديانا رحيل أستاذ النقد الأدبي الحديث بجامعة اليرموك وفيلادلفيا دراسة نقدية عن المجموعة القصصية ككل، نشرتها بجريدة الدستور الأردنية، بعنوان: الكتابة ومصافحة البؤس الاجتماعي ـــ قراءة في مجموعة "طقوس للعودة" للكاتب السيد إبراهيم أحمد.

ـــ كتبت الدكتورة رانيا يحي أستاذ النقد الأدبي الحديث بأكاديمية الفنون بالقاهرة مقالة نقدية عن ديوانيه: "إلا الوطن"، "نادر يبحث عن السعادة" نشرتها "المسائية" دار أخبار اليوم القاهرية.

ـــ كتبت عنه الباحثة والصحفية ندى السيد دراسة بعنوان: "المرأة في أدب السيد إبراهيم".

ـــ ترجمت بعض أعماله إلى اللغة الإنجليزية.

ـــ شارك في تحكيم بعض المسابقات الأدبية بالمملكة المغربية عبر منتديات دواوين الدار البيضاء، وحضور بعض الفعاليات الأدبية والفنية مع بعض أدباء وفناني مصر في عدة محافظات مصرية.

ـــــ قدم العديد من الدراسات القيمة في النقد الأدبي من خلال تقديم دراسات عن إنتاج بعض الشعراء والروائيين المصريين والعرب منشورة في أكثر من مجلة ودورية علمية.
ـــــ أقام معه الشاعر الجزائري ياسين عرعار حوارًا سياسيًا مطولاً على صفحة كاملة بجريدة الحوار الجزائرية.
ـــ تغنى بقصائده وأغنياته الدينية الكثير من المبتهلين بالقنوات الفضائية الإسلامية، كما بثتها بعض الإذاعات، و كذلك قدمتها دار الأوبرا المصرية.

ـــ إصداراته:
تتناول كتابات الأديب السيد إبراهيم أحمد موضوعات عدة؛ ذلك أن كتبه ودراساته ومقالاته ومحاوراته تتنوع بين الأدب والدين والسياسة، وهذا ما نلاحظه عند تصفح عناوينها، ومنها:

**في مجال الدين والدراسات الدينية:

ـــ كتاب: "المعجزة المحمدية"، دار نور للنشر، المنصورة.

ـــ كتاب: "محمد صلى الله عليه وسلم، كما لم تعرفوه"، دار دوِّن للنشر، القاهرة.
ـــ كتاب: "السهل المفيد في أحكام التجويد"، صادر عن شبكة الألوكة، ودار حروف منثورة للنشر.
ـــ كتاب: "سياحة الوجدان في رحاب القرآن"، صادر عن شبكة الألوكة، ودار حروف منثورة للنشر.
ـــ كتاب: "نساء في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم"، صادر عن شبكة الألوكة، ودار حروف منثورة للنشر.
ـــ كتاب: "حبًا في أمي عائشة"، صادر عن شبكة الألوكة، ودار حروف منثورة للنشر.
ـــ كتاب: "منهاج الزهد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم"، شبكة الألوكة، ودار ناشري.
ـــ كتاب: "سيظل رسول الله صلى الله عليه وسلم .مهما أساؤوا"، صادر عن دار ناشري بالكويت.
ـــ كتاب: "كل ما فيه معجزة صلى الله عليه وسلم"، صادر عن مكتبة صيد الفوائد العالمية.
ـــ كتاب: "رسول الله صلى الله عليه وسلم حيٌّ في قلوبنا"، صادر عن مكتبة صيد الفوائد العالمية.
ـــ كتاب: "الإعجاز البشري في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم"، صادر عن شبكة الألوكة.

** في مجال الأدب:

ـــــ كتاب: "حاوروني وحاورتهم"، صادر عن دار حروف للنشر الإلكتروني.
ـــ كتاب: "حوارات عربية"، صادر عن دار حروف للنشر الإلكتروني.
ـــ كتاب: "مع مهندس العروض الرقمي، وقفات وتساؤلات"، صادر عن دار حروف للنشر الإلكتروني
ـــــ مجموعة قصصية "طقوس للعودة"، صادر عن دار ناشري بالكويت.
ـــــ ديوان شعر بالعامية المصرية بعنوان: "إلا الوطن"، صادر عن دار مصر اليوم، القاهرة.

ـــــ ديوان شعر للأطفال: "نادر يبحث عن السعادة"، صادر عن دار مصر اليوم بالقاهرة.
ـــــ مسرحية: "المنعطف الأخير"، صادرة عن دار حروف للنشر الإلكتروني.
ـــ مسرحية: "العائد الذي ما عاد"، عن حروف للنشر الإلكتروني، ومجلة الفرجة المسرحية المغربية.
ـــ الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الأول، صادر عن دار حروف منثورة للنشر الإلكتروني.
ـــ له العديد من المشاركات والحضور من خلال برامج قناة النيل الثقافية، وقناة النيل للأخبار، وقناة القنال، وبعض القنوات الدينية، وإذاعة صوت العرب.

ـ تنشر أعماله: [شبكة الألوكة، مكتبة صيد الفوائد، رابطة أدباء الشام، دار ناشري للنشر الالكتروني، حروف منثورة للنشر، مجلة الرباط الأدبي التي تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية،،المستقبل، دنيا الرأي، دنيا الوطن، مجلة الجيل، الأهرام، الفجر نيوز، الواقع، الدلتا، مجلة الفكر الحر، صحيفة الشرق القطرية، المختار الإسلامي، مقالاتي، مكتوب، شبكة أعلام القدس، ألوان عربية، مجلة رؤى مصرية].

ـــ للتواصل بالكاتب:
elsayedebrahim22@gmail.com